

الزاوية المهجورة

بذور الإرهاب

عبد العزيز السُّفْياني

اسم الكتاب: الزاوية المهجورة - (الجزء الأول) بذور الإرهاب

المؤلف: عبد العزيز السفيني

الناشر: بورصة الكتب للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: نوف عبد العزيز السفيني



٢٥ شارع شريف - القاهرة

Email: adel.metwaly69@yahoo.com

٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩ - ٠١٠١٨٨٩٣٦٣

رقم الإيداع: ٢٠١٥/ ٨٧٠٥

الترقيم الدولي: ١ - ٩١ - ٥٠١٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

السفيني، عبد العزيز.

الزاوية المهجورة - ج ١ بذور الإرهاب: رواية / عبد العزيز السفيني - ط ١ -

القاهرة: بورصة الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠١٥ .

ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ١ - ٩١ - ٥٠١٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - القصص العربية.

أ- العنوان.

الزَّأْوِيَةُ الْمُهْجُورَةُ

بُذُورُ الْإِمْرُهَابِ

عبد العزيز السُّفْيَانِي



٢٠١٦م

obeikandi.com

لَيْسَ كُلُّ مَا تَشَاهِدُ حَقِيقَةً

وَكُلُّ مَا تَسْمَعُ صَوَابًا

وَكُلُّ مَا تَقْرَأُ صَحِيحًا

وَكُلُّ مَا يُعْلَمُ يُقَالُ

وَكُلُّ مَنْ قَالِ عَالِمٌ

obeikandi.com

هَذِهِ الْقِصَّةُ

وَمَا يَجْرِي مِنْ أَحْدَاثٍ دَاخِلٍ أَوْ خَارِجٍ شَخْصِهَا

وَفِي تَوَارِيخِ زَمَانِهَا وَجُغْرَافِيَةِ الْمَكَانِ

هِيَ مِنْ خَوَاطِرِ

حَقِيقَةِ

الْخَيَالِ

وَوَحْيِ

أ

ل

ح

ق

ي

ق

ة

obeikandi.com

الإهداء

إلى أمي

إلى وطني الأم

إلى وطني الكبير

obeikandi.com

شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

الشُّكْرُ الْجَزِيلُ لِكُلِّ مَنْ سَاهَمَ فِي ظُهُورِ هَذِهِ الرَّوَايَةِ

وَإِخْرَاجِهَا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ

وَشَكَرَ خَاصَّ

لِزَوْجَتِي

وَأَبْنَائِي وَبَنَاتِي

obeikandi.com

طالما أنَّ العدالة الاجتماعية لا تزال مغيبّة واختلاف المعايير في
قياس الأحكام المطبقة على سلوكيّات المجتمع قائم؛ فإنّ العالم
بحاجة إلى مزيد من هذه الروايات.

السّيفاني

obeikandi.com

أن تعيشَ أسيرَ أحلامِكَ في صحراء قاحلة عارية إلا من حقيقة شمسها المحرقة، أو رياحها اللافحة، التي تصفحك على وجهك علّك تفيق قبل أن يأتي الليل ليجلدك بسكونه الرّهيب ويستصغرك بنجومه التي تلمع في سواد سمائه، وقمره السّاخر من بعد الثرى عن الثرى، وتملكك الرّغبة في أن تكافح من أجل رؤيا تحوّلت إلى حلم فهدف ليغدو وسواسًا، يطارد ويحثّ ويكبح في الوقت نفسه جموح الشّكوك التي تطاردك كأشباح خيفة لا تعرف منبعها، طوعًا أم كرهًا لتنسج حولك سلكًا من الأوهام لتصنع منه سلاسل عبودية تقيّد بها نفسك، صنعتها من نسيج أوهامك لخدمة ما ظننت أنّه مقدّس، عندما وضعتها تيمية في محراب صلواتك، ولم تكتفِ بما تبذله من مجهودٍ بدنيٍّ وذهنيٍّ ماديٍّ وماليٍّ، بل أفرغت روحك لتحقيق نصرًا غير واضح المعالم، لم تكلف نفسك بدراسة حساباته بدقّة، ولم تبالِ بأنك ورقة خريف اقتاتت عليها بعض اليرقات العالقة، وأخذت تتقاذفها الرّياح، لا ترى إلا ما تعتقد، ولا تبصر إلا بؤرة الوصول إلى نسكك في محرابك.

ألم يعتربك القلق أو الخوف من الأثمان الباهظة التي ستقدّمها أضحية لعبادتكَ، ولم تحاول حتى مجرّد المحاولة أن تبني ملجأً تأوي إليه للانفراد والتأمّل والتّقييم والتّقويم والمتابعة النّاصحة مع النفس أو مع الآخر، بصرف النّظر عن مفهوم الثقة والمعادلات النّسيبيّة المعقّدة المرتبطة، وبرغم إيمانك الذي تحاول ألا يتزعزع، ومعرفتك التي لا يمكن أن تقنع الدّئات بهضمها، بأنك عاجز عن تفحص شخصيّات الغير، والسّبر في غور ملفاتهم، فعلى الأقلّ حققت نجاحًا في إخفاء الكثير من ملفات الماضي الخاصّة بك لكي تستطيع أن تندمج مع من تسلقوا معك مقاعد قطار الحياة في مراحل

المختلفة ومحطاته المتعددة وشخصه الغائبة الحاضرة الظاهرة المخفية دون احتجاج أو انتقاد، مرتدياً عباءة الغموض حاملاً على متنك درع الخديعة والمناورة مستغلاً قوارب الطمع والجهل لدى الآخر في محيط الظروف المتلاحقة، وبالرغم من تمتعك بصفاء غريب وصلابة فريدة في المعتقد، ترى العالم بلونيه الأبيض والأسود ولا تجد اللعب في منطقة اختلاط الألوان أو انعدامها، لصعوبة تحديد الرؤية من خلال هذا التمازج غير المقصود أحياناً، المغربي بخديعة تناغم، ووهم سراب، سرعان ما تقرر أنه لا يمنع الظمأ، وتعرف ببساطة الحق من الباطل وتفرّق بين الإيمان والكفر، وبهذا تسمو روحاً وفكراً، هذه التراكمات خلقت منك وغرست فيك غصن مشاعر لتكره الكذب وتمقته وتحتقر صاحبه وتحبّ الشّفافية والصدق وكأنّك تعيش في المدينة الفاضلة أو تتعامل مع ملائكة يمشون على الأرض، وأنت تعلم أنّ البسيطة جُعِلتْ لمن يفسد فيها ويسفك الدّماء، والخالق يعلم ما لا نعلم.

وضع سعد القلم جانباً بهدوء وهو يسمع المفتاح يتحرّك داخل المزلاج الحديديّ لباب زنزانته، الصّوت الذي أخرجه من عمق تفكيره، يعزف موسيقاه الجنائزيّة، لم يكلّف نفسه الالتفاف بل نظر بعينه في المرأة الصّغيرة الموضوعّة أمامه أساساً ليرى المتطفّل عليه في عزله القسريّ من خلال النّافذة الحديديّة الصّغيرة التي رسمت على شكل مستطيل أو القادم من خلفه، كان متأكّداً أنّهم يأخذونه للتحقيق. هؤلاء المحقّقون لا يشبعون من الحديث وتكرار السّؤال:

مَن هم شركاؤك؟ ما هو دورك؟ مصدر التمويل؟ مصدر الأوامر؟ وكأنّهم لا يعلمون أنّ مَن يحقّقون معه قد تعلّم على أيدي مَن هم أعلم منهم وأكثر خبرة ودراية، بل إنّ كان هو نفسه يُدرّس ويُعلّم ويُدرّب بعض المنتمين إلى التنظيم أساليب التحقيق والتعذيب النفسيّ والبدنيّ الذي قد

يتعرّض له أحدهم، لا يعلم هؤلاء المحقّقون أنّهم بعملهم هذا إنّما يهدرون وقتهم ووقته الذي كرّسه للكتابة في جحره الصّخريّ البارد مع الإيفاء بشرط مدير السّجن أن يزوّده بنسخة مما يكتب مقابل أن يزوّده بالورق والقلم.

المفاجأة عندما سمع صوت العسكري وهو يطلب منه أن يستعدّ لملاقاة والده وأخويه الكبارين في مكتب سعادة الضّابط مدير السّجن، ضحك بتهكّم والتفت ببطء إلى الخلف رافعاً عينيه عن الأرض بثقل رجل غير مكترث لما يجري حوله، وكأنّه قادم من عالم آخر، وقال بصوت لا يخلو من الاستغراب المخلوط بالتعجّب أنا...؟!

العسكري: إيه... أنت.

سعد: أبوي... أنا... (وضحك بتهكّم)... أبوي حيّ يرزق!

العسكري: وتنكر أبوك بعد!

سعد: أنت... متأكّد؟

العسكري: طبعاً... أعتقد أنّ اسمك سعد سعيد سعد مسعود.

سعد: حسب بطاقة الأحوال... نعم، والحمد لله إنكم أخيراً اعترفتم أنّي

سعد سعيد.

العسكري: وحسب ما هو مكتوب في المذكرة الي في يدي كمان.

سعد: تحققت من الرّجال؟

العسكري: أقول اجهز واترك الخريطة الفاضية عنك... والدك سعيد

سعد مسعود بشحمه ولحمه... لا... وأزيدك من الشّعر بيتين ما هو بيت

واحد معه رجالين يقولون إنّهم إخوانك مسعود وسعود في مكتب ضابط

المناب.

الاسم: سعد سعيد سعد مسعود أو المسعود (حسب بطاقة الأحوال

الرّسميّة ورخصة قيادة وشهادات دراسيّة).

مكان الميلاد: قرية (قرى).

المنطقة: الجنوب الغربي.

تأريخ الولادة: ١٢ / ١٢ / ١٣٨٦ هـ.

اسم الأم: مرضية حسين مرجع.

الاسم : سعد عبد الله بن مساعد الزدن (حسب بطاقة أحوال رسمية أخرى رخصة قيادة سعودية عدد من جوازات السفر والوثائق الأخرى في ملف القضية).

مكان الميلاد: قرية (كرا).

المنطقة: الشمال الغربي.

تأريخ الميلاد: ١١ / ١١ / ١٣٨٥ هـ.

اسم الأم: راضية محمد علي إبراهيم.

الاسم: أكبر أمير أحمد شاه (حسب إقامة رسمية).

الجنسية: باكستاني.

الكفيل: مؤسسة (عين سين).

(ابن الوقاص) اسمه الحركي مع الجماعة.

تتوه وتسخر منك ساحة وجه الطفل الذي يحمله، وداخل نظرات البراءة التي تغطي عليه، قد تقرأ الحماسة والعزيمة، أمّا تلك البسمة (المنبوليزية) التي لا تفهم منها هل تسخر منك وأنت تشخص فيها؟ أم أنّها تبادل لك فرحة لقاء الغرباء؟

تلك الفرحة التي تجذبهم كيمياء لا حول لهم ولا مقدرة في تركيبها أو معرفة أسرارها، لتزيد من حيرتك، فيها من السحر والجاذبية (والكاريزما) لمحبة واحترام صاحبها، محبة لا تعرف كيف انجرفت في تيارها دون عناء أو

مقاومة، ودون احتيال أو اجتهاد أو حتى مطالبة من مالکها، هكذا وجد نفسه منذ نعومة أظافره كالشمعة تتكاثر الفراشات حولها هائمين حول نورها ليتساقطوا موتًا حبًّا أم حرقًا.

تقول عنه جدته لأُمّه (سكرة) وهذا هو اسمها إن كلَّ من يحمل (السعد) وهو الاسم الذي تفضّله يحسّ أنّه قطعة منه لا يعرف لماذا؟

سمعت غرباء كثر يقولون بعد أن ضمّوه إلى صدورهم، أنّهم شعروا بعلاقةٍ ما، تقربهم من هذا الرضيع، أنداده من أطفال القرية يسابقون أنفسهم لإرضائه ويتبارون للتقرب منه عندما بدأت خطواته الأولى في مدرسة قرية (شرا) في الشمال الشرقي أعجب المعلمون به قبل زملائه من أقرانه، بشخصه وسرعة فهمه، وحسن خلقه.

يخطفك كالقدر المحتوم قبل أن تشعل موقد الحذر والشك، يتنقل مثل هبوب النسيم لا تشعر بوجودها إلا عندما تلامسك، لم يكن متمردًا بالرغم من استخدامه طرقًا مختلفة في التعامل، لا يحب إظهار شخصيته القيادية التي لا تحتاج إلى بروز، كالشمس يظهر لينير، ويدفئ ليحرق من يسرقه زمن لذة لساعاتها، ويغيب ليتأمل ويسجل ويمحو ويعيد ويصحح ترتيب مصفوفة المعلومات في مكعبات المتغيرات المتلاحقة، هادئ هدوء الصّحراء، مستمع يملك مصفاة تحفظ المفيد في ملفات فهرسة داخل حجم الذاكرة وتلقي بالردىء في زباله النسيان.

لا يعرف التعصّب لقبيلة ينتمي إليها أو لرأي يتبنّاه ويفرضه على الآخرين أم لا يظهر عليه ذلك، ويجعل الآخر هو من يتبنّى ويعمل؟

مسلم لا يدّعي الإفراط في الإيمان، محافظ على صلاته في الجماعة باسمه الرّسمي أو شخصيته الحقيقية، لم يك ذلك النّابغة أو صاحب القدرات الخارقة لنواميس الحياة، لكن تشعر برهبة في لقاءه تنتظر أمرًا، أو تتوسّل

حكمة، أو تقرأ بين حديثه المقتضب مستقبل أحداث تصدق في معظمها
يتملكك شعور غريب بأنك تحتاج إليه، حتى وإن لم تك تراه كالأوكسجين
لا نراه ولكن لا نستطيع أن نعيش بدونه، وقد يضرنا أو يقتلنا إذا تناولناه
بالكمية الخطأ أو المكان الخطأ.

الأكثر إثارة للملاحظة هو الجاذبية الممغنطة التي تسحبك دون وعي،
واستسلامك وتصديقك لما يقول، وتنفيذك ما تؤمر به قبل أن تؤمر، تقول
دون تحفظ وبأمانة ما سمعت، رأيت، فعلت أو أحسست، وكأنك مسلوب
الإرادة تضع بدائل الحلول دون طلب وتترك مساحة الوقت لاختيار البديل
الأفضل.

عندما يمشي تظن أن الدنيا قد فرشت دروبه بالورود بساطاً، وأسبلت
عليه كسوة من ثياب الهناء والرخاء والسعادة معطرة بأجمل خلطات عطور
باريس، واثق الخطى، رافع الرأس دون غرور أو كبرياء بالرغم من أن ماضيه
وعلاقته بأودية الفقر والحرمان لا تصنع رجلاً في نعومة حديثه أو رقة
خطوته، وإن غرست فيه بذرة لشجرة نسميها تجاوزاً (قناعة الرضا) التي
نمت وترعرعت وأثمرت في تربته.

تناقل في القيام ثناء، تمطى، وأصدر صوتاً من داخله كأنه يخرج ألم
السنين من جوفه وهو مشبك أصابعه ممدداً يديه مائلاً بجذعه، ثم انتفض في
حركة كمن مس بتيار كهربي أو كأنه يريد أن يسقط شيئاً ما قد علق داخل
جسده النحيل، وتتم يحدث نفسه ويسمع السجان: أبي إخواني مسعود
سعود (وتبسم بسخريه وكأنه يضحك من داخله بالتأكيد أن له أب وإلا
كيف يأتي إلى الحياة فهو ليس - عيسى - عليه السلام ولم تك أمه مريم) لكن
أنا بالفعل ما شفت أبوي... ولا أعرف إن كان عندي إخوان وعائلة... يا الله
ننسى أو يتسلى علينا الوقت والسجان وأخذ يردد:

ما أنا إلا من غُزِيّة إن غوت غويت وإن تُرشد غُزِيّة أرشد
انشغل جندي بوضع القيود في قدميه، بينما مدّ يديه بطريقة آليّة للجندي
الآخر ليقوم بعمله في وضع أغلالها، أمّا بقيّة الجنود فقد كانوا مصفوفين
خارج الزنزانة على طول الممرّ الذي يفصل بين الزنانات كان يسحب قدميه
سحبًا مازًا على السّجناء في طريقه إلى مكتب مدير السّجن، ناظرًا إلى هذا
الحشد من الجنود وكأنّهم في مهمّة لتلميع أحدهم في الشّارع، تبسّم لهذه
الأفكار التي قد يتّهم على أثرها بأنّها ماركسيّة أو لينينيّة وهي في الحقيقة
صافية من الشّوائب صفاء منيع ما يؤمن، فهو قد أسلم واستسلم (لقد
حكمت فعدلت فنمت قريّر العين يا عمر)، ولكنّ سهم المنيّة الغادر لم يرحم
عدالة ابن الخطّاب فسقط وسقطت معه عدالة الأرض إذا كان في الأرض
بقايا عدالة!

أستمع مترنّمًا لصليل السّلاسل وهي تسحب على الأرض تصدر صوتًا
يجبها بنغمة من أصوات الحديد التي كانت في يديه ويدندن معهم معتقدًا أنّه
نغم ينساب إلى النّفس فيطربها، هل هي إشارة لباقِي السّجناء أنّه لا زال حيًّا
يُرزق يمشي على الأرض؟

عبثًا حاول أن يشقّ جدار ذكريّاته علّه يجد صورة مقرّبة أو مشوّشة لمن
يتصوّر أنّه والده، لم يذكر أنّه شاهد رجلًا وقيل له أنّه أباه في يوم من الأيام لا
في صغره، ولا حتى في أيّ مرحلة من مراحل حياته التي بدأت تشارف على
الأربعين عامًا، هل الرّجل الموجود في غرفة الضّابط يشبه الرّسم الذي تخيّل
رسم أفغاني له بعد أكثر من عشرين عامًا؟ وماذا يعني ذلك؟ قد يكونوا
أحضروا شخصًا يشبهه! قد وقد! أمّا والدته فقد كان يحمل لها صورة في ذهنه
طبعها متى؟ لا يتذكّر ولكنّه يسترجمها دائميًا وبشكل يومي خوفًا من أن
يفقدها في زحمة الأحداث، وتراكم الصّور وكان مواعده معها دائميًا قبل أن

يغمض عينيه يستحضرها من صندوق ذاكرته القريب البعيد ويغلق عليها جفنيه ويودّعها بابتسامة ردًا على ابتسامتها ويناام.

عندما توفيت والدته بالكاد تجاوز عامه الهجريّ الرابع يتخيّلها هزيلة من فقر قسا عليها ولم ترحم أنيابه أهلها وجماعتها، سقيمة بعد أن فتك مرض (السّل الرّئويّ) بجسدها النّحيل أصلاً، فقد أبعدوه قسراً عنها حتى لا يُصاب بالعدوى، لم يكُ يعي ما يجري بل كان يتابع غرفة أمّه من آخر الممرّ بدموع لا تجري على خديّه حتى لا تراها فتزيد من آلامها أو يراها أحد ويبلغها، بل تتحجّر ويبلعها إلى الدّاخل كالمياه الجوفيّة عبر مجرى يربط العين والخلق بالأنف، يشعر بأملاحها تكوي جروحاً قد بدأ الزّمن يحفرها في داخله الغصّ ويغرّز من بعضها نتأ، ليضع بصمات مروره من خلال أزقة الحزن المؤلمة ليترك ندوباً يلقيها بقسوة في أودية العقد النّفسيّة المترابطة التي تغدّي بعضها بعضاً من تراكمات المعاناة ليجهّز لعواصف القادم من الآلام في مستقبل الأيام، فالشّجرة القويّة هي تلك التي تقاوم الأعاصير لتنتج أجود أنواع الخشب وأغلاها على الإطلاق، ولكنّ الشّجرة قد تكون _ طيبة _ يعتمد ذلك على البذرة والتربة والماء والطقس.

غاصّ سعد في ذلك الألم الذي لا يفرّق بين صغير وكبير غني أم فقير، وفتح ملفه وغرق في أعماقه حتى تذوّق الطّعّم نفسه، واستنشّق العبير نفسه، وعلق في المشاعر نفسها، كيف غدرت سكينه الزّمن بعد أن أخرجت من النّار وغارت في جسد طفل غصّ لم يكتفِ الفاعل من حرمانه من عطف والده الذي لا يعلم عنه شيئاً، لم يتذكّر أنّ أحداً قال له إنّ أباه مات وها هو يعود من قبور الأحياء، القدر الذي سلبه تلك التي كانت تسقيه الحنان والعطف والرّعاية عن الأب والأمّ.

عندما كان مسموحًا له أن يأوي إلى قريها في بعض الأمسيات ويلقي بجسده الصَّغير على صدرها يقرأ في عينيها الحزن والاستسلام، قبل أن يغفو يوقن أنَّ هاتين العينين اللتين لا تغفوان تحرسانه وتراقبانه، تتوسَّلان إليه أن يصبح رجلًا قويًّا ينتشلها وأمَّها من نظرات زوجة خاله، القاسية قسوة قذارة وحرارة ورطوبة ذلك الجحر الذي تتقاسمه مع جدّته وبعض من بقايا طعام كانت تشاركهم فيه لا يكفي زوجة خاله الحامل وأبناء خاله السَّبعة، أمَّا الخال فقد كانت ثيابه الرِّثة ونحول جسده دعاية متحرّكة مجانية في الأسواق عن حال هذه الأسرة والأسر المحيطة بهم في هذه المنطقة التي تعتبر نائية حتى عن رحمة الطبيعة، فوضع خاله لا يسمح بأكثر، والجود من الوجود والعون من الماعون كما يقولون.

الصِّراع بين "سعد" ودموعه من يتلّع الآخر في نهر المראה الذي ينحدر في جوفه يغلي بحمم العجز والقهر وهيب نار مضرمة بالرَّغم من قسوتها إلا أنَّها تحمل مصلّ المناعة للقدام من الأهوال، وإن كانت تحمل فيما تحمل من تدمير وسحق لأحلام لم تتكامل ولحظات سعادة تظهر كالسَّراب وتختفي كبرق السَّماء إلا أنَّها تخرج من عمق الزَّمن معادن تقويَّ عوده، المعاناة تصنع الرِّجال، لساعات عقارب السَّاعة التي تلدغ في سنوات العمر تترك بصمات التَّجارب تصنع منها مجاديف لصراع قائم لا محالة في خضم أمواج الحياة المتقلبة، وسيل من الأسئلة الجارفة التي تظهر فجأة دون سابق إنذار.

هل يهرب؟ من ماذا؟ إلى أين؟ وهل يملك النهر تغييرًا لمجره؟
عيناه تحاولان التَّسلُّل من خلال مساحات الوقت المتاحة متحديّة مسافات سكّة الشُّوق واللهفة التي تفصل موقعه في الممرّ وموقع جسد ملقى في غرفة يبعده عنها جدار من طين وباب يئنّ من صداد الإهمال والهجران لقطرة زيت أهلها أولى منه، يفتح للسَّاح بدخول طعام أو ماء ودواء،

عواطفه التي يثبها بنبضات قلبه الصَّغير المسرعة صوب الهدف يخشى عليها وهي تمتطي أثر الحبِّ العاصف ألا تستطيع أن تحمل قطرات المحبَّة جرعات كافية، وإن كانت تتدفق من بحر الحنان عن طريق شرم الودِّ والدَّعاء أن تشفى، أو تغفو على سطح ذلك الوجه الذي يذبل يومًا بعد يوم على بعض من تلك القطرات أن تعيد لها بعضًا من نضارتها، مسافة السَّكَّة المترابطة مع مساحة الزَّمن تبدو قصيرة وضيِّقة، بل محرَّجة في أغلب السَّاعات لسرعة وحجم حزمة البثِّ، وإن مثلت بالنَّسبة له جرعة يعالج منها لوعة الفُرقة التي باعدت بينه وبين مَنْ كانت محورًا رئيسًا في وجوده.

يحاول أن يرى ملامحها من خلال فجوة ضيِّقة ونور خافت باهت هزيل يذبل ذبول أمه التي كانت تحتضر في زاوية من زوايا الحجرة، وكأنَّ الضَّوء يستمدُّ قوَّته من روح تلك الملقاة تصارع ما تبقى لها من ساعات، يقطع سكونها سعال دام يلقى على قذارة قطعة من قماش العيش الخشن، وفي لحظات نادرة تتواصل العينان فتفتر الشَّفاء بابتسامة متبادلة وإن اختلفت رسائلها واحدة تشجيعيَّة فحواها أن تقاوم والأخرى وداعيَّة بأن لا فرار من المكتوب، راضية مطمئنة واقفة في محطة انتظار قضاء الله وقدره داعية بثبات...

﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ﴾ ١٧٧ ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۖ﴾ ١٧٨ ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ ١٧٩ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ ١٨٠ ﴿لم يعلم بأنها تعلمه درسًا في الحياة، أن الابتسام، يقلل من آلام الاثَّام وخوف المسافة وندامة سرعة عجلة المجهول في الظلام.

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ١٨١

عبارة خرجت من صوت آتٍ من سحيق الدَّهْرِ لتعلنَ عن تسليم الرُّوح إلى بارئها، عيناه تنتقل في الوجوه، دمعة انحدرت في زمن الصَّمْت الحزين على خدِّ خاله، وهنوف عجوز ثكلى، وبكاء امرأة حبلى، وعويل أطفال لا يعرفون معنى لسؤال حيرَ العلماء قبل العائمة من النَّاس... ما هو سرُّ الموت؟ أمّا هو فقد وقف حائرًا لوقت لم يستطع قياسه! لم يفاجأ!

وإن أربكه الخبر، بل ترك جغرافية المكان وتسَلَّل بهدوء من رحم الزَّمان إلى فضاء ساحة القرية مشخصًا في السَّماء في أمسية صافية تلالأت نجومها وكأنَّها في انتظار قدوم تلك الرُّوح الطَّاهرة العائدة إلى ربِّها، اختلطت مشاعره بين الاحتجاج والاستفسار والتَّحدِّي، وانكسر بصره وعاد مسلمًا يتلعب دمه كسابق عهده يجرفه نهر الأحزان، تبسم بمرارة الموقف وعزم المصاب، متصوِّرًا ابتسامتها كدرع يتحدَّى بقوة المقدرة على التماسك كما تريده أن يفعل دائمًا.

لن يبكي والصَّحيح أنه لن يسمح لأحد أن يرى دمعة حزنه فهي عاره الذي سيعزله عن العالم، لن يخنق ولن ينهار ليسمح لتيَّار مائيٍّ كان أم هوائيٍّ أن يقذفه كيفما شاء وآتى شاء، تمرَّدت دمعة رغمًا عنه فسقطت في غفلة من تماسك الذات مهرولة حتى آخر ذقنه ساخنة لما تحمل بين طيَّاتها من لهيب الفاجعة، شعر بأملاحها تكوي خدَّه النَّاعم لتسقط على الثَّرى، وانطلقت صرخة لم يستطع إلا السَّماح لها بالانطلاق لتغدو بعيدًا تحملها رياح جنوبيَّة دافئة صافية من الأتربة محمَّلة برطوبة سواحل بحر آب.

عاد أدراجه تتبعه (هالة) التي لم يشعر بوجودها خلفه في رحلة المغادرة المؤلمة، لكنَّها عزاءه في طريق القدوم المحزن.

في اليوم التالي وبعد أن انتهت مراسم الصلّاة على الفقيدة الغالية واحتواها الثرى وعاد الجميع ضجّ البيت بالمعزّين والمواسين، فجأة زادت كمّية الطّعام فجأة زاد الالتحام وتقارب المبتعدون.

حتى خاله أحمد الذي يعمل وكيل رقيب في حرس الحدود في الشّمال الشرقيّ من البلاد والذي لا يأتي إلّا نادراً، عاد مع زوجته وأطفاله، صحيح أنّ الأيام الثلاث المقرّرة للعزاء قد انتهت منذ يومين تقريباً، ولكن عذره لأمه وأخيه الأصغر أنّ الخبر لم يصله إلّا متأخراً، وأنّ إجراءات طلب إجازة اضطرارية يحتاج إلى وقت وأنّ السيّارة قد تعطلّت بهم في الطريق عدّة مرّات، لم تقتنع (سكرة) إلّا بعد أن وضع خاله الجندي كما يحبّ أن يطلق عليه في يدها بعضاً من أوراق نقدية زرقاء اللون تحمل صورة الإمام الموحّد.

في مساء ذلك اليوم سمع خاله أحمد يعرض على جدّته وخاله محمّد في جلسة خاصّة جمعت ثلاثتهم في سطح المنزل أن تنتقل الجدّة وسعد معه إلى منطقة الشّمال الشرقيّ حيث يعمل، وأنّ (صالحه) زوجته سيسعدها ذلك نظرت (سكرة) إلى وجه ابنها محمّد علّها تجد جواباً لا يجرح الكلمات التي قد تصدر رغماً عنه ولا يخرج ما تبقى لها من كرامة النّفس التي يحاول الزّمن أن يذلّ تماسكها منذ وفاة زوجها، وترك لها طفلين وطفلتين، عادت بهم إلى والدها الذي غادر الدّنيا ليتركها تصارع الحياة وحيدة مع الأطفال الأربعة ووالدة مريضة لم تعمّر طويلاً، عادت من رحلتها خائبة دون جواب وكأنّ محمّداً ينتظر قرارها، فأمر الرّحيل لا يعنيه وإن كانت نتائجه (بنعم) تخفّف بعضاً من حمله، فتسللت نظراتها إلى وجه أحمد تنفّس فوجدت الرّغبة صادقة والدّعوة جادّة، وبعد صمت ومساحة من التّفكير وحديث عيون للتّحقيق قالت الجدّة: أنا ما راح أغادر ديرقي.

أحمد: يمه... هناك البيت واسع ووقت الإجازة نقضيه هنية.

الجدّة: عطني وقت أفكر.

أحمد: محمّد ما قصّر، عطني فرصة أخدمك وأكسب رضاك... وأرد جميل

المرحومة بأمر الله أم سعد.

الجدّة: عطني وقت.

أحمد: حتّى تغيّر جو.

الجدّة: عطني وقت.

أحمد: وسعد المسكين لو بعد عن المكان ومع الوقت ينسى.

الجدّة: قلت... عطني وقت... إنت توحى؟ ولا صميت.

(الكلمات الأخيرة أمر صارم بتغيير الموضوع) أمّا الطّرف الثالث في

الحديث فلم يتدخّل البتّة.

بعد عشرة أيّام من وصول الخال العسكريّ كان يوم ثلاثاء، وسعد بين

أمواج فرح التّغيير وحزن فراق هالة وخاله محمّد أبو مرجع الذي كان حنوناً

عطوفاً متسامحاً إلّا في الصّلاة وخاصّة صلاة الفجر، فكان يصاحب الذّكور

من صبية البيت جميعاً إلى مسجد القرية بعكس خاله أحمد أبو حسين الذي

كان يصليّ بعضها في المنزل والبعض في العمل وقليلاً في المسجد ولا يكلم

أحدًا عن الصّلاة، فهو يعتبرها علاقة بين العبد وربّه لا يحقّ لأيّ كائن

التّدخّل فيها.

الفرحة لأوّل مرّة بركوب السيّارة، عكّرتها نظرات هالة الحائرة وبكاؤها

المتواصل على الفراق وتشبّثها بثوبه، لكنّ يد زوجة خاله محمّد التي انتزعتها

وهي تهدّئ من روعها تحاول أن تقنعها بأنّ الجدّة سوف تذهب لتحضر لها

لعبة من المدينة القريبة من القرية، عبثاً تقنع طفلاً!

مع ابتعاد السيّارة أخذت أحجام المودعين وهم يلوّحون بأيديهم تصغر،

ومنظر القرية مجتمع متلاحماً في صورة واحدة محدّده إطار الزّجاج الخلفيّ،

وعندما اختفت تمامًا تحوّل بكامل جسده لكي يراقب طريق المصير المجهول، وبعد أن أنهكه التعب استسلم لنوم عميق على صدر جدّته الحنون.

توقّفت الرّحلة عدّة مرّات في محطّات مختلفة لأسباب متغيّرة، ولكنّها واصلت حتّى وصلت إلى محطّتها الأخيرة في قرية (شرا) من الشّمال الشرقيّ التي لا تختلف كثيرًا عن قرية الإقلاع مظهرًا وعند باب منزل لا يختلف هو الآخر عن بيت خاله محمّد إلّا في اختلاف الأفراد ولهجة الكلام، حتّى أبناء خاله أحمد اختلطت لهجتهم فأصبحت لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك والطّقس الصّحراوي الأقرب إلى الجفاف.

لازمته "سكرة" تحنو عليه وتعلّمه: الصّدق حتى لو كان ثمنه عنقك، الجادة ولو طالت، استعن بالصّبر والصّلاة مهما عظمت المصائب وبلغت بك الخطوب، الأمانة، الإخلاص، تقوى الله، المحبّة وكثرة الدّعاء.

التّسجيل في المدرسة الابتدائيّة لم يكلف الخال إلّا ملفًا أخضر اللون وصورة من بطاقة العائلة وصورة من شهادة التّطعيم وطلب التحاق، وجد نفسه في الصّفّ الأوّل في المدرسة، بعد عدّة أسابيع لاحظ المدرّسون تفوّقه، خاصّة وأنّه يحفظ سورًا عدّة من جزء (تبارك) بعد أن أكمل جزء (عم) بالتّجويد ومعرفة لا بأس منها في سنّه بمعاني الكلمات، أمّا في درس القراءة فقد لاحظوا جمال مخارج الحروف، وطلاوة الصّوت، والثّقة في الإلقاء، مادّة الكتابة، تحسن في الأداء مع الدّقة في رسم الحروف، أمّا الحساب فقد لاحظ مدرسه تلاعبه بالأرقام ليصل لنتائج الجمع والطرح بطرق مختلفة بالنّسبة لعمره السّنيّ والدّراسيّ، قبل منتصف الجزء الأوّل من العام الدّراسي طلب مدرّسوه نقله إلى الصّفّ الثّاني، ولكنّ الإدارة التي كتبت لإدارة المنطقة التي رفعت الطّلب إلى الوزارة وفي دهاليز البيروقراطية واللامبالاة أخذت المعاملة تحبي من قسم لآخر ومن إدارة إلى إدارة والزّمن لا يتوقّف، العام الدّراسي قد

انتهى ونقل للصّف الثّاني بتقدير ممتاز وبمرتبة الشّرف الأولى، التحق بمدرسة تحفيظ القرآن في المسجد القريب، تفوّقه في المدرسة ومواظبته على الصّلاة في المسجد التي كثيرًا ما تغيّب عنها خاله أحمد وأبناءؤه.

الذي أفرح "سكرة" كثيرًا أصاب حسين ابن خاله الذي يكبره بخمس سنوات ببعض الغيرة والحقد على هذا الذي لفت انتباه خاله وزوجة خاله له ببعض من التّأنيب والتّقريع والغمز واللمز، بالرّغم من أنّه لم يرسب قط إلّا أنّه يتمي إلى جماعة (اللهم اجعلنا من المقبولين في الدّراسة العالمية)، أمّا ابن خاله "حسن" والذي يكبره بأربع سنوات طريد حسين كما يقولون، لم يكثرث للأمر فطموحه لا يتعدّى أرنبة أنفه، وكلّ ما يراه أن يصبح مثل أبيه جنديًا، ولكن "علي" الابن الثالث لخاله فقد ساعده تقارب فارق السنّ بينه وبين سعد عامًا واحدًا تقريبًا أن يقلّد سعدًا في الاستفادة من الوقت وطريقة تنظيمه للتحصيل العلميّ واللعب، والتحقّ معه في مدرسة تحفيظ القرآن، وإن كان يسبقه في المدرسة بصفّ فسعد يتقدّمه في حفظ القرآن بأجزاء، هذا التنافس غير من نمط حياة عائلة خاله أحمد، وإن كان الخوف أن يكون عليّ وهو الأكبر مقودًا لسعد، وهذا ما حدث عندما طالب أن يشارك سكرة وسعد غرفتهم وافقت سكرة على الفور وموافقتها يعني ألا نقاش، وبالتالي لا اعتراض، سعد لديه المقدرة على أن يبتلع فرحه بقدر ابتلاعه لرحه، لا تستطيع أن تقرأ في ملامحه شيئًا، إذا أردت أن تعرف ما يجري في داخله فانتظر فعله الذي لا عودة فيه، ولا فائدة ترجى من تعطيله أو منعه.

إنّ وجود حقّ انتفاعيّ ومساحة من الحرية تكفل تحقيق أهداف لا تتعارض مع الآخر مفروض على الإنسان ومرهون بمشيئة القدر أو الظروف المحيطة يحتاج أكثر من التبصّر وروح التنظيم، وإن كان عزفك المنفرد يشبع بعض واحات الظّمأ المتوفّرة في مساحة الزّمن، إلّا أنّ العمل في جوقه فيها

عدد من المتنفعين تحدّد فيها الأدوار ليكون عزفاً متكاملًا يجلي عن النفس البشرية الكثير من الهموم وجفاف الوقت القاحل (بندوة) أو طل رطب، من بقايا مطر أساسه سحابة صيف (ضالة) قد تلتقط (بذرة حائرة) فتخضر على صفحة الرّمال الصّفراء لتخطّ أمل الحياة وتشقّ طريقها في صراع من أجل البقاء، يُعتَبَر في عرف البعض خروجًا على قواعد لعبة لم تشترك في وضع أسسها أو شروطها ليس بدرجة عضو (فاعل)، بل حتّى ليس بدرجة مراقب لتصبح (المفعول به) دائمًا مهما حاولت الظروف أن تخدمك في غفلة من زمن الرّقابة اللصيقة، والبعض يعتبره كفرًا وزندقة بما يؤمنون، أمّا القليل فيعتبرونه تعدّيًا على خطوط حمراء لا يمكن تجاوزها، الباقون يعتبرونه شجاعة نادرة ندرة الذهب بين المعادن المختلفة أو ندرة أبطال الرّانة عندما تنجح يصفق لك الكلّ، وفي حالة الفشل تتحوّل في نظرهم إلى متهور لا يعرف حتّى طريقة حساب بعد المسافة في خطوات الزمن.

ثمان سنوات مرّت منذ مغادرته القرية التي لا تفارق مخيلته خاصّة الحبيبة هالة أنهى اختبار الصّفّ الأوّل المتوسط، ظهرت النتائج لا جديد سعد الأوّل وعليّ الأوّل في الصّفّ الذي يسبقه وحسين حصل على الثّانويّة العامّة القسم الأدبيّ ورسب حسن في الصّفّ الأوّل الثّانويّ، الجميع ينتظر السّفَر إلى العاصمة لتسجيل حسين في الجامعة وقضاء بعض الوقت في القرية، طلب الخال إجازة تمّ تأجيلها في اللحظات الأخيرة؛ لأنّ البديل غدرت الأيام بعائلته بحادث مروريّ وقع في طريق السّاحل الجنوبيّ مما أودى بوفاة والده ووالدته وأخيه وأخته جميعًا وثلاثة شباب من أهل الجنوب في السيّارة الأخرى كانوا في طريقهم للتسجيل في الجامعة في مدينة جدّة السّاحليّة في الوسط الغربيّ بعد أن حصلوا على الثّانويّة العامّة لتعثر ولادة جامعة في منطقتهم، الأمر الذي غير في تخطيط العائلة...

سنّ المراهقة في مجتمع متعدّد المذاهب الدّينيّة وتهاجمه المدارس الفكرية والسياسية المختلفة متعدّد القبائل يجاهد قلتهم في تسريع عجلة التطوير وتجاهد أخرى أن يبقى المجتمع محافظاً، وينطحن الأكثرية بين مطرقة هؤلاء وسندان أولئك، فالتناقض يعتبر حجر الأساس في زيادة تعقيد المشكلة، بل يعتبر من أهمّ عناصرها، فالمظهر الخارجيّ يجب المحافظة عليه من حيث السلوك، بالرغم من التّغيّرات التي طرأت على الأعضاء البيولوجيّة، واختلاف نبرة الصّوت، واختلاط الأحاسيس، والمشاعر، فهو لا يروّض بطريقة صحيّة، علميّة سليمة، بل يجب أن نخبئ هذه المشاعر، لا بل نتجرأ أن نغالط وننفي وجودها أصلاً وكأننا أمة قدت من الصّخر، ومن ثمّ نشوّهها، وبالتالي ترتبك خطواتنا، ونكذب حتى على أنفسنا، وهذا لا يؤثر على خيالنا فقط بل يساعد على نموّ الخيال السّلبيّ الهادم، وفكرنا الذي ينحرف نحو الشكّ تارة والظنّ الآثم الذي حدّرنا منه العليّ القدير تارة أخرى، ليس هذا فحسب بل حتّى على تسلسل الأحداث الدّهنيّة لدى أفراد المجتمع، ويظهر بعد ذلك حبّ قسريّ معاق، إلّا من رحم ربك، تتفاوت خبرات الأسر في التربية والاهتمام خاصّة في هذه المرحلة، أمّا الخبرات المشوّهة جنسيّة كانت أم عاطفيّة صحيّة أم بيئية دينيّة أم إلحاديّة فهي تنقل بين الأقران من الزملاء والأصحاب والأصدقاء بمحدوديّة التجربة وضآلة المعرفة، في الثّالثة عشر من عمره سأله أحدهم يكبره بسنوات تقلّ عن الخمسة.

الرّميل: هل أنت مؤمن؟

سعد: لماذا؟

الرّميل: هل تؤمن بوجوده؟

سعد: نعم.

الرّميل : كيف؟

سعد: مثل بقيّة النَّاس .

الرّميل : هل فكّرتَ يوماً أين هو؟

سعد: ماذا تقصد؟

الرّميل : أين هو؟ سؤال يا سعد يؤرّق نومي .

سعد: ولكنّه موجود .

الرّميل : أين؟

سعد: في كلّ شيءٍ تقريباً .

الرّميل : كيف؟

سعد: لم أفكّر في هذا، بل لا أجرؤ على التّفكير في هذه المنطقة!

الرّميل : ولم لا؟

سعد: لا يجوز أن...

الرّميل : مَنْ هو صاحب القرار في الإجازة من عدمها .

سعد: إلى ماذا ترمي؟

الرّميل : هل سمعت عن عبد الله القصيمي .

سعد: مَنْ هو؟

الرّميل : عبد الله القصيمي!

سعد: سمعت الاسم!

الرّميل : كاتب ينفي وجود الخالق .

سعد: وهو مسلم!

الرّميل : كان حافظاً للقرآن ومدرّساً لعلوم الدّين!

سعد: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

﴿ صدق الله العظيم. ٢٥٧ ﴾

الزَّمِيل: أنا لا أنام.

سعد: لماذا؟

الزَّمِيل: أفكّر...

سعد: في ماذا؟

الزَّمِيل: أبي يتركنا ويغيب... ثمَّ يأتي إلى المنزل ولا نعرف هل نفرح
لخضوره أم نكرة أن نراه... فهو متسلط فظَّ القلب يضرب أَمْنًا ويشتمها
أماننا... ويقسو على إخوتي الصَّغار... ويشكِّك في رجولتي بعد أن يصفعني
على وجهي ليلقيني أرضًا ويلقي بالقليل من النقود، ثمَّ يختفي ليظهر فجأة،
وهكذا لا يستطيع أحد أن يسأل من ومتى وكيف ولماذا وأين؟... سعد هل
تعي ما أقول!

سعد: بلى (ويسرح محدثًا داخله) وأنا تركني أبي قبل أن أتعرف حتَّى على
ملاحه ولكن الأسئلة:

هل الخطأ في الآباء؟ أم الأمهات؟ أم المجتمع؟ أم التربية؟

توجَّه حسين بمفرده للتسجيل على أن يلاقيه ابن عمَّته المتزوَّجة من
جندبيٍّ آخر في العاصمة، فقد تحدَّث معها أحمد وأخبرها أنَّهم لا يستطيعون
السَّفر الآن، وأن تعني بحسين حتى يتم تسجيله في الجامعة ويغادر بعدها إلى
القرية حيث يلتقون هناك.

غادر حسين في حفل وداع اختلطت فيه مياه نهر الأفراح الحلوة الطيَّنة مع
مياه بحر الأحزان المالحة الصَّافية، فهذه أوَّل مرَّة يغادر فرد من أفراد العائلة
التي أنتمي إليها، وهي عائلة خاله، بمفرده، بين حزن الفراق وبصيص أمل

المستقبل لطفل غدا رجلاً الآن تزاхمت المشاعر في زقاق الرغبة والمقدرة
المزدوج الاتجاه، لتسقط دمعة لأول مرة يراها سعد تذرف من عين خاله، بعد
تلك التي سقطت (طلباً) في وفاة أمه عندما احتضن (سكرة) ليقدم لها وله
العزاء، الدمعة ممزوجة بابتسامة بين الفرح والحزن، الفرح بحصول حسين
على الثانوية العامة يعني التحاقه بالجامعة الذي يعني صرف مكافأة تقلل عنه
بعض التكاليف ليُدخِر بعضاً من الدّخل لشراء أرض في مسقط الرّأس
للتقاعد، وترح لأول فراق، وأمل بلقاء، وقف الجميع بما فيهم الجدّة وأمّ
حسين في الشارع يلوحون بأيديهم للسّبّارة التي تقلّ أربعة من الخريجين إلى
العاصمة، تذكر صاحبنا منظر وداع خاله محمّد وعائلته وهو يلوح بيديه،
الفرق بين الوداعين أنّه لا توجد حبيبته الطّفلة (هالة) تبكي متشنّجة لفراق
سعدّها.

الخال الذي غاب عن منزله وعائلته يومين كالعادة، لم يقلق أحد عليه،
ولكن بعد مرور خمسة أيّام من الغياب بدأت بعض الشّكوك ترسم على
وجوه أم حسين والجدّة، يظهر ذلك في نظراتهم المتبادلة المستفسرة التي لا تنمّ
عن جديد وارتباك بعض من تصرّفاتهم ودعاء سكرة المستمر وتمتمة أمّ
حسين التي لم يفهم منها شيئاً.

في منتصف أحد الليالي استيقظت "سكرة"، وكذلك فعل "سعد"
و"علي" على طرق باب حجرتهم، وكان الطّارق أمّ حسين تحمل فرشتها.
وقالت الجدّة: خير!

أمّ حسين: خير يا أمّ أحمد... بس الشّيطان.

الجدّة: سمّ بالرّحمن... سمّ... يا بنيّتي بسم الله.

أمّ حسين بين دموع تحاول ألا تسقط فترعب دون سبب من في الدّار:
بسم الله... أنا خائفة.

الجدّة: سبق وغاب كلّ هذا الوقت؟!
أمّ حسين: إيه... بس يحينا خبر من المركز كلّ يومين.
الجدّة: أجل ليش تخافي.
أمّ حسين: ما أحد طرش لنا خبر.
الجدّة: يمكن نسيوا أو بلغوا واحد وطنش.
أمّ حسين: إن شاء الله.
الجدّة: هوّني عليك يا بنيتي... تعالي حطّي فرشتك جنبي وخليّ ابنك عن يمينك.

الخوف من المجهول عدو الإنسان يغرسه في داخله... ليقلقه فترة من معاشه، لو خاف الله وآمن بالقدر خيره وشرّه لألغى هذه الكلمة من قاموس حياته لو قلت لهم آمنوا قالوا آمنا بلسانهم وليس بقلوبهم، ليلة ليلاء مرّت، صوت الجدّة وهي تتلو آية الكرسي عدّة مرّات ويدها على صدر أمّ حسين، غيب الكرى الجميع في نوم عميق لم يوقظهم سوى صوت "سعد" و"علي" وهم يتسابقون على الحّمّ للوضوء والاستعداد للذهاب إلى المسجد لصلاة الفجر.

مع شروق ذلك الصّباح تبارى حسن وعليّ وسعد مع بقيّة الصّبية بالتمّتع بإجازة الصّيف بالجري في البساتين والاختباء بين الأشجار أو التّسكّع في أزقة القرية كالعادة، عند الضّحى لاحظ حسن أحد جنود الأمن يسير بين الحقول، وأحسّ بغصّة في قلبه وتوقّف عن الجري وحدّق في العسكري وهو يتّجه ناحيته بينما "عليّ" و"سعد" مع بقيّة الصّبية في لهوهم يمرحون، اقترب وهو يناديه باسمه اقترب أكثر، قرأ في وجه القادم خبراً جليلاً، سمع وهو في دوامة هواجسه صوت القادم يسأل عن أخيه وسعد ابن عمّته، وعندما أجاب بإشارة من سبّأته اليمنى نحو الصّبية سمع الأمر: ناده.

صرخ دون أن يستفسر (لم): يا "علي" يا "سعد" تعالوا.
التف ثلاثتهم حول الجندي الذي طلب منهم مغادرة اللعب والتوجه إلى المنزل، رحلة جنازتي صامته يتقدمها جندي يتبعه ثلاثة من المراهقين، تتبعهم نظرات فضولية من هنا وهناك، وأقدام محتارة بين السرعة والتباطؤ بين استقامة الخطى أو انحرافها قليلاً، تتبعهم عن بعد ويحذر لتستطلع الخبر، الحزن مخيم على الجميع، المنزل مكتظ بالنسوة من الجيران، العجوز متماسكة كعادتها، وأم حسين متعصبة الرأس بعصاة سوداء، وأصابع يدها في حركة عصبية، كأنها تحاول أن تلاحق لحناً حزيناً على أصابع (بيانو) لا صوت له، ودمعها نهراً دجلة والفرات يتساقطان في صمت أحزانها، تحلق حولها نسوة بيد أحدهن طاسة مليئة بالماء، صرخ حسن بصوت يملؤه الخوف من صدمة الرد: ويش صار؟

نظرت إليه أم حسين دون جواب، نقل بصره نحو جدته، وصوت يقول:
ما صار شيء... الحمد لله، الحمد لله قدر ولطف.

حسن: إيش صار (بحدة).
صوت آخر: هاك غدارة ألما اشرب وسم بالرحمن...
صوت نسائي آخر: أبوك مصاب وفي المستشفى.
علي: حادث؟
صوت: إيه حادث.

حسن وعلي في الوقت نفسه: سيارة؟
الصوت: لا.
سعد: إيش أحد يتكلم يشرح.
صوت آخر: طلق ناري... يا بعد كبدي.
حسن: وين أبوي ها الحين؟ في أي مستشفى؟

أمّ حسين بصوت يملؤه: نقلوه للعاصمة، في الرياض، حالته حرجة.
جندي من خلف الباب: السيّارة ذاهبة... والنقيب برّه ينتظر كم.

العاصمة وإن شاهدها من أطرافها قبل سنوات في رحلته بين القريتين،
ها هو يصوّر عمقها في ذاكرته، شوارعها، منازلها، وزحمة سيّاراتها الفخمة،
ألوان السيّارات المختلفة اختلاف الألوان والجنسيّات، وسيّارة الحكومة، التي
أقلّتهم مع الجندي تخترق الشوارع متّجهة إلى المستشفى التخصّصي، حديقة
غناء، مبنى لم يشاهد مثله في أحلامه، ممّرات لا تتّسخ إلّا من آثار أقدام
المراجعين والزّائرين، سرعان ما تمحى من قبل فريق متخصص في هذا
العمل.

عندما دخلوا على خاله في غرفته وكان بجواره "حسين" وخالته التي
يسمع عنها ولم يقابلها قط بادرهم بابتسامة موجّهًا حديثه للقادمين جميعًا:
عمر الشّقي بقي.

فرح الجميع بهذه الابتسامة، أحنت سكرة بالجزء العلويّ من جسدها
بحنان الأمّ وضمتّه برفق وقبّل رأسها ويديها وتناوب الجميع السّلام بعد
ذلك ما عدا أمّ حسين التي لامست يدها يده باستحياء، لكنّ الفرّح يعلو
الوجوه، ضمتّه خالته لأوّل مرّة بلهفة غامرة، أبعدته دون أن تحرّره من يدها
لتتأمّل وجهه، ضمتّه مرّة أخرى، أبعدته ممسكة بكفّيه ودمعة على خدها
كأنّها تذكّرت أمّه التي لم تستطع حضور جنازتها بسبب موعد ولادتها قالت
فرحة: أنت أجمل من أبوك وأمّك... عندي لك عروس تستاهل ولد حلو
مثلك، بنت زي القمر عمرها ثمان سنوات هيفاء اسم ورسوم، ضمتّه للمرّة
الأخيرة ووضعته في حجرها وقبّلّت وجته ورأسه ثمّ قامت ممسكة بيده
وضيفته مع الآخرين ببعض التّمر والحلوى والعصير والماء المعبّل.

في المساء اجتمعوا في منزل خالته الكائن في جنوب شرق العاصمة، معظم الحديث عن الحادث، المعركة بين عصابة لتهريب المخدرات والقوة المكونة من خمسة أفراد، قتل عريف، وأصيب جنديان آخران، أمّا الخامس فهو الذي قام بإبلاغ المركز طلباً للنجدة، فارقُ الوقتِ مَكَّن المجرمين من الهرب، ثلاث رصاصات في جسد خاله أخطرها اخترقت الصّدر بجوار الرّئة والثّانية في ذارعه الأيسر هَشَمَت عظم الجزء العلويّ، أمّا الثّالثة في الفخذ الأيمن تهتك في العضلة الأماميّة وكسور في العظام بعد خمسة أيّام من الحادث تعتبر الحالة مستقرّة، كانت هذه هي الخلاصة وحصيلة المعلومات التي دوّنها سعد في ذاكرته من حديث طويل ووصف وتعليق من المستمعين، تخلّل ذلك عتابٌ جانبيٌّ بين سكرة وخالته، انتهى بضمّة حنان وشوق لفراق غربة من الطّرفين، وممازحة بين الفينة والأخرى ما بين خالته وبتتها "هيفاء" التي لا تريد الابتعاد عن أمّها ناكرة صلة القرابة التي لم تتعوّد عليها بعد، عيناه تلاحظان الصّغيرة وعقله يقارن، تبدو هذه أصغر، وتلك أجهل، قد تكون هذه أطول، ولكنّ تلك أنحل، هذه تلك وتلك هذه، يتسم لها، تطمئنّ، تقترب ويدها لعبة تقدّمها له، تنظر إلى أمّها التي تشجّعها، تجلس بجواره، تقابله بعد أن اتّفقا على الشّروط الأساسيّة للعبة، تسرق النّظر نحو أمّها وضحكها يسابقها وهو يتصنّع الخسارة لتستمرّ في اللعب ويستمرّ في التّحدّي الخاسر، قبل البدء بلعبة جديدة ليقربها أكثر وتطمئنّ أكثر وتضحك ببراءة وليضيف للعبة جوّاً من الحماس.

في اليوم التّالي ذهب الجميع للمستشفى لم يبق إلّا هو و"عليّ" و"هيفاء" مع خالته التي شغلت نفسها بإعداد الطّعام وزوج الخالة أبو هيفاء كما يريدون أن يلقّبوه، يغيب ليعود محمّلاً بطلبات لا تنتهي، عاد من غادروا إلى

المستشفى لم تكن حالهم من الاطمئنان كحالهم بالأمس، السعال الممتلى بالدم يقلق سكرة، ويحير أم حسين، ولكن كلام حسين يخفف من التوتر.

جرس منزل خالته المختلف عن مباني الطين التي عاش بين جدرانها في القريتين مع الخالين ينذر بقدام لم يتوقعه هرع صاحب البيت إلى الخارج وصوت ترحيب وعناق، وبين زحمة الوقوف تزاومت دقات قلبه التي حاول إعادتها بعد جموح فجائي، فهذا صوت خاله محمد وعائلته، يبحث عن شخص ما بين الأجساد المتحركة والتي انحشرت متدافعة نحو المدخل، خصلة من شعرها تغيب، قطعة من قماش فستانها الملون يتيه، بصره يلاحق غزال خيال طفلة في العام الثاني عشر من عمرها بين الفجوات المتاحة من تكدس الأجساد دون جدوى، عندما انتهى الجميع من السلام والترحيب قدّم يده بخجل، ترددت يدها في البداية تقدّمت نحو يده برعشة، حضنت يده يدها، ذابت كقطعة ثلج على صفيح ساخن، لاحظ "علي" أن حمرة خفيفة لونت خده، حديث العيون في لحظات يغني عن مجلّدات للتواصل من الرّسائل، سحبت يدها المبتلة بعرق الانفعال بثقل وأبحر في أمواج عينيها ليصطاد كلمة لم تسمعها أذنه، بل ارتعش لها قلبه فردّد في داخله قول الشاعر:

أَشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ خَيْفَةً أَهْلِهَا إِشَارَةً مُحْزُونٍ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ
فَأَيَّقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَالَ مُلَوِّحًا أَهْلًا وَسَهْلًا بِالْحَبِيبِ الْمَتِيمِ

تركها وعيناه تجيب من أعماق قلبه:

وَلِلْقَلْبِ عَلَى الْقَلْبِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ وَفِي النَّاسِ مِنَ النَّاسِ مِقَاسٌ وَأَشْبَاهُ
ثمان سنوات وها هي أمامه كان يمضي النفس بلقائها في القرية ليعيد ذكرياته معها عندما كانا طفلان يلعبان ويتمردان ومز عجان فتنهرهما العجوز فيضحكان بعد أن يهربا من أمامها، وها هي الأقدار تجمعهم في العاصمة، كبرت، طالت، طال شعرها، امتلأ عودها النحيل، ابيضت بشرتها، وتلك

الحمرة على وجنتها تزيد من جمالها، ضحكها موسيقى تدغدغ أوتار قلبه،
لفقتها ريم تائه حذر من بندقيّة صيَّاد طائش أو عين طفيليّة تترجم معاني ما
يعاني قلبها الصَّغير الذي اضطربت خفقاته، مشيتها (وشي) يتهدّى على
رمال صحراء.

بعد العشاء اختلا بعلي تحدثا كان هائما، صاح صاحبه.

عليّ: يا سيّدي.

سعد: ...

عليّ: حبّ ولا ...

سعد: ...

عليّ: حبّ وأقسم بالله العظيم ثلاثاً أنّه الحبّ يا مولاي (قالها بعد أن بعد
عدّة خطوات وانحنى مخلّفاً ساقاً عن ساق وكأنّه في دور عبدٍ من عبيد
سلاطين تمثيليّة تلفزيونيّة نديم لمولاه).

ضحكا وتسامرا وهما يسترجعان أبياتاً من شعر الغزل التي يحفظانها،
واحدة من أجمل الليالي التي يجود بها الزّمن في حياته.

أسبوعان مرّاً والمصاب يصارع على سريره الأبيض بين قوّة الموت وقواه
الرّافضة للاستسلام المتشبّثة بالحياة، تعب الطّريق من مشوار الزّوّار اليوميّ،
اجتمع معها يلاعبها، يحدثها عن حياته من لحظة مغادرته مع زملائه
وأستاذته، الحوادث التي تعرض لها، المضحك منها والمحزن، لم ينسَ أن يقول
لها إنّها كانت معه طوال الوقت في مخيلته وإن لم تكّ بالقدر الكافي أن يلاحق
رسم صورة لها بهذا الجمال، يدرسها، يحفظها بعض مما حفظ من القرآن الذي
شارف على حفظه بالكامل أمام الجميع، وفي حضور "عليّ" الذي لا يفارقه
كظله، وغيره "هيفاء" التي لاحظت أنّ المنافسة بينها وبين القادمة من أعماق
التّاريخ النّفسيّ غير متكافئة، فاهتمام سعد قلّ، ولكنّه لم يهمل نهائياً، هل

تسحب؟ لماذا؟ إنَّ سعادتها في اللعب مع سعد وعليّ وقرب هالة منها شجَّعها على الاستمرار في اللعبة (لعبة الحياة) وترك نتائج الفوز والخسارة للأيام.

الجميع خاصَّة العجوز وزوج المصاب في وادي المدّ والجزر في صحَّة المعتلّ، وهما في وادي الحبّ (حبّ الطفولة) المليء بالزهور والياسمين وحقول من جوري مرتفعات الجنوب، في جمعة من تلك التي قضّاها في الرياض وعدهم أبو هيفاء لأخذ الأطفال إلى منطقة السدّ شمال غرب المدينة أثناء زيارة الكبار لأبي حسين في المستشفى، جلس عليّ بينه وبين هالة، ولكنّ ذلك لم يمنع يد سعد من التسلّل لتلامس شعرها، أحسّت ولم تمنع تحجراً أكثر ولا مست أطراف أصابعه بشرة رقبتها، جزعت، سحب يده بسرعة، أحسّ العزول، فحرّك رأسه يُمنّة ويُسرة وكأنّه يتابع المباراة النّهائيّة لأبطال العالم في كرة الطاولة، ولم يجد شيئاً بالرّغم من إيمانه أنّ شيئاً ما قد حدث... ما هو؟ لا يعلم!

في الليل ينام الذّكور من الأطفال في غرفة السّطح، أمّا الإناث ينمنّ في غرفة في الدّور الأرضيّ مع الجدّة سكرة، لم ينم، حاول جاهداً، خرج إلى السّطح يتأمّل النّجوم والسّماء، تسلّل من الدّرج، كاد الدّم يجمد في عروقه عندما شاهد شبحها، كتمت صرخة وانطلقا إلى زاوية في الممرّ ضمّها استسلمت، قبلها في خدّها قبلته وغفت على كتفه، العاصمة شهدت أوّل اعتراف بالحبّ الحقيقيّ الصّافي وإنّ كانت الخفقة الأولى في الجنوب الغربيّ. دخل المريض في شبه غيبوبة استمرّت قرابة الشّهر، بعد ذلك تحسّنت حالته، ولكن أصيب بعجز بسبب شلل بعض الأطراف، وترك المستشفى، وفقد عمله بالتّالي، إلّا أنّ أمر ولي الأمر بصرف راتبه كاملاً أعاد الأمل للأسرة التي ساورها القلق، صلّت العجوز وشكرت الله على نعمه التي لا

تحصى، بأن أنقذ ولدها من الموت، ولم تنس أن تدعو، بل أكثر من الدّعاء لولاة الأمر والمسئولين على اهتمامهم بآبنها في العلاج وأمر المعاش، ولم تنس الوطن بأن يحفظه الله من كلّ سوء، وغادر الجميع إلى مسقط الرّأس في الجنوب الغربيّ ما عدا حسين الذي التحق بالجامعة وبقي مع عمّته في العاصمة.

صرفت مكافأة خاصّة للخال وتمت ترقيته إلى رقيب وبيع بعض ما توفّر، وبقرض ربويّ من البنك (مستترًا تحت عباءة فتوى) على ضمان الرّاتب استطاع أن يشتري منزلًا مناسبًا للمبلغ الذي دفع في القرية، هل سرى الخبر في القرية أنّ عائلته أصبحت من ذوي الأملأك والتّفوذ، وأنّ المسئولين يتّصلون برجلهم الأوّل في القرية (خاله الجندي كما يطلق عليه بين العائلة وخاله الكبير) عندما يأتي آخرون لاستشارته ولم يعرف مصدر الإشاعة، ولم يفسّر احترام الآخرين له ولأفراد عائلته إلّا أنّ سمعة العائلة من الأساس لا غبار عليها، فالفقر ليس عيبًا، ومعظم سكان القرية فقراء ولكنّ التّصرّف غير السّويّ هو المعيب، أمّا المال فله تأثيره في نظر النّاس دون شك، ألم يقولوا عن المال:

هُوَ الْبَلَاغَةُ لِمَنْ أَرَادَ فَصَاحَةً وَهُوَ السَّلَاحُ لِمَنْ أَرَادَ قِتَالًا

منزل هالة في الطّريق بين المدرسة وبين مسكنه الجديد وبين المسكن ومسجد القرية، الذي أكمل فيه حفظ القرآن وتجويده، لا بل إنّ إمام المسجد شجّع على إمامة المصلّين في الصّلوات الصّامتة أوّلًا لتدريبه، ومن ثمّ بعض الصّلوات الجمهوريّة وهو في الخامسة عشر من عمره، وفي الصّف الأوّل الثّانويّ، مما سهّل عليه مهمّة السّلام، واللقاء مع الحبيبة وتناول القهوة وبعض الشّاي بصحبة "عليّ" وتواجد زوجة خاله "محَمَّد" وبقية الأسرة وفي بعض الأيام كان يصحب العجوز لقضاء بعض الوقت في المنزل القديم

أو الحبيب كما يروق له تسميته، خاصّة أنّ غياب خاله محمّد المتكاثر عن القرية، وبالتالي المنزل وسفره إلى الحجاز مع مجموعة يُقال إنَّهم من جماعة المسجد ومساجد القرى المجاورة.

لم يهز خبر تسلسل مجموعة مسلّحة إلى المسجد الحرام القرية والبلاد والعالم الإسلاميّ بل العالم بأسره، وكثرت الشائعات في تغييب إعلاميّ محليّ غير مبرّر، وسمّيت وزارة الإعلام بوزارة النّفي، والبعض الآخر أطلق عليها وزارة الإعدام، نسبة إلى إعدام المعلومة، لكثرة ما يظهر وزيرها وينفي أيّ خبر حتى إنّ العامّة كانوا فيما بينهم يقولون عندما ينفي الوزير خبرًا فالخبر صحيح مستندين إلى قاعدة لا يُنفي إلّا الموجود، فكيف تنفي غير الموجود أصلاً، ولكنّ مقتل اثنين من رجال القرية كانوا مع المتسلّلين أحدهما خاله محمّد كان بالنّسبة للقرية هزّة، وبالنّسبة للعائلة كارثة، أمّا وهو العاشق الولهان فقد كانت زلزالاً هزّة بعنف أكثر من يوم وفاة والدته، لم يصدّق الخبر في البداية، ولكن بعد كثرة تواجد رجال المباحث في القرية، والتحقيق المتكرّر مع خاله أحمد، والقبض على إمام المسجد وبعض من رجال القرية الذين عاد بعضهم، والآخرين نقلوا إلى سجون العاصمة، طعنته الحقيقة المرّة بعدة أسئلة: لماذا؟ ما هو الهدف؟ ولماذا بيت الله؟ ثورة سياسيّة؟ طمعاً في السّلطة؟ أم حركة تصحيحية؟

كانت الحادثة أو الحدث بمثابة الهبة التي ألقاها أحدهم في تربة كانت تبحث عن بذور لتختار من بينها، قد تكون هذه إحداها لتحتضن بدايات رحلة البحث الحذر في تلك النّفس الأمّارة سأل: مَنْ هم؟ قال أحدهم بصوت خافت فيه خوف وريبة: "جهيمان العتيبي" ومجموعته.

سعد: الشّيخ...

الشَّاب: ما غيره.

سعد: الي...

الشَّاب وهو يتلفت يميناً وشمالاً: نعم الي كان يحضر في فترات ويحاضر في المسجد مع القحطاني.

سعد: محمَّد بن عبد الله!

الشَّاب: نعم، أقنعه أنَّه المهدي المنتظر، أمَّا أحد المسؤولين الكبار قال إنَّه فهم الرِّسالة.

سعد: أيِّ رسالة؟

الشَّاب يحذر شديد وصوت أقرب للهمس: حادثة الحرم!

سعد: رسالة إيش ومن مين؟

الشَّاب: أرخ صوتك... من المتدينين!

سعد: الموضوع كبير، كلَّ البلد رجال دين.

الشَّاب: المسؤل يقصد المجموعة المتشدَّدة.

سعد: لكن ذوي عددهم قليل.

الشَّاب: لكنَّهم عاملين نافذين.

سعد: تين ولا دين؟!

الشَّاب: بعضهم والعياذ بالله التَّين في البطون والدين على المتون.

يسأل يحذر ويحصل على إجابات بعضها يرفضها لبعدها عن الواقع، والبعض يسجِّله في ملفٍّ خاصٍّ داخل الذَّاكرة التي بدأت تستوعب بعضاً من خيوط اللعبة.

الأمر لم تعد إلى طبيعتها بعد حادثة الحرم، فسرت رياح الخوف تداعب غصون الشَّكِّ على أشجار الحيلة والحذر التي غرست في نفوس البشر، وتحوَّلت البساطة في التَّعامل إلى عقد صغيرة تكبر مع خطورة الحدث

والحديث والسلوك عبر المسلك الوعر في الضبابية التي خيمت على القرية، فابن خاله أخو حبيبة القلب "هالة" الكبير "مرجع"، وهذا اسمه قد ظهرت عليه تصرّفات غريبة بعد مقتل "أبو مرجع" خاله "محمد" وتغيّبه المتواصل عن المنزل، وبعد التقصي تأكد له أنه يتعاطى المخدّر والمسكر مع مجموعة فاسدة من قرناء السوء في بيت خرب يقع في أطراف القرية من الجنوب الغربي، ويقومون بأعمال شاذّة وغير أخلاقية وأفلام إباحية، مما جرّاهُ بمحاولة إقناع العجوز بالعودة للعيش في المنزل القديم، ولكن للعجوز رأي آخر فالمنزل المملوك أكبر ويسع الجميع، ونسلم دفع الأجرة، فلتأت "أم مرجع" للعيش وأبناؤها معنا هنا.

في الصّفّ الثّاني لم يكن الطلبة بهذه الكثرة في ثانوية القرية الأكبر والأكثر سكّاناً المجاورة لقريته ولا يزال سعد متقدّماً على الجميع بالرّغم أنّه يعمل مؤدّناً ومدرّساً لتحفيظ القرآن في مسجد القرية، بعد أن تمّ ترشيحه من قبل الإمام الجديد، ساعده المبلغ الضّئيل الذي كان يحصل عليه في المساهمة مع دخل خاله المقعد الذي بدأ يتدّمر من حاله وحال الأسرة التي كبرت، وبالتالي كثرت مطالبها من جهة وكثر تواجد المحققين معه حول شقيقه الذي شارك في الاعتداء على أمن الحرم المكي الشريف.

أن تتحطّم أو تسقط أعمدة الدّار، فلا بدّ أن تنهار بعض الجدران لتترك فجوة تسمح للعين الفضوليّة وتلك التي تبحث عن إشاعة أو تأكيد إشاعة أن تتسلّل، وبالتالي تظهر بعض الحقائق المندسّة خلف ذلك الجدار، وإن أصاب التّشقّق بعضها إلا أنّها لاتزال متماسكة تقاوم ما خفي عن العين والبعض أكثر صلابة، ولكن قرب أو بعد المسافة عن العمود السّاقط أو المنكسر - هو أكثر الجدران تضرّراً لا محالة، لم تستطع زحمة الأحداث والمتغيّرات على السّاحة في القرية بصفة عامّة أو الأسرة بصفة خاصّة وحزن

هالة العميق على والدها، وخوفها الذي أربك تصرّفاتهما وكاد ينعكس على صاحبنا لولا خبرته من التحمّل والتكتم على المصائب ونظرتهما المتسائلة دوماً: ماذا يجبّئ لنا القدر؟

تردّ امرأة غريبة عن القرية على المنزل وكثرة خروج "أم مرجع" معها ونظرات سكّان الدّار المتبادلة دون حديث تستفسر: مَنْ هي؟ إلى أين تذهبان؟

بإشارة من عين العجوز نفذ ما أمر ودون أن تلاحظ المرأتان تبعهما إلى أطراف القرية الشّالي المنحرف قليلاً نحو الشّرق، ودخلتا بيتاً. بين أن تقوم بعمل ما وتؤجّل ذلك للحظات أو يصرف انتباهك شيء آخر مصفوفة من أجزاء الثّواني التي تأخذ طريقها لتكتمل مسرحيّة الحياة، ففي الوقت الذي تنطلق فيه رصاصة غادرة إلى قلب الهدف ينحني ليلقط قطعة لا ثمن لها، يضعها في جيبه (تميمة) لا تقدّر بثمن لأنّها أنقذت حياته من غادر. في اللحظة التي كاد صاحبنا أن يقفز من فوق السّور ظهر رجلان لم يلاحظا تواجده في هذا المكان في هذا الوقت، تلفّت أحدهما ليتأكّد من خلوّ الطّريق من المارة في ظهيرة ذلك اليوم الحار يحمل لفافة في يده اليسرى دفع الآخر الباب المؤدّي إلى فناء المنزل الذي قصدها المرأتان ولما تأكّد الثّاني من خلوّ الطّريق اختفى مثل صاحبه داخل الدّار، هل جمدت ساقا صاحبنا من تلقاء نفسها؟! أم هو القدر!

أم مصفوفة الأحداث!

بعد برهة تحسب في عالم ظرف المكان والحدث والزّمان كبيرة، فتح الباب وأطلّ رأس متلفّتا ذات اليمين وذات اليسار ليتأكّد من أنّ القادمين لم يتبعهما أحد، انتظرَ والعرق يصبّ منه، لا فرق لو كان الفاعل حرارة الجوّ أم من التهاب الموقف والأحداث، أم الاثنين معاً.

اقتربَ من سور الدَّار بحذر وخَفَّة فهد، يقترب من فريسته، نظراته رادار
يمسح منطقة العدو لكشف الفخاخ المنصوبة للإيقاع بمن تسوّل له نفسه
الاقتراب من خصوصيّة سكّان المكان، دار دورة كاملة حول السور من
الخارج فوجد منطقة ضعيفة يمكن التسلّل منها، وهكذا فعل، مثلما نتسلّل
من نقاط ضعف الآخرين، لنمتلك سطوة التسلّط وسلاح النفوذ والابتزاز
لتحقيق مآربنا، اقترب من جدار البيت ووضع أذنه التي شحنها حواسّه كلّها
علّها تسعفه بالقرب من نافذة خلفيّة وسمع ضحكًا مختلطًا رجالًا ونساءً،
ومن خلال شقّ النافذة اخترقَ بصره مسافة المكان لترى الرّجلان يعاقران
الخمرَ ويعانقان المرأتين.

ابن خاله محمّد المقتول في الحرم، وزوجة خاله "مرجع" و"أم مرجع"
سقطا كما يتهاوى جدار الدَّار التي تتساقط أعمدتها "مرجع" في الجنوب
الغربيّ للقرية و"أم مرجع" في الشّمال الشرقيّ صحيح أنّ الحال في القرية لم
يعد الحال، هل هي الحاجة إلى المال؟ أم الرّغبة في الرّجال؟ إذا كانت الأولى
فهل من عذر؟ أمّا الثّانية فالحلال... الحلال ومَن يتزوّج من أرملة لديها ثمانية
أطفال؟!

سحب قدميه التي أصابها بعض الخدر يجبرهما على الحراك، عاد إلى المنزل
لا يرغب في رؤية أحد، خلّع ثيابه التي بلّتها العرق ألّقى على جسده بعض
الماء علّه يطفىّ نارًا لم يكن له يدٌ في إشعالها، شعر بقشعريرة تسري في جسده
توجّه إلى غرفته، صدم بنظرات عليّ الذي لم يتوقّع وجوده مستيقظًا في هذا
الوقت، أمّا حسن فقد كان ينعم بقليلوته، نظرات عليّ التي حاول أن
يتلافها، كانت تلاحق تحرّكاته وهو يحفّف جسده شبه العاري من قطرات
الماء، قرأ في عين قريبه الصّديق خطأً في التّفكير، فحارّ هو في التبرير، حاول
أن يوضّح، يشرح ماذا؟

القرية تصعد إلى الهاوية... هل يفهم عليّ أو غيره ما المقصود بهذه العبارة؟

الحديث بين العجوز وأم مرجع بدأ بهمس، ونظرات تحاول أن تبعد مَنْ يقترب ليتنصّت، تحوّل إلى نقاش هادئ وانتهى بصريخ فلم يسمع أحدٌ الطرفين ما قاله الآخر، وإن كانت الكلمات المتناثرة من الطرفين تدلّ على أنّ هناك سوء فهم أو خطأ في التّقدير وبالتأكيد تبرير، انتهى الصّراخ بأن تركت أم مرجع الدّار بدعوات متلاحقة لم تترك حتّى الزّمن الذي نعتته بالأعبر، ولم يسلم منها القدر والذي عبرت عنه بالحظّ المتعثر، الذي قذف بقارب حياتها في خضمّ هذه العيشة التي لم تسعدها في يوم من الأيام، وغمغمة من العجوز بكلام لم يفهم منه شيئاً وحيرة بقيّة أفراد الأسرة بين: ماذا جرى؟ وما هو السّبب في هذا الخلاف؟ وصاحبنا كان الوحيد الذي يعلم ولا يتكلّم... ألم يقولوا إنّ: ليس كلّ ما يعلم يُقال.

غادر (عليّ) القرية بعد أن حصل على الثّانويّة العامّة متوجّهاً إلى مكّة محرّماً بالعمرة لتقديم أوراقه للالتحاق بكلّيّة الشّريعة كما نصّحه سعد ووعدته له بأن يلتحق بالكلّيّة نفسها في العام القادم عندما ينهي الثّانويّة، عام كامل بين المدرسة وواجباتها المنزليّة وبين المسجد ومدرسة تحفيظ القرآن وما يتبعها من واجبات، والمنزل الذي أصبح وأمسى جحيماً لا يُطاق وخناقاً لا ينتهي بين سكّانه التي اختلفت رغباتهم وتغايرت أهدافهم وتكاثرت طلباتهم، غادرَ فيها حسن إلى العاصمة ليلتحق بمعهد الجوازات لعدم رغبته في تكملة تعليمه، لم يجد سعد راحة إلّا وهو يُمارس تمارينه الرّياضيّة وبعض الوقت الذي يقضيه مع هالة في واحة الحبّ البريء.

شعر وهو يودّع الجميع أنّه لن يراهم بعد اليوم. لأوّل مرّة يفارق العجوز التي لم تستطع أن توقف نهر من الدّموع المنهمرة، فهي ممزّقة بين وعد ألزمت

به نفسها مع المرحومة أم السعد مرضية أن لا تتركه حتى يفرق بينهما الموت،
وبين ابنها الكسيح وأبناء ابنها القليل اللائي تركتهم أمهم دون رجعة،
فهؤلاء الصغار يحتاجون رعايتها، أما هو فقد كبر وسيلحق بعلي الذي قدم
من مكة لقضاء الإجازة معهم في القرية، وعودة حسين بعد أن تخرج من
الجامعة وتم تعيينه مدرّساً في ثانوية القرية المجاورة، أفرح النّجاح والتّعين لا
يكدّرهما إلّا حديث الفراق والدّموع في العيون، الجميع يحبّ ويحترم سعداً
الإنسان، والقلب يحترق خوفاً من ساعات الوداع القادمة لا ريب، "هالة"
قلبها... مشاعرها... أحاسيسها ودعمها الذي يترجى ألا تفارق...

وصوت في أذنها يغني

مفارق... مفارق...

تقول يومين وتغيب سنة...

مفارق وتضيع هناك... وأنا أضيع هنا أضيع هنا...

دخل مكة المكرمة معتمراً بدت عليه الدهشة من عظمة المكان واتساعه،
المال والجهد المبذولان في تجديده وإن كان الجو حاراً جافاً في الصيف إلّا أنّ
الطّواف حول البيت يدلّ على أنّ أمة الإسلام بخير، عندما انتهى من أداء
العمرة عاد وتعلّق بستار الكعبة، سألت دموعه بغزارة، انتحب، أجهدش
بالبكاء وكأنّه منتظر لحظة خشوع تراكم الحنين إليه عبر السنين، هذا هو
الوقت ليفرغ كلّ ما بداخله من حزن، لا يذكر ماذا كان يريد ولكنه بالتأكيد
كان يتوسّل ويشكر في الوقت نفسه صاحب البيت العتيق على ما هو عليه
الآن، ترك الثوب الطاهر وعاد بخطوات ثابتة إلى الوراء ووجهه مستقبلاً
القبلة احتراماً لربّها وربّه رويداً رويداً، غسل وجهه بهاء زمزم... شرب بعضاً
منه بعد أن قرأ الفاتحة ونفث بالقراءة داخل الكوب، شعرَ بطمأنينة وسكون،
وترك المكان وشعوراً غريباً بأنّ هذا هو الحدّ الفاصل بين الفاتّة والقادم.

الحضارة: وإن كانت اجتماعية فكرية، أخلاقية، معنوية، مادية، علمية، عملية، فهي قد أسست على قاعدتين لمدرستين متناقضتين الأولى للمبادئ والأخرى للمصالح.

ولكنّ تلاحم المنفعتين والتصاقهم الخلقيّ، وسواء كانت الأسباب طبيعية أو أخطاء جينية كالتوأمين السياميين لا فرق يجعل خطورة الفصل بينهما من الممكن أن تؤدي إلى كارثة لأحدهما أو للآخرين معاً، مثلها مثل تواؤم المصلحتين العامة والخاصة أيهما يطغى على الآخر، فالخلطة السرية في أي مجتمع بين العنصرين يختلف عن غيره في المجتمعات أو الجماعات الإنسانية الأخرى، حتى ولو كانت قريبة منها أو تشارك معها في لغة أو دين، حتى بعض المصالح المشتركة ولكن ليس الكل.

لذا فأنت تحتاج إلى حدة في الإبصار لما هو قائم من الاعوجاج، ورؤية واضحة للمستقيم من الأمور، ودراية تامة بالتعامل مع المعطيات، وخبرة في صياغة الأفعال لتصبح أجندة الأولويات كضوء شمعة في طريق يُلعن والظلام من أطفائها، ونخاع حركتك إقامة ما اعوجّ وتجبر ما انكسر لمعادلة اعوجاج ما صنعوا وتثبيت ما هو قائم.

في إحدى أزقة حيّ الخنساء يقع بيت الأئمة (كما أطلق عليه صاحبنا سعد) يجمع الطلبة القادمون من المدن والقرى إلى أم القرى للدراسة والتحصيل ليس في كلية الشريعة فحسب بل في مدارسها ومعاهدها وكيانها المختلفة، النزل عبارة عن منزل قديم مكوّن من مجلس أثاثه بساط وتلفزيون وبعض الوسائد المتناثرة أطلق عليه (مجلس الشعب) يلتقي فيه الجميع وخمس غرف يتقاسم كلّ حجرة أربعة أو خمسة أشخاص أطلق عليها العزب، ولكلّ عزبة اسم (فعزبة عزيز) وفيها خمسة أشخاص أكثرهم حضوراً وكياسة ولباقة وفراصة في معرفة الرجال وإن كان ينجبى بعضاً من معاناته.

(عبد العزيز) أمرد ذو زغب خفيف، مَنْ يرى وجهه يعتقد أنّه طفل في جسم رجل شاربه للاخضرار أقرب منه للسّواد وكأنّه ابن الخامسة عشرة طويل نحيل شعره كثيف أسود ناعم وعينه لوزتان صغيرتان وأنف مدبّب وهو القادم من إحدى القرى المحيطة بالطائف.

(وعزة ابن الوليد) وفيها خالد الأكثر وسامة وأناقة في بيت الأئمة والقادم من قرية قريبة من ميناء الشّعبية المهجور واثنان آخران.

(وعزة عنتره) التي يرأسها شاب من وادي فاطمة، طويل عريض قويّ البنية أسود البشرة كعنتره جاد لا يتسم إلا إذا أجبر على ذلك، ومَنْ يستطيع أن يغامر؟! ولم يكن هذا اسمه، ولكن كنيّة أطلقها عليه، فاسمه عبيد ومعه ثلاثة آخرون.

(وعزة جوري الجنوب) وفيها عليّ ابن خاله واثنان نقل أحدهم إلى مجموعة أخرى من مجاميع العزاب، واحتلّ هو مكانه، أمّا الخامسة فكانت عزبة (الأمير) غرفة خاصّة تنفرد في كلّ شيء بدءاً من الأثاث... سرير ومكتب وكراسي ومكتبة فيها العديد من الكتب الممنوعة وغير الممنوعة وستريو وتلفزيون ملوّن وفيديو وخزينة لحفظ الملابس وطاولة للأكل، وخادم يأتي بوجبات الطّعام وينظّف الغرفة ويرتّبها، يحضر الملابس النّظيفة ويقوم بتصنيفها بعناية في أماكنها المخصّصة لها ويحمل معه المتّسخ منها وتلك التي تحتاج إلى كيّ أو تنظيف وحاملة الأكل من أربع أدوار يطلق عليها (المطبخيّة) أو مزوّد الطّعام ويعمل على تنظيف مجلس الشّعب يوميّاً على حساب صاحب الغرفة وفي داخلها حمّام خاص، صاحبها هو الوحيد في الشّلة مالك لسيّارة يابانيّة جديدة هديّة من والده بمناسبة نجاحه في الثّانويّة العامّة، ابن لأحد تجّار العقار في الطّائف، سجّل في قسم علم النّفس.

الجميع دون استثناء أظهروا إعجابهم بالقادم الجديد، وإن لم يكن في الوقت نفسه، بل إنَّ البعض تأخَّر بعض الوقت والبعض الآخر اتخذ صديقاً سره أمره، الكلّ يتسابقون على كلمة رضا أو ثناء أو شكر لخدمة لم يطلبها من أحد، حتّى (شاهر) صاحب عزبة الأمير ويناديه بالشَّريف شاهر إذا كان غائباً أو يا شيخنا عندما يريد منه حديثاً خاصّاً.

ليس ثقليلاً أو استهزاءً أو غيره من أبناء الأثرياء، بل كان يؤكّد للجميع أنّ شاهرًا رجل شريف ورجل مواقف، دمث الأخلاق، متواضع، رغم فارق المستوى المعيشي أو الاقتصاديّ عنهم الواضح، إلّا أنّ الرّجل خفيف الظلّ، سريع البديهة، حاضر النّكتة، متقبّل النّقْد، بيده حلول معظم المشاكل التي يتعرّض لها المغتربون، لعلاقة والده ببعض المسؤولين في الأجهزة الحكوميّة، أمّا المشاكل الماديّة التي كانت تعترض البعض منهم فقد كان له اليد الطّولى دون منّة أو تأفّف.

شاهر الذي قال عن سعد بعد تخرجه لو طلب من أحدهم أن يصف من هو الرّجل؟ فقولوا سعد المسعود فهذا يكفي، شعر بخجل من هذا الإطراء في وقتها، فحبّه لشاهر هو حبٌّ في الله لم يطلب منه شيئاً ولم يقبل منه سوى هديّة واحدة عبارة عن أشرطة لكامل القرآن الكريم تلاوة الشّيخ عبد الله الخيّاط، ومطالبة شاهر له بقراءة بعض الكتب الممنوعة التي كان يهرّبها من المداخل بطرق مختلفة منها كتب لعبد الله القصيمي وكتب مدن الملح وأرض السّواد لعبد الرحمن المنيف وبعض الكتب المترجمة إلى العربيّة لكتّاب روس مثل ديستوفيسكي وغريبين وأمريكان مثل فيكتور هيجو وأرنست همنغواي، تشارلز ديكنز ومسرحيّات شكسبير التي كان يحضرها لدى عودته من عاصمة الضّباب التي يقضي فيها الصّيف، كلّ صيف ما بين تسعين إلى مائة يوم تمرّ بين النّزهة والقراءة الحرّة والمسارح التي يحدّثه عنها.

كلّ ذلك أعطى صاحبنا بعداً آخر في الحياة، فها هي نعمة من نعم الله الكثيرة التي يحمد الله عليها، تبني له جسر معرفة مع الغرب عن طريق شاهر الذي تملك أسرته منزلاً في ضواحي لندن، وهو يدرس اللغة الإنجليزيّة في مدرسة قريبة من منزلهم هناك في فترة الإجازة الصّيفيّة.

العلاقة بينهما بنيت من الأساس على الاحترام والتقدير والحوار العلميّ الهادئ البناء، يحفظه القرآن ويتعلّم منه اللغة الإنجليزيّة، شاهر مولع بالقراءة باللغتين العربيّة والإنجليزيّة في كلّ المجالات حتّى الصّحف والمجلاّت لا ينام أكثر من خمس ساعات في اليوم الواحد، ومعظم الوقت في غرفته يقرأ أو يسمع أغنيّة لأمّ كلثوم أو يشاهد فيلماً ذا قيمة، لكنّه لا يتحدّث عن السياسة، بل يتهرّب إذا تطرّق الحديث عن السياسة خاصّة الدّاخلية.

الشّوق والمعاناة، هل هي من داخل الدّات أم أجنبيّة كما قال دايم السّيف، شهران مرّاً على بداية العام الدّراسيّ، وأكثر من عشرين أسبوعاً على فراق الأحبة.

ماذا تعمل هالة الآن؟ هل تفكّر فيه كما يفعل هو؟ هل تحافظ على عهد لم تقله إلّا من خلال عينيها والارتقاء في حضنه في العاصمة والقبلات الخفيفة التي كانا يتقاسمان لذتها بين فترة وأخرى؟ هل يريد دليلاً أكثر من ذلك أنّها تحبّه دون سواه؟

آه ما أجمل عينيها وكأنّ الشّاعر القديم كان يصفها عندما قال:

إِنَّ الْعُيُونَ التي في طَرْفِهَا حُور قَتَلْنَاهُ ثُمَّ لم يَحْيَيْنَ قَتْلَانَا

يحسّ بطيفها وكأنّها تحسّدت أمامه، يفتح يده... يشعر بدفع يدها... يريد أن يحرق يده من جمرة اللوعة، أن يحترق كلّ غنى مع محمّد عبده في جمرة غضا أبي الدّفا لو يحترق كفي، الإنسان يحتاج إلى الحبّ والغناء بالرّغم من

اختلاف الأئمة، إذا كان ما أعمله ذنبٌ فليغفره لي ربِّي فهو سبحانه وتعالى المحبّة، والدّين محبّة، ومحمّد عليه أفضل الصّلاة والسّلام رسول محبّة.

أيّام قليلة تسبق اختبارات الفصل الأوّل من العام الدّراسيّ، وهو في مكتبة الكلية مشغول بالتّحضير، اقترب منه عليّ يتبعه شاب ذو لحية وثوب خشن قصير، نحيل الجسم، ذو جدائل، وكأنّه قادم من صفحات كتاب تأريخ قديم، حاد القسّات وكأنّه من رجال تهامة، وبهدوء ترك مكانه وخرج معهم، وعيناه كرادار تحاول أن تلاحظ مَنْ يراقب مَنْ في لعبة الحياة الغامضة؟

سأل الغريب بلهجة نجديّة وبحدّة مثبّتاً عينيه في عينيه: أنت سعد؟
سعد: نعم.

الغريب: اسمك بالكامل لو سمحت يا حبيب؟
سعد: سعد سعيد سعد المسعود (أجاب بثبات).

اقترب من أذنه وقال مغمغماً: تعرف الشيخ...

سعد: نعم (ردّ بصوت خافت طالباً من عليّ أن يتركهم بإشارة من عينيه فهمها وابتعد قليلاً).

أخرج الشاب رسالة عبارة عن ورقة صغيرة ووضعها في يده وودّعه دون أن يلتفت أو يردّ على دعوته له بواجب الضّيافة، وضع الرّسالة في جيبه وتبادل مع عليّ إشارات انسلّ بعدها الأخير خلف الغريب يتبعه، أمّا هو فقد عاد إلى مكانه في المكتبة ليكمل ما ترك.

بعد أن أنهى دراسته في ذلك اليوم توجّه إلى المسجد وفي دورة المياه فتح الرّسالة وجد رقم هاتف واسم شخص وكلمة سرّ، وأمر بالاتصال من هاتف عام، بعد صلاة الظّهر مباشرة اتجه إلى كابينّة الهاتف في آخر الشّارع واتّصل على الرّقم الذي حفظه عن ظهر قلب بعد أن أحرق الرّسالة، سأل

عن الشخص، تأكّد من محدّثه بعد كلمة السرّ التي كتبت في الرّسالة، وبعد السلام والاستفسار عن الصّحّة عرف نفسه لمحدّثه: أنا ابن الوقاص.

الصّوت: في صباح الغد اذهب إلى المكتبة في الرّف تجد كتاب (العقد الفريد) هناك رسالة بانتظارك.

بعد صلاة فجر اليوم التّالي ذهب لتناول وجبة الإفطار وتوجّه إلى مكتبة الجامعة وكان أوّل الوافدين، توجّه إلى الرّف مباشرة وبحذر أعدّ قواه الاستشعاريّة للانتباه لأيّ حركة تدلّ على أنّ هناك من يراقبه، حمل (العقد الفريد) وبعض الكتب الأخرى من أرفف مختلفة، تصفّحه، أخذ الرّسالة بهدوء، ساعده في ذلك ندرة المريدين للمكتبة في هذا الوقت المبكر، فتح بعض الكتب الأخرى وغرق في الدّراسة حتّى أذان الظهر، وفي حمام المسجد التّابع للكلية قرأ الرّسالة (اللقاء في الحرم الشّريف عند العامود التّاسع عشر بعد صلاة عصر اليوم لا تغادر بعد الصّلاة، سأكون عن يسارك أقرأ القرآن عندما أقوم اتبعني عن بعد لا تحدّثني).

كان اللقاء وركبا حافلة، جلس بجواره، قال له إنهم دبّروا له عملاً في الشّركة في جدّة في إجازة الصّيف وعليه أن يسافر إلى هناك في إجازة نصف العام، وهذا هو العنوان ومبلغ ألف ريال عشر ورقات، كلّ واحدة بقيمة مائة ريال، تكاليف النّقل للتنسيق والتّعارف وتوقيع عقد العمل مع الشّركة، تركه في مكانه وترك الحافلة واختفى.

جدّة... شارع الكيال مقرّ الشّركة تقدّم لمكتب الاستقبال، وقبل أن ينطق بكلمة سمع صوتاً خلفه يقول:

الصّوت: أيّ خدمة يا أخ.

سعد: أنا...

الصّوت: اتبعني لو سمحت... لا تتكلّم كثير الحيطان لها أذان.

على يمين الممر دخلا غرفة أنيقة عبارة عن مكتب أمامه كرسيان للضيوف، علّم المملكة على يمين صاحب المكتب، وعلم آخر حَمْن أَنَّهُ علم الشركة على يسار الجالس على المكتب، وخريطة كبيرة للجزيرة العربيّة معلّقة على الحائط (الملفت أَنّها لا تحمل أيّ حدود سياسيّة بين دولها) وخزنة حديد. أخرج الرّجل منها ملفاً في داخله عقد ومستندات باسم سعد بن عبد الله بن مساعد الزدن، وطلب منه السّفر إلى المنطقة الشّاليّة الغربيّة لإخراج بطاقة أحوال بناء على هذه المستندات، لو صادفتك أيّ مشاكل في الإجراءات اتّصل بالمقدّم (...) وسوف يحاول مساعدتك بعد أن تحصل على البطاقة تقدّم للجوازات في العاصمة للحصول على جواز سفر بنفس الاسم والمعلومات التي في البطاقة، انتبه أثناء تعبئة الاستارة، هل لديك بطاقة أحوال باسمك الحقيقي؟

سعد: نعم.

الرّجل: ابدأ بإخراج رخصة قيادة من إدارة مرور جدّة ببطاقتك الأصليّة قدّم هذا الكارت توصية لرئيس رقباء (...) في المرور سوف يختصر الوقت ويساعدك، استخدم سيّارات الأجرة ولا تتحدّث مع سائق الأجرة؛ فبعضهم يتعاون مع المباحث ورجال الأمن، تفضّل هذا ظرف داخله خمسة آلاف ريال مصاريف الرّحلة للشّمال والعاصمة، وكذلك تكاليف الرّسوم عندما تنتهي من الحصول على الجواز الرّجاء الحضور شخصيّاً إلى هذا المكتب، واسأل عني أنا أخوك الأكبر (زاهد فريد) المسؤول عنك إداريّاً من الآن فصاعداً وضابط اتصالك، الرّجاء التّوقيع على العقد هنا وهنا، وفي ذيل الصفحة هنا مخالف لتوقيعك الرّسمي، ويجب أن تتذكّر أنّ هذا التّوقيع خاصّ بسعد عبد الله فقط؛ فيجب أن تتقنه وتحفظه أيضاً، وكذلك رجاء وقّع لنا على سند الماليّة بستة آلاف ريال، ألم تستلم ألف ريال في مكّة؟

سعد: بلى!

زاهد فريد: وهذه خمسة آلاف في الظرف كما ذكرت سابقاً، الرجاء عدم الاتصال بأي شخص إلا عن طريقي، شكراً ومع السلامة أسأل الله أن يوفقك، تصرف بشكل طبيعي، وكما علمنا عنك الحرص والحذر.

سعد: ولكن سوف يكون لي بطاقتان ورخصتان وجواز.

زاهد فريد: من الآن أنت شخصان مختلفان، هذه هي التعليقات على فكرة العلبة هذي فيها بصمات سعد عبد الله عندما تستخدم بطاقة أو جواز أو رخصة "سعد عبد الله" أو تتقمص شخصيته لابد من استخدامها وتركيبها سهل.

عاد إلى مكة المكرمة وبحوزته بطاقتان وجواز ورخصتا قيادة أحدهما من المنطقة الشمالية الغربية والأخرى من مرور جدة، الصورة لشخص واحد والمعلومات لشخصين يعرف أحدهما تمام المعرفة، أمّا الثاني فسماه القرين هو وليس هو! من أنا؟ هل أنا هو أنا ابن العشر سنوات؟ أم أنا هو أنا الآن!

هل أنا سعد سعيد؟ أم أنا سعد عبد الله!

وكيف أكون سعد سعيد وسعد عبد الله في الجسد نفسه، ولكن في أزمان ومهام مختلفة؟

وإذا لم يكن أنا هو أنا! فمن هو؟ ومن أنا؟ هل يغير الزمن الذات؟ فأصبح أنا لست أنا!

هل تصبح الذات بسبب المتغيرات الزمنية العديد من الأنا؟

وأين تذهب الأنا التي تحل محلها أنا أخرى؟

أسئلة تحتاج إلى كثير من البحث والقراءة.

في الفصل الثاني من العام الدراسي الأول في كلية الشريعة قسم الشريعة توطدت علاقته أكثر بسكان بيت الأمة، خاصة شاهر الذي لا يكاد يغادر

غرفته التي يقضي فيها معظم وقته بين القراءة والمشاهدة والاستماع لأغنية من أغاني أم كلثوم، لاحظَ عليه الغيابَ في بعض الأوقات المختلِفةَ لمُدَّة ساعتين أو أكثر في أيَّام مختلفة ومتفاوتة أيضًا، وبعد التَّقصِّي وجد أنَّ "شاهر" على علاقة غير شرعيَّة بزوجة رجل، عمله يتطلَّب منه الغياب عن منزله لعدَّة أيَّام، شعر بحزن غريب فكيف بشاب مثل شاهر يستطيع أن يتزوَّج إذا أراد فهو المقتدر، أن يرتكب إثْمًا كهذا في هذا البلد الطَّاهر!

كيف يواجهه؟ وبأيِّ طريقة ينصحه؟ وهل يحقُّ أن يتدخَّل في شئون الآخرين والخاصَّة منها بالذَّات؟ الدِّين النَّصيحة، وقد أحبَّ "شاهر" في الله. ولكن كيف؟ ماذا لو غضب؟ ماذا لو سأله من أين حصلت على هذه المعلومة؟ ماذا لو أنكر؟ كما فعلت زوجة خاله بالرَّغم من أنَّه شاهدها بأمِّ رأسه في أحضان رجل غريب. ماذا لو اتَّهمه بالتَّجسُّس على خصوصيَّة الآخرين، والدِّين الحنيف قد نهانا... أن لا تجسَّسوا ولا يغتب بعضكم بعضًا؟ انتهزَ فرصة انفراده بشاهر وهم يستمعون لأغنية (حب إيه اللي أنت جِي تقول عليه) وبخبت تطرَّق للحبِّ، ومن ثَمَّ عن العلاقة بين الرَّجُل والمرأة، وباغت ماهر بسؤال: ليه ما تتزوج؟

شاهر: ليه أتزوِّج؟

سعد: الزَّواج سَكينة... قال المصطفى عليه أفضل الصَّلوات وأتمِّ التسليم...

قاطعه شاهر: (يا معشر الشُّباب من استطاع منكم الباءة، فليتزوِّج فإنَّه أغضَّ للبصر وأحصن للفرج، ومَن لم يستطع فعليه بالصَّوم فإنَّه له وِجاء).
سعد: صدق الصَّادق الأمين، نعم وأنت ما شاء الله لديك الاستطاعة.

شاهر: كيف عرفت؟

سعد: والدك قادر على نفقة الزَّواج.

شاهر: الزَّواج نفقة وبس؟!

سعد: عندك مشاكل عضويَّة لا سمح الله؟ (قالها بشيء من الخجل المصطنع).

شاهر: لا.

سعد: إذا؟!

شاهر: أنا لي أحلامي وخططي المستقبلية تعرف (يا سعدي) وهي الكنية التي يحب أن يداعبه بها ليدكره بجذته (سكرة).

سعد: خير!

شاهر: أنا أغبطك... لأنَّ الله سبحانه وتعالى أعطاك قناعة غريبة وزهد عجيب، أحلامك قليلة.

سعد: وأنت!

شاهر: مشكلتي في تحدُّ مع النَّفس ومع الغير.

سعد: وضَّح!

شاهر: أختصر الأمر... والدي غير متعلِّم ينام على ثروة تقدَّر بأكثر من خمسمائة مليون ريال.

سعد: ما شاء الله اللهمَّ زِدْنَا وَزِدْهُ مِنْ فَضْلِكَ وَإِحْسَانِكَ وَبَارِكْ لَنَا وَلِهَ فِيهَا أُعْطِيتَ وَارْزَقْنَا وَارْزُقْهُ خَيْرًا مِمَّا أُعْطِيتَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿٢١﴾ .

شاهر: المشكلة النَّاس راح تقارن بيني وبينه إذا غيَّر المتعلِّم عمل كلِّ هذه الثَّروة من المفروض أنَّ المتعلِّم يفوقه ولا أنا غلطان يا سعدي؟!

سعد: الأمور لا تُقاس بهذه الطَّريقة.

شاهر: بالضبط... يمكن ما أقدر أصنع ثروة كثرة الوالد الله يطوّل في عمره ولكن أقدر أكون أنا... أنا... شاهر الكاتب، شاهر المؤلّف، شاهر المثقّف، شاهر المفكّر، شاهر العالم.

سعد: والزّواج قد يساعدك.

شاهر: قد يا حبيب... يا سعد السّعود وقد يدمّر ما قلت إنّي أغبطك ولا أقول أحسدك لأنّك تقي نقي صالح ورع.
سعد: ما تحس بالرّغبة في ممارسة الجنس.

شاهر: إلا.

سعد: كيف تتصرّف؟

نظر شاهر في عيني سعد الغامضتين علّه يقرأ شيئاً ما، ولما فشل قال بتنهد: أتصرّف!

سعد: كيف؟

شاهر: تحقيق... ولا.

سعد: ليه ما تقول تعليم علم أخوك الجاهل.

شاهر: الثوب اللي يلبسه فلان يمكن ما يتماشى مع علان.

سعد: يمكن ويمكن إذا كان مقاسهم واحد.

شاهر: شرف لي أن أكون مثلك لكن "شاهر" هو "شاهر" و"سعد"

هو "سعد" وسوف يبقيا مختلفين مثل الشرق والغرب.

سعد: تمارس العادة السريّة؟

شاهر: لكلّ شيخ طريقته.

سعد: شاذ؟!

شاهر: أفا.

سعد: عندك صاحبة؟

شاهر: الظاهر أحد مسلّطك عليّ اليوم.

سعد: لا لكن أنت الوحيد في الشلّة اليّ أعتقد أنّه يفهمني.

شاهر بشيءٍ من الحدّة: سعد... اسمع أنا احترمك وأقدّرك بس لا بدّ تعرف أنّ للعلاقة حدود أنا ما قط سألتك وين تروح ويش تسوي ويش قلت لفلان مين هذا؟

سعد: شكلك ما تنق فيني؟

شاهر: الثقة شيء والكلام في مواضيع مثل هذي شيء آخر.

سعد: أخاف عليك من الخطأ.

شاهر: خوفك عليّ يدلّ على طيب عودك ومحبتك.

سعد: أي والله.

شاهر: يا سعد لا تكدر خاطرك أنا والله العظيم أحبّك في الله بس لكلّ إنسان أسرار بينه وبين ربّه.

سعد: ما علينا تصبح على خير، يا خبر اليوم بفلوس بكره ببلاش بس انتبه من العواقب.

الفصل الدّراسي الثاني انتهى والجامعة أغلقت أبوابها، علي غادر إلى الجنوب، وسعد إلى الشّركة في جدّة استأجر غرفة في النّزلة الجنوبيّة مع مجموعة، في العمل يتدرّب على الحاسب الآلي من الثامنة صباحًا حتّى العاشرة، حيث يتّجه إلى ملحق خلفي بالمسجد للاستماع إلى محاضرات الشّيخ وبعدها إلى المنزل.

غاب الشّيخ شّداد عن حلقة الدّرس قرابة العشرين دقيقة، وعندما عاد كانت السّاعة قد قاربت لتعلن الواحدة بعد الظّهر وهو في الغالب وقت تناول الغداء، ومن ثمّ القيلولة بالنّسبة له، ولكن الدّرس مع (الجماعة) أهمّ خاصّة أنّ موضوع اليوم غاية في الحساسية، ومحور النقّاش هو العلمانيون في

البلاذ، أما الهدف المستتر من الكلام هو في تحريض هذه القلوب الغضة والعقول الطرية بزرع بذرة الكره والحقد على كل من يقف في طريق مصلحة الجماعة من الأعداء، والجماعة لا تعادي غير الكفرة والملحدين والخارجين عن السنة النبوية كما يراها المسؤولون عن الجماعة بمعنى آخر (الجماعة فقط) وما عداها فهم كفرة أو في منزلتهم، وبالتأكيد أنّ درجة حرارة الحوار سوف تتعدى درجة حرارة الطقس المعتادة في مثل هذه الأيام من صيف المدينة الساحلية على الشاطئ الغربي من البلاذ، وسوف يترك فرصة للمتحاورين ليرصد مدى تأثيره وتأثير العلماء الآخرين على هذه المجموعة الجديدة من جنود الله وإلى أي مرحلة بلغ بهم الحماس، وما هو أثر الخبرة والعلم في ترويض الاندفاع الطائش غير المبرر الذي قد يفتح ملفّات لا داعي لها في الوقت الراهن وإن كان الطرف الآخر من المجتمع قد تمّ تخدير جزء منه وتقييد أجزء أخرى بخيوط من الخوف، إلا أنّ الحذر واجب كما نبههم مرارًا وتكرارًا الأمير.

"سعد" الذي كان ينتظر قدوم الشيخ مع الآخرين انتهرَ تأخّر الشيخ وجال بنظره باحثًا عن وجه افتقده لبضعة أيام ولم يجروا أن يسأل عنه أحد، لما خاب بصره كما خاب أمله أن يلقاه في حلقة درس هذا اليوم، نظر إلى المستمع بجواره نظرة فاحصة، عندما تعمل بين مجموعة لا تعرف عنهم شيئًا حتّى أسماؤهم الحقيقية تعتبر سرًّا من أسرار لعبة الغموض والمغامرة التي انساق إليها بمحض إرادته، صحيح أنّ هناك من كان يراقبه منذ أن كان في القرية الأم وتابعه خاصّة بعد مقتل خاله في حادث الحرم إلا أنّه شجّع الجميع على أن يكون واحد منهم فلديه من الشجاعة ما يؤهّله لخوض مغامرات مثل هذه، وأكثر من ذلك ألقى بالسؤال بصوت خافت: أين الفارابي...؟ وهو اللقب الحركي لصالح.

واستدرك : هل هو مريض...؟

وعندما سمع همساً من محدّثه ينفي أن يكون صالح مريضاً، تشجّع وألحّ في السّؤال: أين هو إذن لم لم يحضر الدّروس؟

طالب العلم: لا علم لي.

سعد: هل تعرفه جيّداً؟

طالب العلم: أسألتك تدلّ على أنّك مستجّد في الجماعة...!

سعد: نعم فأنا حديث عهد بالجماعة، والفارابي هو مَنْ سجّلني معكم جزاه الله خيراً.

طالب العلم: وهل تعرف الفارابي قبل الجماعة؟

سعد: لقد تعرّفت عليه في مكّة المكرّمة أثناء أدائي العمرة في رمضان المنصرم.

كان يراوغ ولم يقل له أنّها تحرّجاً في الفصل الدّراسي نفسه من مدرسة تحفيظ القرآن في الشّمال الشرقي من البلاد، وإن كان (الفارابي أو صالح الصّالح) يكبره بأربعة أعوام تقريباً كما أنّه يسبقه في التّعليم النّظامي، وإن تخلف عن أقرانه في التّعليم المدرسي النّظامي، ويرجع ذلك لعدم اهتمامه إلّا بما ينفع الآخرة، أمّا العلوم الدّنيويّة فهي لا تفيد عابر سبيل يتطلّل تحت شجرة.

في هذه الأثناء دخل الشّيخ فوجد المجلس في هرج ومرج تختلط فيه الأصوات فلا يفقه السّامع شيئاً، وعند دخوله بدأت الأصوات تخفت شيئاً فشيئاً إلّا من بعض همسات أصرت على إغلاق النّقاش بطريقتها لتكون لها الكلمة العليا أو الكلمة النّهائيّة أو الأخيرة، وعندما تنحّج الشّيخ وأخذ مجلسه على كرسي بسيط من الخشب غطّى بسجادة متوسّطة العمر في صدر المجلس ومسح وجهه وخلّل لحيته بأصابعه كان الهدوء هو السّائد وقبل أن

يبدأ الحديث كانت عيناه مثل رادار طائرة استكشاف أو برج مراقبة تحصى- الحاضرين وتتفرّس وجوههم لتتعرّف إن كان هناك غرباء، وفي الوقت نفسه لتعيد الهدوء والسكينة للمكان، فكان لتلك المسحة البصريّة أثرها الفعّال فقد اطمئنّ أن لا غريب ولا مهندس في الدّارسين خلال فترة غيابه، وساد الهدوء المكان وأصغت الأذان، قال الشيخ بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى وسلم على الرّسول المصطفى خاتم الأنبياء والمرسلين الهادي الأمين، وديباجة المقدّمة التّقليديّة المكرّرة مثل خطب الجمعة: كنّا نتكلّم قبل صلاة الظّهر عن المقالة الشّيقة التي سطرها المبدع صقر الإسلام بإلهام من العزيز القدير الذي أنزل الكلام على قلبه وقلمه، ذلك المقال الذي هاجم فيه العلمانيين المرتدين عن الإسلام والذين يعيشون بيننا ويأتون للأسف إلى مساجدنا وقتما يحلو لهم ويندسوا بيننا ليتجسّسوا علينا ويكتبوا لأوليائهم من اليهود والنّصارى في واشنطن، وكيف شبههم بالمنافقين الذين جاء ذكرهم من الآية الثامنة حتّى الآية العشرين من سورة البقرة، وكما تعلمون من حفظكم للقرآن أنّ الآيات الأولى من السّورة كانت للمؤمنين المتّقين، وخصّهم بأربع آيات من الثّانية حتّى الخامسة، أمّا الكفرة فقد وصفهم في آيتين فقط، وهي الآيات السّادسة والسّابعة على التّوالي، وعندما تحدّث عن المنافقين وهم العلمانيّون من الوارثين للإسلام وأولئك الذين يحاولون الدّخول من باب الوسطيّة أو أولئك الذين لا يتّبعون السنّة النّبويّة الشّريفة والنّهج السّلفيّ كالسّلف الصّالح رضوان الله عليهم، فقد خصّص سبحانه وتعالى ثلاثة عشر آية لهم ووصفهم بالمنافقين، ولو لاحظ أحدكم أنّ عدد الآيات في وصفهم هو ضعف ما وصف به المؤمنين والكفرة مجتمعين زائدًا آية وستة أضعاف ما وصف الكفرة زائدًا آية ليدلّ على أنّهم أقدر وأخطّ وأخطر من الكفرة، ولهم الدّرك الأسفل من النّار، لقد حدّثنا الله منهم قبل أربعة عشر قرنًا في محكم

كتابه، ووصفهم بأنهم يشترّون الضلالة بالهدى وَمَنْ هو الهدى...؟ الهدى يا أَحَبَّتِي في الله هو مُحَمَّد ﷺ، وقبل القرآن، فكيف تبيع مُحَمَّدًا خاتم النَّبِيِّين وسَيِّد المرسلين.

حاول أن يتباكى ويضخّم من صوتهم وكأنّ الخشوع وعبرة محبة رسول الله ﷺ قد سقطت فجأة عليه فخنقته، وعاد إلى صوته المعتاد، ولكن بطبقة أعلى نبرة وأكثر تشديدًا على مخارج الحروف، أو تبيع القرآن العظيم القرآن الكريم بالضلال والتخبّط في الظلمات ألا ساء ما اشترّوا. أين العقل الذي يدعون...؟ وأين العلم الذي يفترّون...؟ ويتبجّحون أنّه النور الذي يبدّد الظلمات. وماذا يفعلون عندما يذهب الله بنورهم ويتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرَجْعُونَ﴾ ﴿١٨﴾ عليهم لعنة الله

ورسوله والناس أجمعين. لو قالوا كفرنا خيرٌ لهم بدل أن يتقلّبوا فعندما يلاقوا الذين آمنوا يقولون آمنا وإذا خلوا (وشدّد على كلمة خلوا) إلى شياطينهم ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿١٩﴾ يا سبحان الله.

مَنْ يستهزئ بمن...؟ دعوني أشرح لكم معنى الخلوة التي جاء ذكرها في هذا الموقع من القرآن العظيم... الخلوة يا إخوتي في الله هي التسرّ عن أعين الغرباء والمتطفّلين والرقباء (وهي محرّمة بين الرجل والمرأة الأجنبية) لذا يختارون مكانًا لا تصل إليه أعين الواشين، وعندما شبّههم العليّ القدير بالخلوة، فإنّما يدلّ على خوف المنافقين من المؤمنين أن يكونوا قد أرسلوا عيونهم لمراقبتهم ويعلموا ما يسرّون، وكأنّهم لا يعلمون أنّ الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون، وأنّه سبحانه هو الذي يستهزئ بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون، صدّقوني يا أَحَبَّتِي في الله عندما قرأت المقالة لهذا الشاب المبدع في مجلّتنا الرائعة المباركة بإذن الله لمست معنى قوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ ﴿٢٠﴾ ... الآية.

استأذن أحدهم بالحديث متنهراً توقّف الشيخ فأذن له الشيخ على مضمض: هذا الكلام مثيرٌ للاهتمام يا شيخنا، ولكن بأيّ معنى يفهم الآخرون المقالة...؟

علّق آخر: يا شيخ أنت سيد العارفين أننا مجتمع خليط بادية وحضر قبائل وعشائر، تراهم جمعاً وقلوبهم شتى وكلّ في فلك يسبحون، ولو كان كما يقولون وطنًا واحدًا إلاّ إنّنا جماعات متفرقة وشيع متمزّقة يا شيخ (والعياذ بالله) منّا السُّنيّ وفينا الشيعيّ والسُّنيّ صوفي وغير صوفي والصّوفية أقسام والسنة أقسام، خذ عندك حنفي مالكي شافعي أو حنبلي، والشّيعية أقسام والشّيعيون والعلمانيّون والليبراليّون والاشتراكيّون والقوميّون والنّاصريّون وجماعة البعث، المدارس الفكرية يا شيخ غزتنا من كلّ حدب وصوب حتّى مكّة مهبط الوحي وصل الغزو الفكريّ لشبابها وهذه الفضائيات التي تبثّ سموماً لأبنائنا من التّخنث والتّشبه بالنّساء، وجعلوا للجنس الثّالث حقّوا يطالبون بها ويعلمون شبابنا الرّذيلة والغناء والرّقص وأعمال الشّيطان من حبّ وخلوة وخيانة، واحنا يا شيخ ما نسمع من مشايخنا في قنواتنا الإعلاميّة غير عليكم بالطّهارة، كيفيّة الوضوء، دَخَلَ رمضان، خرَج شعبان، تحرّوا هلال القعدة، ترقّبوا دخول الحجّ وكأنّ الأُمّة الإسلاميّة يا شيخ لا يعينها غير اختلافات رؤية الهلال والحيض والنّفساء والطلاق.

الشيخ: هداكم الله... هل تعلمون أنّ في مجتمعكم هذا أشخاص لا يعرفون ما ينقضّ الوضوء، وتلك النّوعيّة من البرامج إنّما وضعت لأولئك الجهلة بأمور دينهم.

أحدهم: البعض يطلق عليها المؤسّسة الدّينيّة يا شيخ... الكلام ذا حرام ولا حلال؟!!

آخر: يا شيخ يقولون إنّ العلمانيين يريدون عزل الدّين عن الدّولة.
صحيح يا شيخ؟

الشيخ: صحيح.

آخر: والعمل يا شيخ؟

الشيخ تتحرّك عيناه مثل رادار ويركّز حواسّه على أن يكتشف خائناً قد
غرزته قوَّات الأمن، وتسمّرت عيناه على عيني سعد وأحسَّ الشيخ أنَّ هاتين
العينين تحفيان وراءهما إمّا رجلاً شجاعاً واثقاً من نفسه أو عيناً مدربة من
أجهزة الأمن! ولكن لا مانع من الإجابة والتّعميم ولا بأس من وضع طعم
لهذا المسكين، فإذا كان من عيون الشّيطان فسوف يأتيه تنبيه من رؤسائه،
وبالتّالي يكتب عنه للأمير ليتّم التعامل معه ويُزاح من طريقه، أمّا إذا نجح في
الامتحان التّمهيدّي فسيضعه في الامتحان الأصعب، وهكذا حتّى يتمّ وضع
اسمه في (قاعدة البيانات الخاصّة).

هزَّ الشيخ رأسه ووضع السّواك الذي كان قابضاً عليه بيمينه ويلوكه في
فمه، ووضعه بهدوء بجوار قلم كان مغروّزاً في جيبه، وبعد أن أبعد بقايا
السّواك من لسانه ولعابه قام ببصقه على يسراه وردّ على السّائل: وَمَنْ جَعَلَ
أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهَذَا التَّمَرِّقِ غَيْرَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ فَجَرِ
التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ يَا إِخْوَتِي فِي اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ وَالْإِسْلَامُ دِينُ وَاحِدٍ،
وَالْقُرْآنُ وَاحِدٌ، وَمُحَمَّدٌ وَاحِدٌ، وَصَفَهُ الْهَادِي بِأَنَّهُ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ
﴿٢﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿١﴾، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٢٨﴾، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا
نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ﴿٥١﴾ أمر صريح ولا اجتهاد في نص فمن لا يتبع

الرَّسُولَ فَهُوَ لَيْسَ مِنْهُ أَوْ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بَلْ خَارَجَ عَنِ الْمِلَّةِ وَكَافَرَ وَلَوْ أَدَّعَى غَيْرَ ذَلِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ غَيْرَ مَعْصُومٍ مِنَّا وَأَحْلَلْنَا مَالَهُ وَدَمَهُ وَعَرَضَهُ سَبَايَا لِلْمُؤْمِنِينَ.

قال أحدهم: ولكنَّ الدَّولةَ ترعى هؤلاء، فبعد أن بعثت الكثير من أبنائنا إلى ربيسة الصَّهيونية ومركز اليهودية والصَّليبية العالميَّة العاهرة أمريكا ليدرسوا العلمانيَّة والشَّيوعية والإلحاد والكفر بنعم الله وعادوا بعبادات وأفكار وتقاليد حتَّى في هيئة منازلهم أصبحت لأصحاب الشَّمال أكثر فكثرت الأرائك والطَّاولات التي صنعها لهم ما يدَّعون زورًا وبهتانًا أنه ابن الله لطعامهم، وتعتبر الكفرة من الأمريكيان أصحاب دمة وقد أمر بإبعادهم عن جزيرة العرب مهبط الوحي ومسجد رسول الله ﷺ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ بعد أن مهَّدوا لهم احتلال المسجد الأقصى وقلب الأُمَّة فلسطين.

أيد الشَّيخ التعليق بدون أن يقول ذلك صراحة، ولكن ابتسامة الرضا رسمها على محيَّاه كانت الدَّلِيلُ القاطع على مباركته للمداخلة وأكمل الحديث: إنَّ فكرة فصل الدِّين عن الدَّولة فكرة مثيرة للاهتمام، وهي لست فكرة حديثة وإنَّ كان هناك مَنْ يُطالب بتطبيق هذه الأفكار للأسف مَنْ هم بيننا ويتمتَّعون بحصانة مراكزهم الاجتماعيَّة فليعلم هؤلاء، رافعًا صوته ملوِّحًا بسبَّابة يده اليمنى: أنَّ الدِّينَ يحتل داخل الدَّولة مكانًا معيَّنًا واضح الحدود والمعالم، وأنَّ رجال الدِّينَ يسيطرون على الوضع ولا يحتلُّون مأوى بسيطًا مثلهم يحتمون ويعتصمون في داخله، بل لقد تغلغلنا بفضل الله في جميع أجهزة القطاع العام للدَّولة، ورجالنا يساعدون في صياغة القرارات الإداريَّة والحياتيَّة للمجتمع كما هو ملموس، كما يقوم دعائنا بغرس رجالنا في القطاع الخاص إمَّا عن طريق الشَّرَكَات والمؤسَّسات والمنشئات التي هي بحمد الله تابعة لمن هداهم الله، وهم مِنَّا أو في الشَّرَكَات الأخرى بدءًا من معقب أو

كاتب أو إمام للمصلى لديهم، أو مسئول عن النشاط الديني، وهؤلاء يزدون من قوتنا داخل المجتمع لأننا أئمة لهم الوظائف، وفي المقابل يكتبون لنا التقارير المستمرة عن هذه المنشآت لنحتاط أن لا يكون في مجتمعنا مؤسسات للشيطان وأتباعه (قال هذه الكلمات وتعمد أن لا ينظر ناحية سعد).

وأكمل: وأعود للقول بأن عملية الفصل القيصري بين الدين والدولة، هي فكرة قديمة فعندما تطالب الشعوب في الغرب بفصل الكنيسة عن الدولة، فلديهم ما يبرر ذلك لأن الكنيسة جعلت الملك رئيساً للكنيسة (ألقى نظرة سريعة نحو سعد ليلاحظ إن كانت هناك تغيرات في وجهه)، وأضاعت ثقة الشعوب كما خسرت ربها لبعدها عن تعاليم الدين، وشركها بالله وبُعدها عنه وتماديها في استغلال السلطة ونهب أموال المواطنين دون وجه حق عن طريق الضرائب غير المبررة وبيع بطاقات لدخول الجنة تُدعى صكوك الغفران وسوء الخدمات المقدمة في المقابل، وكذلك أدخلت الكنيسة نفسها في صراع مع الأمراء والملوك؛ وذلك بسبب توزيع الغنيمة المسروقة من عرق الفقراء والمساكين، أضف إلى ذلك المنافسة بين الكنائس المتعددة، فالكاثوليك غير البروتستانت غير الأرثوذكس، والحسد والطمع والجشع في جمع الأموال لشراء السلاح لحماية رجال الكنيسة، ومن ثم لقتل التابعين للكنائس الأخرى، وبهذا قامت الحروب المسيحية الكنسية مما أعطى بعض المفكرين في أوروبا أن يكتبوا عن الأسباب التي كانت تساعد في قتل الأوربيين بعضهم لبعض، وذلك يتمثل في تبرع المسيحي لقتل مسيحي آخر، وأخذت هذه الكتب تنتشر، وبدأ التطاول والنقد على بعض القساوسة، ومن ثم على الكنيسة نفسها حتى وصل الأمر إلى التطاول على الدين، وظهرت النظريات الفكرية لتحرير الإنسان الغربي من اضطهاد الكنيسة حتى خرجت مجموعة من هذه المجتمعات ورددت أن (الدين أفيون الشعوب) أي يخدرهم

ويجعلهم كالماشية، مدمنين كمدمني المخدرات، لا يستطيعون مقاومة القسّ أو رفض أوامره أو حتى نقد تصرّفه.

يدفعون دون أن يعوا حتّى باعوا للشعوب ما يُسمّى صكوك الغفران (كرّرها مرّة أخرى)، وكأنّ اللجنة مسرح عام، مَنْ استطاع أن يدفع تذكرة الدّخول فليتفضّل ويشترى تذكرة الدّخول، لا بل تستطيع أن تدفع أكثر لتأخذ مكاناً أفضل، أليس هم مَنْ غيّرُوا ما جاء على لسان عيسى عليه السّلام؟ وكذبوا الحقّ الذي نزل على محمّد ﷺ، وبالتّالي فقد ضلّوا الطّريق؛ فكان لا بدّ من قوّة تحميهم من الكنيسة فوجدوا في الملكية الدّستوريّة مخرجاً لبريطانيا وأسبانيا وبعض الدّول والجمهوريّة الاشتراكيّة الديجوليّة في فرنسا والجمهوريّات والديمقراطيّة في أنحاء أخرى من أوروبا وذلك لتعدّد الكنائس. ما رأيكم لو أكملنا هذا الحديث الشّائق في الحلقة القادمة من الدّرس إن شاء الله هدانا الله إلى نوره وصراطه المستقيم وتقبّل منّا حسناتنا وتجاوز عن سيّئاتنا إنّهُ سميعٌ مجيبٌ الدّعاء وصلى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم، سبحانهك اللهم وبحمدك...

شعر الشّيخ بقليل من القلق الذي فسّره أنّه خوف لا مبرّر له بعد أن يئس من ملاحظة وجه سعد بين الوجوه المتلفّة بكثرة عند مخرج الحلقة... أين اختفى؟ كيف اختفى بهذه السّرعة؟ ولكن ما الذي يثيره أو يخيفه من هذا الوجه الذي لا تقرأ فيه عبارة جادّة، أو تلك العينين اللتين لا تعرف إن كانتا تخفيان ذنباً أم حملاً وديعاً؟ ولكن ما هو الأمر الذي يخيف الرّجل أكثر من غيره؟ ولماذا يخاف هو بالذات؟ هل بسبب مركزه الذي وصل إليه في هذه المرحلة المتقدّمة مع الجماعة؟

صحيح أنّه المسؤول عن تدوين أسماء المريدين في هذه المنطقة في (قاعدة البيانات) وتصنيفهم التّصنيف الابتدائي في المراتب حتّى يصدر أمر أمير

الجماعة بتغيير الرّتب والوظائف حسب ما يراه الأمير وما يراه الأمير هو ما يقدّمه العضو للجماعة من قيمة مضافة، أم أنّ الخوف والقلق بسبب الكلمات التي تُلَفّظ ببعض منها عن أولئك الذين يدعّوهم أو غادًا، وفي مناسبات أخرى يدعّوهم المتسلّطين للسلّطة في غفلة من الزّمن والجماعة، وما أكثر غفلة المجتمع لعنهم الله فهم جواسيس اليهود والنّصارى، ملحدون، متحرّرون بل هم أعداء الإسلام أعداء الجماعة ومصالحها، إنّه لا يتمالك نفسه عندما يكون الحديث عمّا يصفهم بالخونة وسأل نفسه... لم الخوف...؟ وهو الذي تعمّد أن يلقي بهذه الكلمات كطعم لذلك الغامض القائم القادم من الجنوب وغيره من المستجدين في حلقة الدّرس. هل القلق مرّد الثّروة الكثيرة في هذه الأيام ولا عمل له غير الكلام وإعادة الكلام؟ أم بسبب قرب تحرّك العمليّات! هل نستطيع تنفيذ ما اعتزنا عليه؟

ترامى إلى أذن (سعد) وهو يهّم بالخروج وكأنّ أحدهم يتمتم بكلمات: (الظاهر أنّ يومنا يشبه أمسهم) عندما لمحت عيناه صندوقًا لجمع التبرّعات عند باب المسجد يحمله شاب خافضًا رأسه يكاد (الشّماغ) غطاء الرّأس أن يخفي جلّ ملامحه إمّا خجلًا ممّا يعمل أو هربًا من عين تصوّر سحته وتشهد عليه في يوم لا تنفعهم شهادة ولا يؤخّذ منهم عدلٌ ولا هم يُنصرون.

حاول سعد أن يعرف صاحب الكلمات فقد كانت هذه الكلمات تدور في رأسه أثناء حديث الشّيخ هل حقيقة أنّ شخصًا ما يرّدّها، أم أنّه قد سمع حديث روحه وما يدور في نفسه، إذا كان هناك أحد غيره فهو يريد أن يتحدّث إليه يريد أن يلتقي مع رأي آخر مع شخص صاحب علم، رؤية وفكر (خارج نطاق الحلقة) لا يريد ببغاء يرّدّ كما يفعل من يأتي إلى حلقات الدّروس، ولكن تدافع طلّاب العلم من أصحاب السّاحة والفضيلة وطلّاب الجنّة حال دون ما يرغب، لكنّه لم ييأس وحرك جميع قنوات

الاستشعار التي لديه وبتركيز أقرب للتفحص والتدقيق أخذت عيناه تتفرّس الوجوه المتدفقة من مخرج المبنى الملاصق للمسجد حتّى وقعت عيناه على شاب في العشرينات من العمر مربوع القامة ممتلئ الجسم أسمر السحنة متناسق القسمات، عيناه إلى الدائرة أقرب يطغى السواد الذي يجذبك كأنّه المغناطيس على مساحة البياض الصّافي في داخلها.

الجو خائف والحرارة لا تحتمل، والشوارع شبه خالية من النّاس، فقد هرب المارّة من الأرصفة إلّا من بعض المضطّرين إلى السّير في رائحة الغبار وعفن البحر التي ينفرد بها صيف مدينة جدّة عن باقي مدن المملكة والتي ألفها سكّانها بل يتوقّعونها ويعلمون متى تهلّ عليهم ومتى تغادرهم.

خطوات سعد كانت تغالب الرّطوبة التي كانت تحدّ من تقدّمه نحو ذلك الجسد المتحرّك أمامه والذي انحرف فجأة نحو اليسار متّجهاً نحو حارة السّبيل، وعندما قربت خطواته منه سلّم عليه وعرفه بنفسه: ابن الوقاص.

الشّاب: الرّازي.

سعد: ونعم الاختيار.

الرّازي: شكرًا.

سعد: هل تريد تناول طعام الغداء معي؟

الرّازي: وأين تقطن؟

سعد: في النّزلة الجنوبيّة.

الرّازي: وهل معك سيّارة...؟

سعد: نعم معي سيّارة أجرة.

الرّازي: نعم الحال، وفي أثناء الطّريق أراد سعد أن يتأكّد من أن صاحب نظرية (حالنا اليوم كحال أمسهم) هو نفسه الطّريدة التي حصل عليها وهو من يجلس بجواره في المقعد الأمامي فبدأ الحديث.

سعد: الحقيقة... واقع المسلمون في العالم مخجل.

الرازى: حسبنا الله ونعم الوكيل.

سعد: هل تعتقد أننا نعيش في عصر الظلام كما كانت أوروبا...؟

الرازى: من تقصد بأننا؟

سعد: نحن المسلمون.

الرازى: أوروبا أرض، مكان، والمسلمون بشر يؤمنون بدين الإسلام والدين نور والنور نقيض الظلام محل مكان الظلام ويبدده، فكيف يعيش في الظلام، المعروف أن الظلام يهرب إذا وجد النور إلى الأطراف حيث المنطقة بين النور والظلام فتختلط فيها الأمور على سكان تلك المنطقة.

سعد: قصدت أن حالنا اليوم هو حالهم بالأمس.

الرازى: لم أقصد بقولي هذا... إذ إنك سمعته المسلمون كافة (ارتاح سعد

فهو الغنيمة إن شاء الله).

سعد: ومن قصدت إذا؟

الرازى: مجتمعنا في السعودية.

سعد: تقصد مجتمع الجزيرة العربية.

الرازى: بل أعني مجتمع المملكة العربية السعودية بحدودها فقط.

سعد: وهل هناك اختلاف في المجتمعات الإسلامية؟!

الرازى: في الدول الإسلامية حسب حدود الخريطة السياسية الواقعية

التي أمامي نعم.

سعد: وضح أكثر.

عندما يكون الحوار هادئًا، والرغبة في الاستفادة من الطرفين سيّدة

الموقف، والسماع للآخر من آداب الحديث قد تواجد وتوفّر بكل ما تعنيه هذه

الكلمة، يتحوّل الحوار من فلسفة، وعموميّات ويقترب أكثر من صلب

الموضوع، وبالتالي نكون أقرب إلى الشّفاية، وكلّما زادت الثّقة بين أطراف الحديث زادت الصّورة وضوحاً وتحديداً للمشكلة، وبالتالي يمكن وضع الحلول النّاجعة بنفس القدر من المعلومات والشّفاية.

الرّازي: عندما نقول دولة إسلاميّة تحكم بشرائع الله ماذا نقصد ومَن نقصد، الإسلام حسب رؤية علمائنا أو لنقل فقهاءنا وهم أصلاً مختلفون، فقهاء نجد والقصيم لهم رأيهم، وفقهاء الحجاز لهم رأي آخر، وكذلك باقي المناطق فالإسلام كما يراه الأزهر في مصر أو أيّ دولة إسلاميّة أخرى مثل ماليزيا أو إيران أو طالبان في أفغانستان الإسلام يختلف من دولة لأخرى في الفروع التي يكبرها ويضخّمها بعض الفقهاء الذين نصبوا أنفسهم للحديث نيابة عن الأئمة لأهداف سياسيّة أو مصالح دنيويّة، ويعتبرونها الحدّ الفاصل بين الإيمان والكفر، برغم أنّ الإسلام دين العقل منذ أن هدى الله إبراهيم عليه السّلام إلى الإسلام، فجعل التّحكيم للعقل هو الأساس ولم يجعله لتقاليد أسلاف من سبقهم، ومن بعده جاء أولي العزم من الرّسل حتّى كان خاتمهم محمّد صلوات الله عليه، ولو كان كذلك فيما يجوز وما لا يجوز لكان النّاس بحاجة لرسول جديد كلّما اقتضت الحاجة وظروف الحياة المتغيّرة.

فالشيخ أبو حنيفة فقيه وليس رسولاً، غيره غير الشيخ محمّد عبده غير الشيخ محمّد بن عبد الوّهّاب في جزيرة العرب غير الشيخ ابن باز في عصرنا على سبيل المثال لا الحصر؛ لأنّ الظروف تختلف وتبقى قواعد الإسلام ثابتة شامخة فحكموا العقل واستعانوا بالنّقل الصّالح لمجتمعاتهم في أزمنتهم، وطالما فتح النقاش للعقل فتعدّد الرّأي حتميٌّ، واختلاف وجهات النظر وارد في الأمور الفرعيّة، ووجود العقل لا ينفي وجود جوانب أخرى متروكة للعواطف فالإنسان مجموعة من المعتقدات والموروثات والأماكن التي تبلور شخصيّته التي تفرقه عن الآخر يقطن فيها، لكلّ منها خصوصيّتها التي يأوي

إليها فإن كان في (مكان العقل) يناقش موضوعًا علميًا له معايير وقياساته التي تنتهي بنتائج معينة، وهنا يجب الالتزام بقواعد المكان وهو العقل والعلم، أما مكان العواطف، ومكان التقاليد، فلها أوقاتها التي تستجم فيها النفس البشرية، وكلما كثرت الأماكن عند الفرد سواء كان رجلاً أم امرأة كثر الخلط، فقصده (أبي العلاء المعري) أنَّ البشر نوعان... رجلٌ ذو عقل فلا دين له أو ذو دين فلا عقل له، إنَّ الإنسان نفسه ذو جانبين في فطرته التي فطر عليها هو في أمس الحاجة إليهما ولكلٍّ منهما مجاله، ما يظهر لنا من ذلك نحكم عليه أنه صاحب علم في اللحظة التي نراه فيها يتحدث أو يستخدم العلم، وقد نراه في لحظة دين فترتبك لدينا الأمور ونحتار في تشخيص الرجل، والإسلام حضَّ على العلم في مواقع كثيرة من القرآن، وفرق بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فالعلم والإيمان ليسا كلمتين مترادفتين ولا متناقضتين أيضاً، بل جانبان ضروريان معاً لكلِّ إنسان يريد لنفسه حياة تحقّق فطرته السليمة (فالعلم عقل، والإيمان عاطفة وبهما معاً يحيا الإنسان السويّ السليم) كما قال الدكتور (زكي نجيب محمود).

سعد: هل يعني هذا أنّ المسلمين في مرحلة متأرجحة بين القرون الوسطى والعصر الحديث؟

الرازبي: من الناحية العقلية ومنظومة الفكر والثقافة فهي في مرحلة ارتياب أو عدم إدراك وبنسب متفاوت من مجتمع إسلامي إلى آخر، ففي الأزمنة المضطربة والمليئة بالفوضى والقلق يشعر الإنسان أنه في البدايات الأولى للخلق، فالعالم دائم الثقل والتشكيل والتغيير، وأنا هنا أشبه وضع العرب والمسلمين في الوقت الراهن مثل وضع أوروبا في عصر الظلام، فقساوسة الكنيسة وضعوا للفكر زنزانة وسجنوه في داخلها، فاستأصلوا منه الخصوبة وجعلوه في النهاية عاجزاً يشتهي الحرية ولا يصل إليها ويتمنى

الانطلاق، ولكن لا يستطيع أن يحقق نفسه، فالرسالات السماوية أنت لكي تعقلن الفوضى التي يعيش فيها البشر، وهو تحويل الفوضى إلى نظم وقواعد تسهل وتيسر الأمور، ولكن أن تُفسّر هذه القواعد والنظم لقيود تحدّ من الفكر والعمل الجدي للبحث والتطوير، فهذا من البشر وليس من عند الله. ما جرى ويجري في العالم الإسلامي والعربي بصفة خاصة يخبر عن وجود أزمات حقيقية تتمثل في استباحة الأرض والشعوب والكرامة، وصنع القادة مخرجاً لأنفسهم يبرّر تصرفاتهم بأنّ الصهيونية العالمية إسرائيل، أمريكا، الاستعمار هم السبب، والسؤال ما علاقة إسرائيل في عدم بناء بنية تحتية لمخطّط عقاريّ يُباع بمقدار كذا في مدينة ما من مدن العالم الإسلاميّ أو العربيّ ونقل الأموال المنقولة إلى خارج البلاد لصرفها في اللهو أو توظيف الأموال في أفضل الأحوال عند مَنْ يقنعونا أنّ الغرب وإسرائيل أصل المؤامرة، ويحرّكون عجلة اقتصادهم التي تطحننا، نحن نعيش في عزلة داخلية قبل أن نعزل أنفسنا عن الغير، ولا نعرف كيف ندير علاقات عادية بسيطة داخل مجتمعاتنا أولاً، فضلاً على إدارة علاقات وفاق إسلامية عربية شاملة أو وفاق مع الآخر، فما بالك بإقامة علاقة صراع، ولا نملك قوّة الدّفاع عن أنفسنا.

سعد: هذا تشاؤم!

الرّازي: سمّه ما شئت، نحن يا أخي الكريم مسخنا لنكون شعوباً تنتظر قدرها دون أن تحاول أن تشترك في رسم خريطة هذا القدر ولو بدرجة مراقب.

سعد: أنت محبط.

الرّازي: أنا أبحث عن نهاية مشرّفة.

سعد: أليس هناك أمل... مخرج ما؟

الرّازي: الأمل في الله كبير ولكن...

سعد: ولكن ماذا؟

الرّازي: كلمة واحدة يتغيّر أماكن حروفها، فتعني معنى آخر، يكملان بعضهما بل يشكّلان جملة مفيدة بل الحلّ لمعظم مشاكلنا.

سعد: العديد من الكلمات.

الرّازي: الأهمّ يا ابن الوقاص كلمة تتكوّن من خمسة أحرف تختلف أماكن الحروف فتكون كلمة أخرى لها معنى مختلف، ولكنها متكاملتان إدارة وإرادة.

سعد: ولكن الإرادة يعجزها التّفأؤل المفرط والتّشاؤم المفرط أيضًا.

الرّازي: وهذا هو بيت القصيد، ومفتاح الحلّ بيد الإدارة.

سعد: وقل ربّ زدني علماً وألحقني بالصّالحين.

خمسة وأربعون يوماً بين الشّركة يتدرّب على الحاسب الآلي ومحاضرات ونقاشات الشّيخ شدّاد وغيره من الشّيوخ مع المجموعة التي يتجدّد أعضاؤها، فمنهم مَن غادر! إلى أين؟ لا أحد يعلم ولا يستطيع أحد أن يسأل! ومنهم مَن قدم من أين؟ قد تسأل ولكن هل تضمن صدق الإجابة؟

في صباح نهاية الشّهر الأوّل طلبه زاهد فريد في مكتبه: سوف تسافر إلى دولة صديقة للتّدريب بجواز وبطاقة سعد العبد الله، لا تحمل معك بطاقتك الأصلية أو رخصة القيادة الأصلية، تسافر وحيداً عن طريق البرّ يفضّل (النّقل الجماعيّ) أضمن، لا أوصيك لا تتحدّث مع الغرباء، حتّى نقطة الحدود تجد هناك صديقك (الفارابي) اتبعه دون حديثٍ معه حتّى تصلا لمعسكر التّدريب ستبقى هناك خمسة وأربعين يوماً، تعود بعدها للكلية في مكّة لا تعود إلى الشّركة إلّا في الصّيف القادم إن شاء الله أو عندما يأتيك طلب منّي، أحبّ أن أبلغك أنّ الأمير يقرّئك السّلام فالسّلام أمانة.

بعد ذلك ناوله ظرفاً في داخله ألف دولار أمريكيّ وألف ريال: هذه مصاريف الدّورة ومكافأة العمل للشّهر المنصرم.

الدّورة: عبارة عن معسكر للمتطوّعين في خيام في منطقة معزولة بين جبال شكّلت حلقة شبه دائريّة غير متساوية الارتفاعات لها منفذ ضيّق لا يتعدّى الثلاثة أمتار.

البرنامج: من السّبت حتّى الخميس عبارة عن الاستيقاظ لصلاة الفجر، جري للياقة البدنيّة، ألعاب رياضيّة لتقوية العضلات، الفطور، محاضرة عن سلاح (المسدّس) نظري... كيف يعمل، كيف تنظّفه، كيف تعبئ الدّخيرة في المشط، التّصويب على الهدف الثّابت، صلاة الظّهر، تناول طعام الغداء، راحة، تدريب عملي على التّصويب الثّابت، صلاة العصر، موعظة دينيّة وقراءة القرآن، صلاة المغرب، تناول طعام العشاء، صلاة العشاء، النوم. أمّا يوم الجمعة إجازة حرّة في عاصمة الدّولة الصّديقة والعودة لأداء صلاة العشاء في المعسكر، من لا يريد الدّهاب إلى عاصمة الدّولة الشّقيقة أم الصّديقة يقضي اليوم دون صلاة جمعة لوجود عدد من الحرس فقط، في الأسبوع الأوّل لم يحقّق شيئاً يذكر، وفي نهاية الأسبوع الثّاني بدأ يركّز مع مدرّبه ويحقّق بعض النّجاح، وفي الأسبوع الأخير حقّق نجاحاً اعتبره مرضياً وإن لم يكن ذا قيمة بالنّسبة لمدرّبه الذي طلب منه العودة من أوّل الصّيف القادم، وكتب ذلك في التّقرير.

عاد إلى مهبط الوحي، التقى بعليّ، سأل عن أخبار القرية، صُعِقَ عندما علّم بقرار الأسرة زواج حسين من هالة، أحسّ رعشة في جسده وكأنّ القدر خلفه بالمرصاد يعطي من جهة ويخطف منه أحلى أمانيه من جهة أخرى، حاول عليّ أن يخفّف عنه الصّدمة فحسين شقيق عليّ.

قال سعد بصوت يحاول أن يكون متماسكًا: وهي وافقت؟ اعترضت؟ رأيها.

عليّ: أعتقد ما لها رأي.

سعد: ليه؟

عليّ: بعد وقوع الفأس في الرأس.

سعد: ويش تقصد؟

عليّ: أقصد... الموضوع انتهى... الباقي مجرد إجراءات وشكليات.

سعد: يعني حسين وضعهم تحت الأمر الواقع.

عليّ: الاثنان وضعوا العائلة تحت الأمر الواقع.

سعد: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ صدق الله العظيم.

لم يستطع أن ينام، حاول... وجد نفسه في مجلس الشعب وحيدًا مع ورقة وقلم وكتب.

قالوا: صف الدنيا.

قلت: عرفتها غادرةً لعبوب

تبيع قلوب وتشري قلوب

هذا غصب وذاك غصبوب

والشمس... الشمس لا بد تنكسر عند الغروب

وعرفتها... عرفتها... غادرةً لعبوب

عرفتها غادرة في زمان

الحب في قلبها ما لو مكان

الغدر في يدها خنجر ويطعن في الأمان إنسان ورا إنسان

وهي فاتنة تسري في هاتيك الدروب
وعرفتها... عرفتها... غادرة لعوب
عرفتها في غدر ليل ولونها الخمري الجميل
وخصر نحيل ورمش كحيل وخلفها خلفها مية قتيل
ذولي ضحايا عيونها الحلوة الكدوب
وعرفتها... عرفتها... غادرة لعوب
هل يصف المرأة؟ أم تراه يصف الدنيا! هل صحيح أنّ المرأة هي الدنيا أم
الدنيا مثل المرأة؟ لا فرق.

هل صحيح أنّهما متشابهان أم ذلك من أوهام الرجل لمحاولة معرفة أو
تفسير، أم فلسفة ما حوله من متغيّرات وأقرب الناس حوله المرأة والدنيا
لإقناع النفس أنّ هذا هو الواقع ويجب أن نتقبّله كما هو.
وكان آخر عهده بهالة فقد صمّم على إغلاق ملفّ الحبّ إلى الأبد، وأغلق
باب الأحزان وألقى بمفتاحه في محيط النسيان.

مرّت سنوات الدّراسة الأربعة ليتخرّج في الكليّة مع مرتبة الشّرف،
أمضاها للحصول على شهادة، اعتبرها سلاحه ضدّ الجهل والفقر، وتعتبر في
مجتمعه جواز سفر نحو الزّواج والوظيفة الملائمة لشهادته التي هي عبارة عن
قاضٍ، كاتب عدل، ضابط في هيئة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر أم
مدرّس مواد دينيّة، يعتمد أيّ من ذلك على الشّفاعة التي تعتمد على
اعتبارات كثيرة أهمّها المنطقة، القبيلة، اسم العائلة. أمّا معسكرات التّدريب
في الطّرف الآخر من الحياة التي كانت تسليّه عن هموم الدّنيا والفوارق
الاجتماعيّة والاقتصاديّة والعصبية القبليّة أو المناطقيّة، فتعلّم فيها فنون القتال
بالأسلحة الخفيفة، طرق الاعتناء بالسّلاح، تنظيفه، تعبئة الدّخيرة، تعرّف

على أنواعها، الدّول المصنّعة، الفرق فيما بينها، إصابة الأهداف الثّابتة والمتحرّكة، حقّق نجاحًا جعله مساعدًا للمدرّب.

أكمل جميع أنواع التّدريب النظري منها والعملي، دروس في التّموين، المساندة، الإمداد، المناورة، الهجوم الارتداديّ، الهجوم الضّاغط، الانسحاب القهريّ أو التّكتيكيّ، قتال العصابات، التّفجيرات، الحرائق. أمّا في الشّركة فقد أجاد التّدريب على الحاسب... طباعة، نسخ، إرسال، استقبال، قطع، لصق.

وفي المسجد مع الجماعة محاضرات المشايخ لختان أدمغة الشّباب، وكيفية إيقاعهم في فخاخ منصوبة ظاهرها صالحهم وصالح دينهم وأمّتهم وثمرتها جنّة الخلد التي يرغبون، باطنها يصبّ في صالح مجموعة من أباطرة المجموعة السّياسيّة التي يملّون بتحقيقها، أمّا عمله كسائق لسيّارة أجرة فبالإضافة إلى أنّه زاد من رصيد حسابه الماديّ في إحدى البنوك فقد تعلّم منه الكثير من هموم المجتمع المذكّرة منها والمؤنّثة والمثاليّة والتي يطلق عليها البين في الجنسين، وجرح لم يندمل من هالة التي خانت قلبه وقلبها إذا كان لها قلب. هذا ملخّص للسّنوات التي أمضاها صاحبنا، بمرّها وحلوها، بجدها وهزلها.

في قرية (ثول) التي تقع مباشرة على البحر بين جدّة والمدينة المنوّرة، وتشتهر بأسمائها... كان لقاء آخر مع (زاهد فريد) حيثُ فضّل الأخير أن يكون اللقاء هناك على عشاء سمك، وبعيدًا عن مكاتب الشّركة وأعين المتابعين إذا كان هناك من يراقب أو يتابع، ولكنّ الحرص واجب أكثر من الآن وصاعدًا، ودار بينهما هذا الحديث الذي بدّاه زاهد فريد: مبروك التّخرّج.

سعد: الله يبارك فيك.

زاهد فريد: أصبحت الآن أكثر نضجًا وخبرة وعلماً.

سعد: هذا من فضل ربّي، ثمّ مجهودكم الذي لا ينكره إلا جاحد.

زاهد فريد: هل فكّرت في الوظيفة والاستقرار؟

سعد: قدّمت لوظيفة حكوميّة، ولكنّ ليه ما أعمل في الشّركة.

زاهد فريد: لا... يجب أن تنسى الشّركة وأنت سعد سعيد لا تعرف

الشّركة ولا موقعها لا تعرفني ولا أعرفك ولا قط اتقابلنا... أنا تقابلت مع

سعد العبد الله، قد يشبهك في الملامح ولكنّ أنت الآن سعد سعيد المواطن

الخريّج في كليّة الشّريعة يجب أن تكون لهذه الشّخصيّة عملها وحياتها

الاجتماعيّة الخاصّة، ومثل ما أنت عارف أعمال الشّركة في فترة الصّيف

للطلّبة فقط، وتصرف مكافئات وليس رواتب لإعداد البعض من أمثالك

الشّرفاء للعمل مع الجماعة والبعض الآخر تغطية.

سعد: لكنّ الوظيفة الحكوميّة قد لا تأتي.

زاهد فريد: ولن تأتي فقد صدر أمرٌ بتجميد الوظائف العامّة.

سعد: والعمل؟!

زاهد فريد: ماذا تقترح؟

سعد: بالنّسبة للعمل كنت أعتقد...

زاهد فريد: لا تكمل... هذا عنوان شركة في العاصمة تقدّم أوراقك لهم

الأسبوع القادم.

سعد: ولكن هذه شركة للمقاولات وأنا خريج شريعة.

زاهد فريد: (ضاحكاً) يمكن يغبوا إمام! خذ هذه البطاقة واذهب إلى

مدير القوى البشريّة وسوف يقوم بمساعدتك.

سعد: هل سنلتقي؟

زاهد فريد: نحن من يقوم بالاتصال بك فلا تتصل بنا بعد الآن، مع السلامة.

سعد: مع السلامة.

غادر زاهد المكان وبعد ساعة من الزمن غرق خلالها في تفكير عميق غادر سعد واتجه إلى بيت الأئمة في مكة وجمع أغراضه وغادر إلى العاصمة، توجه مباشرة إلى منزل خالته في الدّخل المحدود، وفي صباح اليوم التالي اتجه إلى شركة المقاولات، وعندما قدّم طلب وظيفة اعتذروا له لعدم وجود وظائف شاغرة الآن على الأقلّ، طلب مقابلة مدير القوى البشرية، وعندما عرّف نفسه وقدم بطاقة التوصية تمّ تعيينه فوراً رئيس قسم في إدارة التفتيش وراتب سبعة آلاف ريال! وسجل في التأمينات الاجتماعية، وطلب منه حلق ذقنه بطريقة مؤدّبة، وما المانع؟ سأل عن سكن للعزاب فاقترحوا عليه عدّة مواقع اختار أقربها للعمل، غرفة بحمام خاص قام بتأثيثها... بساط، فرشاة للنوم، مكتب صغير، أرفف للكتب، حاسب آلي، هاتف الذي أعطى رقمه للمدير عسى أن يوصله لزاهد فريد، خزانة حديد متوسطة الحجم لوضع الأوراق غير السريّة ولكنها مهمّة.

ثمانية عشر شهراً كادت أن تنقضي ولم يتّصل أحد، حاول أن يقرأ في عين مدير القوى البشرية شيئاً دون جدوى، تجسّس عليه... عرف أصدقاء المدير، منزله، تعلّم كيف تنتصّت فجرب في رأس مديره، تأكّد أنّ هذا الرّجل لا يعلم شيئاً عن الجماعة، بل لا يعلم إن كان هناك جماعة في المسجد القريب من منزله أم لا، لم يشاهده يصليّ أو حتّى يتجهّز للصلاة أو يتظاهر بذلك، يسهر مع مجموعة طرب وسكر ورقص مع غانيات وافدات، البعض منهنّ يعمل في بعض خطوط الطّيران، والبعض ممرّضات، مدرّسات، كوافيرات،

خيَّاطات سحبن قليلاً من صديقاتهنّ الوطنيّات وفي أحد البدرومات
أوجدوا ماخوِراً وبارّاً ومرقصاً غريباً، وكأنّه نادياً خاصّاً للأعضاء فقط.

بعد صلاة المغرب التي كان يحافظ على أدائها في المسجد القريب من سكنه
بالرَّغم من أنّه حليق اللحية مسبلاً إزاره، وبالرَّغم من مضايقة بعض من
شباب جماعة المسجد الملتحين ووصفهم له بأنّه علمانيٌّ وأنّه من رجال الأمن،
مختفياً خلف حفظ القرآن والمداومة على المسجد حتّى في صلاة الفجر
لمراقبتهم، وأنّ عمله بشركة المقاولات ما هو إلّا تغطية، ولما تعمّد إبلاغهم أنّ
بيده شهادة في الشريعة من كليّة الشريعة في مكّة مع مرتبة الشرف جعلوا ذلك
شاهداً على أنّ الشهادة هي من خيوط المؤامرة الكبرى التي تُحاك في إسرائيل
التي تصلهم عن طريق واشنطن أو لندن، ويرفضون من ينبههم أنّ هذه
المؤامرة هي من وحي خيالاتهم المريضة، وأنّها مندسّة ليؤمّنوا بواقع مريض
غير موجود إلّا في عقولهم، وهذا ما يخدم العدو ولكن هيهات.

لَقَدْ أَسْمَعْتُ إِذْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

في إحدى الأمسيّات وبالتّحديد بعد صلاة المغرب تبعه رجلٌ يكبره بعقد
من الزّمن، وعندما حاذاه قرأ عليه التّحيّة فردّ بخيرٍ منها.

الرّجل (بصوت هامس): يا فهلتج!

حاول تفادي ارتبাকে... تماسك... استدار نحو المتحدّث... وقفَ أمامه
تماماً... نظر في عينيه كصقر يحدّد موقع فريسته... ركّز في عيني القادم ورقبته
قائلاً: عفواً!

الرّجل: يا فهلتج. (قالها بكلّ ثبات وهو يبادلّه قراءة العيون).

سعد: ياه فيها أنا يا سيّدي آه. (تراخت أعصاب المتحاورين) قال الرّجل:
أنت صاحب سيّارة الأجرة؟

سعد: نعم.

الرَّجُل : توصلني مستشفى التَّخَصُّصِي؟
سعد : إِيَّه .

الرَّجُل : بكم؟

سعد : اركب يا رجال ما راح نختلف .

الرَّجُل : ما كان أوله شرط آخره سلامة ولا الطَّرِيق العام قريب أدور
غيرك (بصوت عالٍ كي يسمع حديثهم المغادرون للمسجد والمارة في ذلك
الوقت) .

سعد : عشرين ريال .

الرَّجُل : خمس تعش .

سعد : عشرين .

الرَّجُل : خمس تعش (تارگًا الموقع) .

سعد : تعال يا اللحية الغانمة اركب .

ركبا السيَّارة وبعد أن وصلا أول الطَّرِيق العام قال سعد : كيف الحال؟
الرَّجُل : نعمة .

سعد : الحمد لله على السَّلامة .

الرَّجُل : الله يسلمك .

سعد : خير !

الرَّجُل : الجماعة منتظرينك في الويك إند (نهاية الأسبوع) في جدّة اتصل
بزاهد على هذا الرِّقم من هاتف عام .
سعد : خير نتعشَّى سوا .

الرَّجُل : لا وصلني التَّخَصُّصِي وراح نتضارب على الخمسة ريال ونروح
لقسم الشرطة لتسجيل محضر ونتصالح ، لا تنازل عن الخمسة ريال هناك
حتَّى تأخذها ، يا منِّي يا من الضَّابط وأنت تشتم وأنا أشتم .

سعد: ليه؟

الرَّجل: ومن غير ليه، التَّعليقات.

استأذن الثلاثة أيَّام السَّابقة ليوم الجمعة إجازة اضطراريَّة، وبعد صلاة عصر يوم الاثنين كان في إحدى حافلات النُّقل الجماعي المتَّجهة إلى مكَّة معتمرًا وبيده حقيبة صغيرة بطاقة الأحوال الأصليَّة ورخصة القيادة وبعض الملابس والأوراق النَّقدية، بعد أداء شعيرة العمرة توجَّه إلى جدَّة، في فندق قريب من وسط البلد وضع حقيته في الغرفة وتجوَّل حتَّى وصل المستشفى الواقع في باب شريف، وتسكَّع هناك لفترة يراقب ويتحدَّث مع البعض وهو يبتسم لأحدهم وهو يعرض خدماته:

- ناشف ولا سائل.

سعد: لا شكرًا.

المشاكس: زراعي ولا صحراوي.

سعد: إيش الفرق؟

المشاكس: شكلك بيغالك حبل كم عمرك؟

لم يجب... تبسم... توجَّه إلى بَوَّابة المستشفى، دخل... غاب في الممرَّات فترة، خرج وبخبرة المتمرَّس في التَّجسُّس التي تدرب عليها خلال السَّنوات الماضية حدَّد موقع المشاكس بائع المِلدَّات المحرَّمة... ترك المكان وفي زاوية من زوايا المستشفى الخارجة وجد الهاتف العام اتَّصل على زاهد فريد الذي حدَّد الزَّمان والمكان باقتضاب شديد، في طريق عودته إلى الفندق سمع صوت المشاكس وهو يهمس في أذنه: شكل الهوى جنوبي.

نظرَ إليه والبسمة لا تفارقه. قال المشاكس: الحجب ثقيل.

كاد أن يضحك من هذه اللغة الغريبة التي يفهم ما يقصد منها، ولكنَّه كان يتسلَّى.

قال المشاكس: أجرة ولا خصوصي؟
سعد: اسمع... أنا مباحث هيئة وأراقب شخصًا مشبوهاً... فارق
أحسن.

المشاكس: أعوذ بالله.
اللقاء مع زاهد فريد لا يتعدى زمن تناول وجبة طعام في أفضل الأحوال،
رجل عملي يلقي بالتعليمات ويختفي، أمّا رسله فلن يتكرّر لقاءك معهم
إطلاقاً.

زاهد: كيف العاصمة والعمل؟

سعد: الحمد لله.

زاهد: الجماعة طالبينك في أفغانستان.

سعد: والعمل؟

زاهد: سعد سعيد سوف يستمرّ في العمل يستلم الراتب ويضعه في
حسابك في البنك.

سعد: والتأمينات؟

زاهد: سعد سعيد موجود.

سعد: والسفر؟

زاهد: راح يقابلك واحد منهم في العاصمة ويعطيك التفاصيل، أنا ما
أعرف عنها شيئاً.

سعد: وكلمة السرّ؟

زاهد: الطريق وعمر.

سعد: والجواب؟

زاهد: طريق كابل أصعب.

استيقظ صباح ذلك اليوم، وجد نفسه في مدينة لا يعرف عنها غير اسمها، وقفَ يدير بصره في أنحاء المكان يتأمل واجهات المساكن والمتاجر، كل شيء يدلّ على مخلفات حروب طاحنة، أعيت شوارع المدينة، ورسمت على وجوه أهلها الهادئ القسماً أصلاً، قسوة ضنك العيش وطحن المعارك، حتّى أصبح الموت يسير بينهم وكأنّه منهم أم تراهم منه، رأى تلك الصُورة منعكسةً في الشارع في الخان الذي قضى فيه ليلته، تذكّر وسيلة المواصلات التي نقلته إلى هذه المدينة، لم تك طائرة أو سفينة أو قطاراً، بل عربة تصارع الموت وهي تلهث لتصل إلى المدينة قبل أن يدركها (الأجل) العطل.

مسالك وعرة وخطرة في الوقت نفسه من تعرّض المسلّحين المعادين لنظام العاصمة ومن الشيوعيين ومناصريهم للقافلة بالنهب والقتل لذا يحسّ بأثار التعب، أخذ يفتش في جيوبه، أحسّ ببعض الأوراق أخرجها عملات مختلفة، لاحظ أنظار المارّة، أعادها بسرعة مرّة أخرى إلى جيبه يبحث بحاسّة يده علّه يجد ورقة العنوان التي أعطاه إيّاها (برويز خان) لم ينجح، بحث في الجيوب الأخرى، اللباس الأفغاني كثير الجيوب مثله مثل السياسة والآراء الكثيرة المختلطة، شعر بحرج وهو يحرك يديه اليمنى في الجانب الأيسر، ولما لم تجد شيئاً، جرّب بيده اليسرى في الجانب الأيمن ومن ثمّ في الجيوب على الجزء العلوي الأيمن فالأيسر فالخلفي، ويعود مرّة أخرى ونظرات الفضوليين تتابعه وتزيد من حرجه، وكأنّه قرد محلي يسلي مجموعة من السيّاح الأجانب، تبسّم أحدهم، اقترب منه، انحنى، التقطت ورقة من على الأرض، رفعها له وقال له: سلام عليكم (بلكنة أفغانيّة).

سعد: وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته.

اختطفَ الورقة من يد الغريب، ففتحها، وجدَ العنوان، أعادها للغريب مشيرًا للعنوان، هزَّ الغريب رأسه بالنفي، لا يعلم صاحبنا معنى النَّفي هل هو أنَّ الغريب لا يعرف القراءة أم أنَّه لا يعرف العنوان؟

وما الفرق؟ قبض على الورقة في راحة كفِّه، تلفَّت يمنة ويسرة، أشار له الغريب أن يتبعه بعد أن قال كلمات لم يفهم منها شيئًا، تلفَّت مرَّةً أخرى وهو يتبع الغريب تاركًا بينهما مسافة، توقَّف الرَّجل عند أحد المتاجر وتحدَّث مع صاحبها وهو يشجِّعه بالتَّقدُّم والسَّلام على صاحب المتجر الذي كان يرتدي ثيابًا ناصعة البياض وعمامة بيضاء كالثلج، تلفت للمرَّة الأخيرة وتقدَّم مصافحًا ومسلمًا بتحيَّة الإسلام على التَّاجر الذي ردَّ التَّحيَّة بأحسن منها، قدَّم له ورقة العنوان، نظر التَّاجر إليه نظرة إجلال وتقدير، وطلب منه أن يرتاح لتناول الشَّاي، تحدَّث معه بلغة عربيَّة فصحي وكأنَّه قادم من تأريخ البلاغة، وزاده طمأنينة أنَّ المتحدث يستدلُّ بآيات الله مرَّتين إياها ترتيلًا، ودعاه لتناول الغداء.

على بعد أمتار وهو يرتشف بعضًا من الشَّاي في المتجر سمع أصواتًا وتراويل تنبعث من ذلك المبنى في النَّاحية المقابلة من الشَّارع، وكأنَّها أناشيد إسلاميَّة، وعندما ركَّز تأكَّد من أنَّها مديح في النَّبيِّ، سأل بعينه... جاء الرَّد من قبل صاحب المتجر: الصَّوفيَّة القدريَّة اليوم المولد النَّبويِّ الشَّريف وهذه مدرسة تحتفل بالمناسبة.

وقف أمام الباب وبجواره صاحب المتجر، حاول أن يمدَّ بصره داخل هذا المكان، رأى مرَّاً سقفه مرتكز على أعمدة من الخشب الملون وأرضه من التَّراب، والممرَّ يخترق عدَّة غرف عن اليمين وعن اليسار، وفي نهاية الممرِّ حديقة أشجارها باسقة ذات أزهار خلاَّبة، والأصوات المنبعثة من الصَّفِّ تعلو مترنمة بأناشيد ذات لحن جميل وإيقاع شرقيٍّ يهزُّ الرُّوح والجسد معًا، إنَّه

وحيدٌ ويحبُّ أن يرى نفسه بين النَّاس، لديه أسئلة كثيرة، عن المدينة، سكَّانها، رجال نساء أطفال أيِّ شيء وكلِّ شيء، مدَّ رأسه من خلال الباب ونظر، وجد رجلًا في الخمسين من عمره يلبس ملابس بيضاء ليست في نصاعة ملابس التَّاجر الواقف بجواره وطاقيَّة خضراء مطرَّزة وكذلك بقيَّة الطلبة، لم يتوقَّف التَّرتيل، خرج وهو يدندن مع التَّاجر الأفغاني:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا اللَّهُ دَاعِ
أَيُّهَا الْمُبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ جِئْتَ نَوْرَتِ الْمَدِينَةِ مَرْحَبًا يَا خَيْرَ دَاعِ
سارا في الشَّوارع في طريقهم إلى منزل التَّاجر (المضيف) وهم يردِّدون
دون كلل أو ملل التَّشديد في لحظة من لحظات السَّعادة التي لا تعرف لها مثيلًا
إلا إذا كنت في الظُّروف نفسها التي مرَّ ويمرَّ فيها سعد في تلك اللحظة، شعر
بنشوة وكأنَّه يردِّد هذا التَّشديد لأوَّل مرَّة، ولكن في (كندهار) له مذاق آخر.
عندما طلبَ منه التَّاجر دخول المنزل مهلِّلاً ومرحَّبًا بالقادم، دخل وهو ينظر
إلى الأرض خجلاً، وإن كانت عيناه تُلْقِط كالبرق فحوى المكان من الدَّاخل،
فمجلس الضُّيوف على يمين الزَّائر، وفي نهاية صالة المدخل تظهر حديقة
داخليَّة، وفي وسط المدخل نافورة ماء تعطي الجوّ قليلاً من الرَّطوبة وشيئاً من
التَّميّز، بعد تناول طعام الغداء سأله مضيفه: كيف وجدت كندهار؟

سعد: لم أرها بعد، وإن كانت مقابلتك ساعدتني بعض الشيء فأنا لا
أتقن اللغة الأفغانيَّة.

التَّاجر الأفغاني: كيف وصلت إلى كندهار؟

سعد: عن طريق غزنة.

التَّاجر الأفغاني: لو مررت عن طريق المطار تجد أنَّ الطَّريق ينحرف بعيداً
عن شاطئ نهر (ترنك)، فالطَّريق يرتفع تدريجيّاً في سهل زراعيّ، وبعد ذلك
يعبر قناة كبيرة للرّي والقناة لا تستمدّ مياهها من النَّهر، فماء النَّهر شحيح

ولكن وراء الأفق هناك سلسلة من الجبال قليلة الارتفاع ومن خلفها جبلان يرتفعان وسط الوادي، وحاجز من الأشجار وينحدر بك الطريق حتى مدخل المدينة، وإذا خرجت من المدينة تجد نفسك أمام أحد الجبلين القائمين وسط السهل، هذا الجبل له طرف مدبب بارز، على هذا الطرف حفر الإمبراطور المغولي (بابر) أربعين درجة تُسمَّى (شيهيل زنيه) تؤدي إلى محراب سجّل فيه أخبار فتوحاته في الهند، ثم جاء حفيده (أكبر) مضيفاً ما قام به من غزوات وفتوحات، ولما جاء ملك أفغانستان (أمان الله خان) لم يضيف غير قضبان حديدية يُستعان بها في تسلُّق الدَّرَجَات، فإذا وقفت في أعلى درجة وسرحت ببصرك انكشف لك الطريق بين (غزنة وكندهار) وهو الطريق الذي سلكت، ومدينة كندهار شيدت على أنقاض المدينة التي شيدها (أحمد شاه عبدلي) الذي أنشأ مملكة أفغانستان في القرن الثامن عشر، وقد هدمت أسوار المدينة القديمة ولن تستطيع مشاهدة آثارها إلا إذا صعدت الدَّرَجَات الأربعين، وأحمد شاه بنى مدينته التي أبعدتها قليلاً عن المدينة الأقدم وأقامها في مكان مكشوف.

وبعد صلاة العصر توجّه الاثنان إلى المدينة القديمة، فوجد أن المدينة محاطة بسور من الأجر، وفي أعلى السور أقيم حصن منيع زادته الطبيعة مناعة.

الإنسان بطبعه يعشق الماء سواء على شواطئ بحر أو نهر يجري فوق بسات من السندس الأخضر؛ لذا فقد أخذ المنظر وظلّ مأخوذاً بسحره من فوق مرتفع (بابا ولي)، وتعتبر (راجيتان) من أكثر المناطق ماءً وخضرةً، فالجداول التي تجري لتروي ظمأ الحقول الخضراء الواسعة من سنابل القمح والدّخن، وهكذا زار كندهار الحديثة والوسطى والقديمة، ومن خلال الكتابات التي

ترجمها له مضيفه والتي خلفها الإمبراطور الهندي (أوسكا) عرف سرّ بناء هذه المدينة في هذا المكان بالذات دون غيره من الأماكن.

ستّة أشهر مضت منذ وصوله عكف خلالها على تعلّم اللغة ساعده في ذلك أنّها تكتب بالأحرف العربيّة في الكتابة والقراءة، أمّا النطق فكان لزواجه من إحدى الأسر الأفغانيّة، الذي لم يكلفه الكثير ولا يحتاج إلى موافقة رسميّة من السّلاطات لزواجه من أجنبيّة الفضل الأكبر فقد تأقلم مع المجتمع الجديد عليه بسرعة، لبس لبسهم وأكل أكلهم يتجول بين قراهم وجبالهم وأوديتهم وكهوفهم يتدرّب على أسلحتهم، احتكاكه بالعرب المتواجدين معه قليل، فهو لاء من اليمن وأولئك من سوريا، والبعض من مناطق مختلفة من السّعوديّة والمغرب ومصر والجزائر والسّودان والخليج والأردن حتّى من فلسطين ولبنان والصّومال وإريتريا وكأنّ الجامعة العربيّة نقلت أعمالها التي لم تستطع أن تحدّها في ميناها في عاصمة الكنانة إلى أفغانستان، حيث حدّدت هدفها وهو محاربة الرّوس والشّيعيّة وطردهم من أرض الإسلام والمسلمين.

سمع من صهره أنّ مجموعة من كبار المسؤولين سوف يتواجدون في المسجد عند صلاة المغرب حرص على أن يكون في المقدّمة، وإن لم يجد سوى الصّفّ الثّالث إلّا أنّ موقعه أمام منبر الخطيب، ساعده في رؤية جميع من اعتلى المنبر، بعد الصّلاة شدّه (أبو سفيان المكي) الذي خطب بلغة الأوردو نيابة عن العرب الأفغان، خاصّة وأنّه من مكّة المكرّمة.

في اليوم التّالي كان يبحث عن (أبو سفيان المكي) الذي كان يبحث عنه أيضًا النّقيا عند أحد الأفغان، سبق أن تلاقيا في مواقع أخرى، ولكن دون أن يتحدّثا إلّا حديث العيون، وبعد أن سمع خطابه الحساسيّ للجهد أعجب بشخصه ورباطة جأشه وتمكّنه من اللغة التي علم فيما بعد أنّه أنقنها في طهران

لقراءة الأدب الفارسيّ، خاصّة ما تبقيّ من رباعيّات عمر الخيّام، الإعجاب
أوّل خطوات المحبّة التي تُبنى عليها قواعد الصّداقة، تصافحا، يتفرّس كلّ
منهما في الآخر، احتضنا بعضهما، تحدّثا بلغة القوم احترامًا لمضيفهما.

حامد

مَشَيْتَاهَا خُطَى كُتِبَتْ عَلَيْنَا وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطَى مَشَاهَا

الاسم: حامد شاكر حامد العابد.

مكان الميلاد: مكة المكرمة.

المنطقة: مكة المكرمة.

اسم الأم: حامدة.

تأريخ الميلاد ١٣٨٤ / ١٢ / ٢٠ هـ.

الاسم الحركي: أبو سفيان المكي.

لم تكن ولادته مغايرة لباقي الولادات، بل قد تتشابه مع النادر من الولادات؛ فهو أول ذكر بعد أربع إناث لتاجر (سبح وعطور وسجاجيد الصلابة) في المدعى القريبة من الحرم جدته لأبيه (رحمة) لم تسعها الفرحه فعبرت عن شكرها بأن ذبحت جملاً وبقرةً وخروفاً صدقة لفقراء البيت، أمّا جدته لأُمّه (علوية) فقد تكفلت بعمل أسبوع سوف تتحدث عنه مكة لفترة من الزمن، فقد كلفت أحد الخياطين بتطريز ثوب الرضيع على شكل لفظ الجلالة لتحرسه من العين التي لا تُسمي بالرحمن الرحيم، وكذلك الوسادة التي سوف ينام عليها وملاءة السرير التلّ، طعام المدعوين المكوّن من ثلاث خرافٍ اثنان منها للرّجال والثالث للنساء والهدايا للأطفال الذين حضروا (الرحماني) أمّا شاكر العابد فعبر عن فرحته بأن ذهب إلى الملتزم بعد أن صلى ركعتين عند المقام شاكرًا حامدًا الله على هذه العطية لم ينس أن يدعو الله أن يكون ولدًا صالحًا بارًا بوالديه وأن يوفقه لما يحبه ويرضاه، ضامراً أن يحسن

تربيته على أيدي علماء الدين، ويقوم بتحفيظه القرآن والعلم النافع في الدنيا والآخرة.

بعد عامين من ولادته رزق شاعر العابد صبياً آخر وثالثاً ورابعاً، عندما أصبح حامد في الرابعة من عمره يصطحبه والده معه إلى الدكان ويأتي الشيخ عامر ليحفظه صغار السور من القرآن، وبعد أن بلغ السادسة أدخله في أحد المدارس الحكومية.

في سنّ الحادية عشر وعشرة أشهر تقريباً حصل على الشهادة الابتدائية، عندما تقوم بمراجعة كشوف درجاته خلال السنوات الست التي أمضاها في المدرسة تجد أنّ "حامد" يتفوّق في الدروس العلمية أكثر من العلوم النظرية، وإن ساعده حفظه للقرآن الكريم على التقدّم في علوم الدين واللغة إلا إنّ بروزه في الرياضيات والهندسة والعلوم هو ما يميّزه.

أسعار البترول في ارتفاع، الدّخل يزداد، النّاس تلهث وراء المادّة، بدأت أحوال بعض المواطنين تتحسنّ ومن ضمنهم والده شاعر الذي وسّع تجارته، وبدأ في بناء عمارة كبيرة في حيّ العزيزيّة يُقال إنّ والده ورث أرضها البالغ مساحتها ألفان وخمسمائة متر مربّع عن أبيه، واشترك مع أحد البنوك لبناء العمارة الضّخمة شراكة مضاربة واستثمار.

كبرت الفجوة بين أفراد المجتمع، وظهرت الفوارق بين أفراد العائلة الواحدة، وبرزت ليس الطبقيّة الإقطاعيّة فحسب، بل تلك المقيّنة (العصبية) التي حاربها محمّد صلوات الله عليه في هذه البقعة من العالم قبل أربعة عشر قرناً ها هي تعود مكشّرة عن أنيابها، أبعدت كلّ من لا ينتمي إليها حتّى من إمامة الحرمين الشّريفيّن لم تسلم من أنيابها، وغرست طواحنها في بقيّة المناصب الإداريّة العامّة، وبدأت تتسلّق بأشواكها الشّرسة في الأعمال التجاريّة الخاصّة، يظهر ذلك جليّاً في توزيع حقائب المشاريع الضّخمة التي

تتمّ تحت جناح الظلام، هذا الوضع صنع تربة الفساد التي أخذت تفرش بساطها على كلّ درجات سلام المجتمع إلّا من رحم ربّك، ساعد في ذلك توافد الشّركات والعمالة الأجنبية، فأصبحت مدن كالعاصمة في المنطقة الوسطى وجدة على السّاحل الغربيّ والدّمّام في الطّرف الشرقيّ من البلاد ورش عمل تجارب وتدريب لمئات الآلاف من الوافدين العرب وغير العرب، المسلمون وغير المسلمين، هذا الانفتاح غير المتوقّع من الأغليّة العظمى من المواطنين، أدّى إلى خلل في توزيع الثّروة وتركيبه المجتمع، صحيح أنّ عجلة التّقدّم لا بدّ أن تدهس بعض الضّحايا أثناء دورانها لتمهيد طريق الحضارة الجديد، ولكن ألم يكن من المفروض دراسة المسافة والزّمن لتحديد سرعة دوران العجلة أو تنبيه العامّة لكي يتفادوا الصّدّات.

ثلاث سنوات أخرى مضتْ حصل بعدها على شهادة الكفاءة أو المتوسّطة في اليوم الأوّل من الصّف الأوّل في ثانويّة العزيزيّة تعلّقت عيناه بعين (وضاح بن حسن) القادم من قرية تقع في الجنوب الغربيّ من مكّة، تعارفا، تصادقا، كيمياء غريبة ترسل دوائر مغناطيسيّة تقربّ أو تباعد بين الأشخاص لا يعرف سرّ تركيبها إلّا من خلط عناصرها بمقادير محدّدة ودقيقة.

لا شيء يبعث على الرّهبة إلّا السّكون الأجوف الكليّ، في فترة ما من لحظات انتظار مرور الوقت الصّعب، سواء قبل شروق فجر يوم جديد أو قبل المغيب بدءاً من شحوب شمس المغيب وانكسارها نحو الغروب أو بين هذا وذاك، كمقبرة تفتح أبوابها لاستقبال القتلى، بدأت تحوم في أحياء العاصمة المقدّسة أجواء لا تعرف كيف تصفها ولا تسعفك الكلمات لتحديد تلك المشاعر والهواجس التي تتناكب قبل حدوث فاجعةٍ ما، وتعجز عن ترتيب هذه الانفعالات؛ فقرون الاستشعار لا تقرأ الغيب، فلا يعلم الغيب

إِلَّا صاحبه، أَمَّا المشاعر التي منحك الله إِيَّاهَا لا تكفي إِلَّا أَنْ تقول شيئاً ما سيحدث، الإحساس بالضيق، القلق، الخوف الذي لا تعرف سبباً لتواجهه داخل النَّفس... كلمات لا تعني ولا تغني عن ردِّ القدر شيئاً، ورجال الأمن أكثر النَّاس استشعاراً، فهذا الهدوء سوف يتبع بالتَّأكيد بعاصفة لا تبقي ولا تذر، أين؟ متى؟ كيف؟... مَنْ؟... لماذا؟
عِلْمُ ذلك عند العليم الخبير، وما عليك إِلَّا الانتظار.

استيقظَ على أذان الفجر وصوت لأغنية أم كلثوم يردد (يقول النَّاس إِنَّكَ خنتَ عهدي) قادماً عبر نافذة غرفته، اختلطا في سَمعه كاختلاط الأحلام التي زارته في منامه، فبين سُحْبِ قاتمة ورعد يزجر إلى دخان أسود خارج من فوهة بركان لا يعرف منبعه يحمل دمار رماد حول منطقة الطَّواف تغطِّي جزءاً من الكعبة المشرفة، تساعد حركته رياح عاتية خانقة وأمواج ترتفع بارتفاع المآذن أعلى من ثلاثين متراً، ويتحوَّل شكل الموج إلى فم واسع يُلقِي في داخله كلَّ مَنْ عجز عن الهروب بمسافة البقاء المؤقَّت، غير متأكَّد هل ابتلعت تلك الفتحة التي تشبه الفم والده وأخويه، ولكنَّه متأكَّد أَنَّ تلك الفوهة لفظت أحد أخويه وألقته قيئاً لزجاً وعليه آثار من دم وكأنَّه خرج من رحم أمه، مما أوقفه على سماع ذلك الخليط العجيب بين الأذان والغناء، شعر بكسل غريب وتعب في عضلاته وكأنَّه خارج من حلبة للملاكمة أو من سباق لاختراق الضَّاحية، سحب قدميه بتثاقل نحو الحِمام، خلع ملابسه وفتح دُش الاستحمام، دفعَ بجسده تحت المياه المناسبة أخذ يحرِّك يديه ببطء على سائر جسمه، والشَّعور بالنَّشاط ينساب إليه شيئاً فشيئاً تَوْضاً من جنابة وسوسة شيطان أفلقه، اغتسلَ، تَوْضاً مرَّةً أخرى استعداداً لصلاة الفجر، ولكنَّ إحساسه بالقلق الذي حاول الهروب منه عزَّاه لارتكابه معصية، سمع صوت أبيه يطلب منه الاستعجال لمرافقته للحرم وهو يرتدي ملابسه ببطء،

خرج من غرفته، وجد والده وشقيقاه حمد وأحمد في انتظاره في الصَّلاة، لا يعرف لماذا طلب منهم أن يذهبوا دونه إلى الحرم! فقد قرَّر أن يصلي في المسجد القريب؛ لأنَّ وعدًا لم يضره مع وضاح للمذاكرة بعد الصَّلاة، وسوف يتناولان طعام الإفطار مع بعضهما قبل الذهاب إلى المدرسة عند بائع كبد الجمل، عذرًا لا يعرف كيف نطق به لسانه.

ركبوا المصعد مع بعضهم، تركهم واتَّجه إلى المسجد القابع في زاوية الطريق الرَّئيسي والزَّقاق، صلى ركعتي التَّحِيَّة أتبعها بركعتي السَّنة، وبين الصَّلَاتين لازمه الشَّعور الغامض بالاكْتئاب، وذلك القلق الذي يرافقه لماذا لم يرافقه إلى الحرم، وبعد الصَّلاة الثَّانية تناول المصحف بهدوء وضَمَّه، وأخذ يتلو غيبًا والمصحف في قبضته، رُفِعَ صوت الإقامة، صوت الإمام وهو يطلب منهم الاستواء والاعتدال والرَّاص والمحاذة فيه حزن، وعندما بدأ بقراءة الفاتحة وما تيسَّر من الآيات أخذت ذبذبات الصَّوت تتسلَّل إلى أذنه، وكأنَّها قادمة من قبور مهجورة وبعيدة بالرَّغم من وقوفه في الصَّفِّ الأوَّل إلَّا أنَّ نبرة الصَّوت فيها بعض من الخوف والأخطاء التي كان - وبعض المصلِّين - يجتهدون في تصحيحها، بعد الصَّلاة تفرَّس في وجوه المصلِّين وكأنَّهم أشباح أموات بعثت مرَّة أخرى لتتوب عمَّا ارتكبته من ذنوب، لا يعرف كيف انتهت صلاة فجر ذلك اليوم؛ فالقلق الذي في داخله ولا يعلم مصدره يزداد، استعادَ بالله من الشَّيطان، لم يغادر المسجد، استعادَ المصحف مرَّة أخرى قَرَّبه من صدره ناحية نبضات قلبه وأخذ يتلو سورة (يس) غيبًا، وعندما انتهى من التَّلاوة أعاد المصحف مكانه وانتعل نعليه وترك المكان، عندما خطت قدماه الخطوات الأولى خارج الجامع، بدأ خبر جماعة مسلحة احتلت الحرم وتشبَّك مع بعضٍ من قوَّات الأمن مشوشة وغير مفهومة، لكنَّها نزلت كالصَّاعقة عليه جعلته في لحظة من عدم التَّوازن وفترة من خلل الإدراك.

أصوات كأصوات البوم تنذر بالخراب أو تنعق كأصوات غراب البين
مجموعات من الرجال والشباب تجمعت تتحدث نقلًا لا علمًا بما جرى
ويجري، البعض سالت دموعه، لا يعرف لماذا؟ خوفًا! أم حزنًا!

والبعض ينتقد بحرقة لا يعلم؟ حبًا! أم تشفيًا!

يتجول بين المجاميع لا يسمع كلامًا مترابطًا، ولا يعي ما يسمع، لجم
لسانه عن السؤال، لم يفرّق الجمع إلا وصول دورية من الشرطة توزعت بين
تفريقهم وبين الدّخول بأحذيتهم إلى ساحة المسجد، ووقف البعض منها عند
بوابة المسجد للحراسة. ماذا جرى؟ وماذا سيجري؟

دخل باب العمارة، طلب المصعد، تردّد في الدّخول، خرج، أخذ يهرول
ناحية الحرم، سقطت غترته، لم يعرها اهتمامًا، قدماء تسابقان الرّيح، والده
وأخواه حمد وأحمد، رجال وشباب آخرون يهرولون كمياء جداول صغيرة
تنساب وتصب لخلق مجرى واحد، أمّا النّساء القلائل الذين تواجدوا
لأسباب مختلفة في ذلك الوقت يسحب البعض منهنّ أطفالهنّ تراهنّ يسرن
عكس التّيّار، البعض يتصادم، يقع يقوم ويستمرّ في الجري دون اعتذار،
والبعض يحاول أن يلتقط ما وقع منه، والآخر يترك ما وقع ولا ينظر خلفه
وكأنّ شياطين الأرض تلاحقه، قوّات الأمن والدّوريات تتحرّك في جميع
الاتجاهات، تراها وكأنّها تتخبّط، تحبّط الموقف والانفعالات التي انتابته
فجأة، كلّما اقتربت المسافة من الهدف المنشود زادت أعداد المتجمهرين، وزاد
اللغط والكلام غير المفهوم، وجوه مختلفة الألوان والجنسيّات والأعمار الدّعر
هو القاسم المشترك بينهم، الزّحام عند الشّوارع اللصيقة بالحرم والقرية منه
تذكّر كرمي جمرة العقبة، الأجساد تلاصق بعضها البعض دون النّظر
لفوارق سنّة أو اجتماعيّة ورائحة العرق اختلطت دون شكوى أو تذمّر،
شبابيك العماثر المطلّة على الحرم اختلطت بين قوّات الأمن وساكني العماثر

الذين بدءوا يخلون المكان للعسكر، البعض يتشمت (ليس حباً في عليّ بل كرهاً في معاوية) أو لحاجة في نفس يعقوب، الأغلب تعاون مع رجال الأمن وتطوَّع للخدمة، الأصوات القادمة عبر مكبرات الصَّوت من الجنود بالطلب من المواطنين بالتفرُّق لإتاحة الفرصة للمختصِّين بالعمل وخوفاً عليهم من إصابة رصاصة طائشة لم يزد المتطفِّلين غير إصرار بالبقاء أو التَّحرُّك خطوة نحو الأمام أو الخلف يساراً أم يميناً، لم يسلم بعض الجنود من كلام بعض المتبجِّحين: روح حارب هناك مالك وما لنا نزي الحرمة... جالس لي هنا.

- ما تشطر غير علينا.

- والله ما أحد جانبنا ورا غير العينة هادي من البشر.

عسكري ينظر بعينين مرهقتين أضناها سهرة لعبة بلوت، في الحشد ويحاول بيده منع التَّقدُّم، يسمع التَّعليقات، ولا يعيرها أيَّ اهتمام وكأنَّ هناك تعليمات أن لا احتكاك مع المواطنين، عينا حامد حارتا تلاحقان عبر المنظور غير المنظور، يحاول أن يخرق الصَّفوف مرَّة بالاستئذان ومرَّة أخرى بالنَّحيب المصطنع بحثاً عن أخيه الصَّغير الذي تاه في زحمة الحدث، فيساعده البعض بالتَّقدُّم حتَّى وجد نفسه في أقرب منطقة مسموح لمواطن عادي الاقتراب منها، شاهد حمالات المسعفين تملأ من قِبَل رجال الإسعاف وبعض المتطوِّعين إلى السيَّارات لنقلهم للمستشفيات، قلبه يرفج كما كينة سيَّارة ديزل لم تدفأ تروسها بحرارة الزيوت الباردة التي تسخن ببطء مع حركة الدَّوران، سأل أقرب عسكري عن والده وإخوانه، نظر العسكري في وجهه ببلاهة وقال: المصابون معظمهم من العسكر، داخل الحرم أمان أكثر من خارجه، اطمئن وابتعد من هنا لو سمحت شوي.

قناصة المتسلِّلين تحصَّنوا بالمأذن، أصابوا بعضاً من المواطنين وبعضاً من رجال الهلال الأحمر وبعضاً العسكر، أصوات الرِّصاص أصبحت تسمع

بوضوح، بين مَنْ تحصَّنوا في البيوت المطلَّة مباشرة على الحرم من خلال الشَّبابيك أو أسطح المنازل وبين مَنْ تحصَّنوا في المآذن أو بين أعمدة الحرم وأصوات تطالب بالعون لسحب المصابين من جرحى وقتلى، الوقت يمرّ وهو يتمايل مع الجموع يترنَّح من الإرهاق والجوع والعطش حتَّى غروب الشَّمس، لم يصل الظَّهر أو العصر، عاد إلى المنزل والهواجس تزدحم في رأسه، وعندما رنَّ جرس الباب سمع جميع مَنْ بالداخل يصرخون بين دموع الفرح والحيرة.

- وصلوا!

فتح الباب، خرجت الرُّؤوس تبحث عن باقي رجال العائلة مع سيل من الأسئلة لوجه صاحب متعب جائع وريق جاف من العطش دخل كمن يسير خلف جنازة أعزَّ مَنْ يملك في هذه الحياة، وخلفه النِّساء يلقين بالأسئلة، وعلى أوَّل أريكة ألقي بنفسه وراح يجھش في البكاء ويشتم: كلاب... سوقة... ما لقوا غير بيت الله... يروِّعون الآمنين والمصلِّين... برابرة... لو كانوا رجالاً يروحوا يحاربوا في فلسطين... همج... لو بينهم وبين الحكومة ثأر يروحوا يقاتلوهم هناك... قتلة، مجرمون في بيت الله.

بين عويل النِّساء والدَّعاء أن يلطف الله بعباده قدّمت أمّه ماء زمزم لتقلِّل من روعه، بينما هي تتحب على بعْلِها وأبنائها الآخرين بين الخوف والرَّجاء أن يحميهم الله، شرب رشفة من زَمْزَم، بلّ ريقه الطَّامئ، من بين دموعه لاحظ كثرة النِّساء والأطفال الصِّغار، وجوه حائرة من صدمة الأخبار طلب من أخته فتح جهاز التِّلِفِزيون، صَدَمَهُ الجواب... لا خبر، والمذيع... لا خبر!

قالت إحداهنَّ: إذاعة إسرائيل وإذاعة لندن العربيَّة نقلًا عن وكالة الأنباء الفرنسيَّة ووكالة رويتر قالت إنَّ هناك مسلَّحين احتلوا الحرم ولم يتأكَّد الخبر من السُّلطات أو وسائل الإعلام الرَّسميَّة السَّعوديَّة.

حامد: ما صدر بيان؟

صوت نسائي: لا.

حامد: كيف؟

... -

حامد: وزير الإعلام من أهل مكَّة ما سمع بالخبر ... معقول؟! نقل أذان العشاء من الحرم المكي الشريف مباشرة لم يصدِّق عينيه، ابتلع صرخة الفرح، انطلق نحو الباب علَّه ينتظرهم في الشَّارع، عندما قال له ابن عمِّه أنَّ هذا تسجيل مثل نقل أذان وصلاة المغرب، لم يصدِّق، لم يستوعب محاولة شرح الآخرين أنَّ ما يراه هو تسجيل لصلاة سابقة للحدث، ولا يوجد نقل مباشر، حاول أن يركِّز... أن يستوعب ماذا يجري، ماذا يريدون أن يقولوا؟ هل ما يشاهده على الشَّاشة الفضِّيَّة الصَّغيرة حقيقة؟ تضليل؟ أم أكاذيب! ولماذا نكذب؟ وعلى مَنْ؟ حرب نفسيَّة! على مَنْ؟ طرق التَّضليل وطرق التَّطبيل، وما نهاية هذه السَّبيل؟

الأذان لصلاة العشاء من المسجد المجاور جنائزيٍّ أكثر منه أمرًا بالتَّوجُّه للعبادة... صوت المؤذِّن ينتحب أكثر منه مبتهجًا كالعادة لرفع الأذان، قام بعد تناول لقمتين من طعام برد أمامه ولم يتجرَّأ أن يمدَّ يده عليه، دخل الحُمام تَوْضًا ونزل، لاحظ أنَّ درج سلام العمارة مليئة بالنَّاس وكأنَّ النَّاس تركت مساكنها وفضَّلت السَّلام في انتظار غائب قد يعود أو خبر يطمئن النَّفس وهو ينتظر المصعد، ولما وجد الجنود أمام باب المسجد عاد أدراجه، صلَّى في البيت وتبعه بعض من أخواته من الإناث وجدَّته لأمِّه وأخوه الأصغر محمَّد،

مَنْ استطاع أن ينام تلك الليلة في أمّ القرى إمّا أن يكون مريضاً أو غائباً عن الوعي.

الهاتف لا يهدأ، الاستفسار عن الغائبين لا ينقطع حتّى يتّصل مرّة أخرى حضر عمّه وأبناؤه، خاله وأبناؤه، أبناء خالته أبناء عمّته، امتلاً الصّالون، كيف يبرّر وهو لا يعرف لماذا لم يذهب مع والده وأخويه إلى الحرم، هل يستمرّ في كذبة (وعد وضّاح) لكنّ "عدنان" يعرف "وضّاح"، وقد ينكشف أمره بأنّه يكذب، الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة: لقيت نفسي متضايق... فضّلت الصّلاة في المسجد القريب... اعتذرت للوالد إنّّي مواعد صديقي وضّاح عشان نذاكر سوا... تعرفه يا عدنان (بيكي) يا ليت رحت معاهم.

الحال: كلّ خطوة بقدر... سبحانه.

العمّ: وبعدين.

حامد: بعد صلاة الفجر، الضّيقة ما رضيت تروح من صدري، قلت أقرأ سورة ياسين، بعد ما خلصت سبت المسجد وفي الشّارع سمعت النّاس تتكلّم عن مسلّحين... أسلحة... دخلوا الحرم... المصلّين رهائن... كلام كدا ما هو تمام، ومع الوقت تكثر المجموعات ويكثر الكلام، لكن لما جات الدّوريّة وفتّشت المسجد وفرّقتنا حسّيت زي ما تقول كدا إنّ العمليّة ما هي إشاعة... بغيت أطلع البيت ما قدرت، قلت لنفسي يا واد أبوك وإخوانك في الحرم اجري روح شوفهم... وفرفيره جريت على ناحية الحرم، لقيت النّاس تجري... سألت عسكري عنهم قال: أكثر الجرحى والقُتل من الجنود والمواطنين ورجال الإسعاف وحقون الهلال الأحمر اللي خارج الحرم، ويقول وكلامه طمّني بعض الشّيء إنّ اللي في داخل الحرم أكثر أمان.

العمّ: وكيف عرف العسكري إنّ جوا الحرم أمان والمسلّحين والرّهاين
جوا الحرم ها... كيف؟

حامد: ما أعرف بس أكيد عنده خبر.

العمّ: والله يا خوفي المجانين دول يذبّحوا الرّهاين.

حامد: مين قال إنّهم رهاين؟

العمّ: أنت قلت.

حامد: لا أنا ما جبت سيرة رهاين.

العمّ: أجل إيش تسمّي المصلّين الي زي حكاية أبوك وإخوانك؟

حامد: ما أعرف بس ما يصح نقول عنهم رهاين الين واحد من المعتدين
يقول عشان يفاوض على أرواحهم.

العمّ: يا سيدي!

الخال: فال الله ولا فالك يا بو حميد قول خير... لا تخوف الجماعة.

العمّ: اللهمّ اجعله خيرًا... من فين جونا دول... مين هتّا؟

حامد: سمعت ناس تقول واحد بدوي اسمه جهيمان.

العمّ: واحد بس... مو معقول دول... لازم يكونوا جيش يا بويّا بلا
كلام فاضي الحرم كبير.

حامد: ناس تقول معاه المهدي.

العمّ: مهدي إيه الله لا يهديهم ولا يصلحهم حسبي الله عليهم زلزلونا.

الخال: قصّة المهدي هادي قصّة.

حامد: هو كلّ واحد يقول أنا المهدي نصدّقه.

الخال: لا واليوم أوّل يوم في القرن الجديد.

حامد: مين قال؟ السنّة هادي آخر سنة في القرن حتّى طلّعوا حمير في

الحساب... يا الله عليكم خير السنّة الجاية بداية القرن إذا ربّنا أحيانا.

الخال: ولسّه في مهدي السّنة الجاية كمان صلّوا بنا على التّبي .
اليوم التّالي كسابقه برامج التّلفزيون والإذاعة برامج عاديّة وأصوات الرّصاص والقنابل اليدويّة يسمّعها القريبون من المنطقة، ويحسّ فيها سكان مكّة كلّهم، الإعلام في وادي والحدث العظيم في البيت العظيم في وادٍ غير ذي سمع، هس لا حس ولا خبر وكأنّ مكّة قرية صغيرة في بلاد (واق - واق)، ذهب مع عمه وخاله للهلال الأحمر، اعتذروا عن وجود أيّ معلومات، قاموا بعملية تمّشيط لجميع المستشفيات والمراكز الطبيّة ومراكز الشّروط دون جدوى .

العمّ: ما في خبر... خبر طيب مو كده يقولوا الانجليز نو نيوز قوود نيوز .
حامد: الله يجيب العواقب سليمة .

النّسوة على نار الانتظار، الإشاعات تتكاثر، أكثر من خمسة عشر يومًا مرّت وكأنّها شهور، العيون تراقب الشّاشة والمذيع المشهور بلون بشرته السّمراء الدّاكنة وصوته الجهوري ذو الخنافة المميّزة حسين نجار وجهيمان بعد أن ألقي القبض عليه .

انتهت المحنة... اتّصل بعمّه وبدأت رحلة البحث عن المفقودين، قُتل والده برصاصة في الرّأس سقط على أثرها صريعًا، أمّا أخوه أحمد الصّغير فرصاصة في القلب والأخرى في الرّئة لا يعرف مَن قتلهم؟ الجنود أم المسلّحون؟ أمّا حمد فقد قدّ الكلام بعد أن أصيب بصدمة ما جرى حوله ومن جرّاء حمّى وجفاف وضعف بدنيّ عام بسبب تعرّضه طوال مدّة الحدث للجوع والعطش والرّعب من صوت الرّصاص ورائحة الموت التي ضربت أوتادها في بيت الله، ملقّى في ساحة الحرم، تساءل: أيّ دين هذا؟

(المصيبة: تسير عكس نوااميس الحياة تبدأ كبيرة وتصغر) حكمة الباري في توازن الأمور، خرج حمد من المستشفى دون علاج ولا يزال الدّهول رفيق

دربه والخوف من الظلام والأصوات والناس، خاصّة الرجال وأصحاب
اللحي بالتّحديد، أحضروا له سيّد يقرأ عليه، ذهب النّقود والقراءة دون
فائدة، أطباء نفسيّون وغير نفسيّين لا فائدة.

بعد الأربعين من دفن والده وأخيه حضر العمّ وأزواج البنتين الكبيرتين
إلى المنزل وبحضور جدّته لأبيه طالبوا بتوزيع الورثة، تمّ ذلك تحت إشراف
كاتب عدل عيّنته المحكمة الكبرى، حصرت جميع الأملاك المنقولة وغير
المنقولة حتّى السّاعة الرّولكس وخاتم الفيروز تمّ تمينه، واحتفظ هو بها
ذكرى لوالده تقطع من نصيبه في الإرث من مات قبل الآخر الأب أم الابن
الذي مات معه؟ كيف يتمّ إثبات ذلك؟ عدا العمارة يُباع باقي الإرث بعد أن
ينتهي عقد الشّراكة حسب المادّة السّابعة من العقد التي تنصّ على (في حالة
وفاة الطّرف الأوّل وهو المالك للأرض يلزم الورثة بالعقد حتّى نهايته، وتطلّ
قسمة دخل العمارة توزّع كما هي في المادّة الثّانية من العقد) هذه الأحداث
غيّرت من مجرى حياة حامد، وإنّ ظهر للعيان أنّ حياته عادت إلى وتيرتها، إلّا
أنّ مفاهيم كثيرة تغيّرت لديه فالثّقة أصابها نوع من الخلل، الحذر من النّاس
وأقرب النّاس، الشّكّ في معظم المعتقدات المذهبيّة، فوالده على المذهب
الشّافعيّ وأمه على المذهب الشّيعيّ لأنّ أصلها من إيران، وهو يدرس مذهب
الإمام أحمد بن حنبل في مقاعد الدّراسة، عاد إلى المدرسة، علاقته بوضاح
زادت فأصبح خليفه الذي لا يفارقه إلّا في النّوم بالرّغم من أنّ هذه العلاقة
تعرّضت للغمز واللمز في مجتمع ذكوريّ، إلّا أنّهما زادا قرباً ومحبة وثقة في
بعضهما البعض.

بعد أن حصلوا على الثّانويّة العامّة سافرا إلى العاصمة والتحقا بكلّيّة
الهندسة، كانا بارزين، ملتزمين، مواظبين على أداء الصّلاة في المسجد القريب
من سكنهم، وبقصد أو دون قصد وجدا أنفسهما مع مجموعة بدأت تستقطب

شبابًا من جميع أنحاء المملكة بأسماء حركيّة فاختر لقب أبو سفيان المكي، أمّا كنية وضاح (نور الدين) تدربًا على السلاح، والقتال، تعلّم الخطابة والتأثير على المستمعين قرأ في السياسة، تعلّم على أجهزة استراق السمع (التصنّت)، سافرا إلى بعض الدول الشيوعيّة في أوروبا الشرقيّة تعلّم دروسًا في أصول المخابرات والتجسس، تعلّم اللغة الإنجليزيّة فأثقتها أفضل من صاحبه، بعد خمس سنوات أمضيها بين الجامعة والتدريب والتثقيف بجدّ واجتهاد حدّد أهدافها مع المجموعة وتعهدا أن يصبح لكلّ منهما خلاياه التي يكوّنها بعيدًا عن الآخر، استفاد من علاقة خاله بإيران وعلاقة والده السّابقة ببعض التّجار الإيرانيين، طلب من خاله الذي يحبه كثيرًا ويثق فيه أن لا يذكر لأحد أنّه سوف يغادر إلى طهران لتعلّم اللغة الفارسيّة التي كان شغوفًا بها ويدّعي أنّه ذاهب إلى قرية صغيرة في اسكتلندا لدراسة اللغة الإنجليزيّة، وقد يلتحق ببرنامج لدراسة الماجستير هناك، وهي التي حصل عليها عن طريق شراء شهادتها من أحد الجامعات الأمريكيّة، وعلّقها على الحائط لمن يرغب في رؤية أوراق مزخرفة ومعلّقة على الجدار، في هذه المرحلة يجب عليه أن يفترق عن وضاح الصّديق الذي لم يفارقه منذ التقيا في الصّفّ الأوّل الثّانوي.

إنّ أسوأ ما في هذه الأعمال أنّها تستغرق قدرًا كبيرًا من الوقت، فرسم خريطة الطّريق التي توصله إلى مقصده بأمان وهي ليست سهلة خاصّة في طرق التّيه في تلك المنطقة من العالم، فالحرب بين العراق وإيران تطحن في المسلمين دون مبرّر واضح لأمثاله، والحرب طاحنة باستخدام الآلة الأمريكيّة بالأموال الإسلاميّة والعربيّة والخليجيّة والمقاتلين الأفغان من جهة والرّوس ومؤيديهم من الأفغان على الأراضي الأفغانيّة من الجهة الأخرى مما يجعل عملية تسلّله إلى داخل الأراضي الإيرانيّة محفوفة بالمخاطر، أمّا دخوله بجواز سعوديّ في ذلك الوقت لما فيه من صعوبة لموقف بلاده من الحرب العراقيّة

الإيرانيّة ليس من قبل السّلاطات الإيرانيّة فحسب، بل سيجعل السّلاطات نفسها تراقب جميع حرّكاته بعد ذلك، هذا إذا لم تستضفه في أحد معتقلاتها وتبدأ في استجوابه! وهل تعلم اللغة الفارسيّة مبرّر كافٍ للذهاب في هذا الوقت؟

ذهب إلى (كندهار) ولم تكن المرّة الأولى التي يرى فيها المدينة فقد سبق أن زارها مع والده وهو في الرّابعة عشرة من عمره للتّجارة والنّزهة، ومن هناك إلى منطقة حدوديّة بين باكستان وأفغانستان وإيران قريبة من (زاهدان) التي تزوّدوا منها، تسلّل إلى داخل إيران بجواز وزبي بلوشي على ظهر دابة يرافقه اثنان واحد منهما دليله والآخر لحراسته وخدمته، كانت الخطّة أن يصلّا حتّى (الأهواز) لكنّها تغيّرت في آخر لحظة لأسباب أمنيّة، مما يعني مفاوضات جديدة مع الدّليل والحارس تستهلك بعضًا من احتياط النّقد للرّحلة، استمرّت رحلتهم الشّاقّة بين الجبال والأودية والمروء على الأطراف الشّرقية قاصدين (مشهد، كاتشان، جورجان، ساري، آمل ثمّ طهران عن طريق الشّمال) عن طرق بعيدة عن الأعين وتمرّ على بعض القرى يذهب خلالها الدّليل للتزوّد بالمأكل والمشرب قرابة الشّهر، شاهد خلالها بساتين من النّخيل المتكاثر في الجنوب يقلّ كلّما اتجهت شمالاً.

لاحظ أنّ الحالة الاقتصاديّة بسبب الثّورة ومن ثمّ الحرب والحصار في السّنوات الأخيرة شجّعت الكثير على ركوب الدّواب من حمير وخيل، وفي أحيان الجمال للتّنقل بين الرّيف الإيراني، وإن كانت بعض الحافلات تأتي لنقل الحجاج في أوقات الحجّ الصّغير (العمره) أو الحجّ الكبير، إنّ القاسم المشترك للمساكن في مثل هذه الممتلكات النّائية هو البساطة وبنائها بجوار جدول للرّيّ أو حوض ضخم، يسهر الذّكور منهم حوله يتحدّثون في السياسة والظّروف الاقتصاديّة والحرب، ولكنّها تكفي المسافر مشقّة

وخطورة النّوم في العراء، تصادفك في سيرك نحو الشّمال أشجار الفستق والبندق واللوز والمشمش والعنب والخوخ والورد والياسمين الذي يبلغ في ارتفاعه الأشجار الأخرى والحناء التي تستخدم للزّينة، أمّا الطّيور فالبلبل أو (النّغري) فتسمع تغريده الجميل في معظم الأوقات مع طائر الوروار.

وأثناء مرورك تلاحظ بعض الصّبية يضعون المصايد للحجل الجبليّ والبيغاء بألوانه الزّاهية أمّا الغراب والحدأة والقبرة وطيور أخرى تعيش على البذور خاصّة القمح فإنّها معروفة بكثرة في هذه المناطق وفي بعض المناطق الأخرى، والطّريق يأخذك بين سفوح الجبال والأودية تحسّ أنّ هذا البساط الأخضر الجميل الملقى دون عناء على الأرض يحتاج إلى فنان! شاعرًا كان أم رسّامًا ليستطيع أن ينقل صورة واقعيّة لجمال الطّبيعة السّاحر لا لشخص متسلّل مثل حامد العابد حدّد هدفه لتحقيق مجهول لا يعلم إلّا الواحد العليم إلى أيّ مدى سيصل في طريقه الشّائك، سالك الدّروب الوعرة في حياة تتغنّى بالجمال وتنبض بالحبّ والعطاء؛ فالمطر المتساقط على رحم الأرض المترامي يلاحق بذورًا عطشى مع رياح لواقح ليكون التّزاوج وتشقّق الأرض مخرجة حمل بطنها نباتًا يخضّر عندما تلفحه حرارة شمس حانية، وقبل دخولهم طهران بعث الدّليل إلى قريبه من ناحية والدته ليلغيه عن مكانه، كان القريب قلقًا فقد تأخّر وصوله، وعندما التقيا حضنه وكأنّه يعرفه من زمن واصطحبه معه، لم يضع الوقت فيكفي ما ضاع منه، أثناء تعلّمه اللغة درس المذهب الشّيعي، الثّورة الإسلاميّة في إيران، أطماع بعض السّاسة الإيرانيّون من بناء الخلافة الإسلاميّة الإيرانيّة والسيطرة على العالم الإسلامي؛ لأنّ الفرس الوحيدين الذين لم تكن لهم سلطة مباشرة أو بالأصحّ لم يسجّل لهم التّاريخ دولة إسلاميّة باسمهم، كالعرب والمغول والأتراك العثمانيين حتّى

الماليك كانت لهم دولة وسلطان، وإن لم يتحدث أحد رسمياً بذلك، ولكن (خيوط الفجر تفضح قدومه).

قد تكون حرب العراق مع إيران حرباً وقائية للعرب من التوسع الفارسي وهي أحد أسباب نشوب الحرب غير المعلنة، وإن أعلن الخوف من تصدير الثورة الإسلامية كإشاعة سرت كما يسري الذهب في كومة من القش، فالعالم العربي لا يحتاج إلى مزيد من التشدد الديني، ولا يحتاج من يعلمه أصول الدين، ولن ينخدع بعمامة ملا أو عباءة فقيه أو لحية متطوع وإن أظهر خضوعه لعصا حاكم جائر في بعض الأقطار، فلا يعني أن يغير من معتقداته التي توارثها، فالسنة في بعض الدول على سبيل المثال يكفرون الشيعة وبعض المذاهب السنية الأخرى ومنها الصوفية في المقررات المدرسية في الصباح خضوعاً، ولكن أبناء تلك المذاهب يمارسون ما يؤمنون ويتندرون على ما يفعلون مساء اليوم نفسه، فهذه المعلومة لا تتعدى الأذان تلقى على ورقة الامتحان دونما إيمان، وكذلك يفعل بعض الشيعة.

عرفه قريبه على مجموعة من الشباب الإيراني المثقف من الجنسين وأساتذة في تعليم اللغة الفارسية لغير الناطقين بالفارسية، وجد صعوبة في بادئ الأمر ساعده إيمانه بأن الخطوات الأولى هي مفتاح النجاح، والصبر والمثابرة هما الزاد لبلوغ المراد، بعد عام كامل لا يقرأ إلا "فارسي" ولا يسمع إلا "فارسي" ولا يكتب إلا "فارسي" ولا يلبس إلا "فارسي" ولا يأكل إلا "فارسي"، يصعب أن تقول عنه أن جذوره من غرب الجزيرة العربية من مكة فقد تشرب حتى عاداتهم في الجلوس والقيام.

طهران تأثرت بالبريطانيين، الشوارع، المنازل، زار قصر الشاة، الأب والابن حتى ملابس الشاه المخلوع بقيت كما هي، وكذلك ملابس زوجته فرح صور للملوك ورؤساء الدول الذين استضافهم إبان حكمه لفت نظره

صورة للملك حسين ملك الأردن وهو بالزّي العسكري وأخرى للملك فاروق وثالثة لإليزابيث ملكة بريطانيا، هنا يجتمع مع الملوك والرؤساء لالتقاط بعض الصّور التي تُدّاع في نشرات الأخبار الرئيّة، غرفة الطّعام، هنا ينام القيلولة، هناك تنام زوجته والحريم، لاحظ أنّ أعين المرشدين تتعقّب المتخلّفين من السيّاح الذين تشدّهم بعض الأشياء الصّغيرة مثل نيشان مرصّع بعدد غير قليل من أحجار الألماس الكبيرة الحجم، السّؤال من يستطيع أن يؤكّد أنّ هذه الأحجار هي بالفعل أحجار من الألماس؟ ألا يستطيع أحد تغيير هذه الأحجار بأحجار من الرّيز الأبيض أو ألماس من الدّرجات الأقلّ قيمة! من يهتمّ بهذا؟ غير مجموعة من المغامرين في فيلم أمريكيّ.

زار بعد ذلك منزل (الخميني)، مسجده، شرفة صغيرة من منزله الصّغير تطلّ على المسجد الصّغير الواقع في زقاق ضيّق تظهر للعالم على الشّاشة الصّغيرة أنّ ثلاثين مليون إيراني مؤمنون بما آمن الخميني، التّضليل الإعلامي وتأثيره في الشّعوب، فتزاحم بعض مئات من المؤيدين في هذه الأزقة الضيّقة وامتلاء المسجد بالمقرّبين وحديث الكاميرا يظنّ المتلقّي أنّ العالم كلّ وقف خلف الزّعيم أيّا كان، الحكمة التي غيّرت بعضاً من مجرى حياته كيف أنّ رجلاً ينطلق من هذا المنزل الصّغير لا يملك غير إيمانه وإيمان من آمن معه ليسقط رجلٌ من قصره العظيم وجيش جرّار، أهى الإرادة أم أمر الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون ﴿تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزُ مَن تَشَاءُ وَتَذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١١﴾ أم الاثنان معاً؟ ولكن وبصفة عامّة في الطّرف الآخر من الصّورة أعجبه أنّ الإيرانيين يصنعون كلّ شيء تقريباً، السيّارات، قطع

الغيار، والأدوية حتّى معجون الأسنان وبأسعار لا تصدّق (الحصار يعلم الشّطار).

عاد إلى كندهار وإن انحرفت طرق العودة عن الطّرق التي سلك، واختصرت الكثير من مسافات الخوف والوقت إلّا أنّه اكتسب من هذه الرحلة أكثر من اللغة الفارسيّة وبعض الكتب التي أصرّ على مرافقتها، زادته جرأة في المغامرة، وجسارة في ركوب الأخطار، علّمته أن لا تقف فعجلة الحضارة تسابق الزّمن، وآمن بنظريّة (الثبات تخلف) لأنّ عواصف التّغيير لا ترحم، والبطء الشّديد مثل السرعة المتهوّرة لكلّ ضحاياه، (وحدّهم الذين يقومون بالمجازفة يمكنهم اكتشاف إلى أيّ مدى ممكن أن يبلغوا).

لكلّ شيء ثمن؛ لذا فإنّ لكلّ فعل ليس ردة فعل فقط بل ترافقه فاتورة على شخص ما أن يدفعها في نهاية المطاف، سواء كان الدّفع نقدًا أو مقابل التّنازل عن عوض ما، فالإنسان باختراعه للسيّارات والقطارات والطّائرات قلّص مسافات الخطر والزّمن في مقابل أن يحرّم نفسه من رؤية جمال الطبيعة التي لن يحسّ أو يستمتع بسحرها إلّا من سار على الأقدام أو على ظهر دابّة تمشي الهوينى كما يمشي الوشي الوحل.

غادرَ إلى كراتشي مارًا بدبي في طريقه قاصدًا جدّة، لبس ملابس الإحرام في الطّائرة ناويًا العمرة، تفحصه عسكري الجوازات وتفحص الجواز بحثًا عن ختم المغادرة، لحظات ولكنها كادت أن تربكه خاصّة أنّ العسكري ترك مكانه ودخل إلى مكتب الضّابط المسؤول بعد أن ترك جوازه دون ختم، وبعد أن عاد إلى مكانه مرّة أخرى اعتذر عن التّأخير ولم يبرّر، وفحص الجواز مرّة أخرى، ولما وجد كلمة مغادرة ختم بجوارها قدوم.

كان في استقباله صديقه وضاح الذي فوجئ بحضوره، وعلم فيما بعد أنّ خاله (عبّاس) أعلمه بموعد وصول الرّحلة، فطلب من وضاح أن يفاجئه باستقباله في المطار.

في الطّريق إلى مكّة كان التعب قد أخذ منه الشّيء الكثير، وكان يمينيّ النّفس بالنّوم أثناء قيادة خاله للسيّارة، أما وأنّ "وضاح" هو الذي خلف المقود فلا بدّ أن يتحامل على نفسه ولا بدّ من الحديث.

وضاح: الحمد لله على السّلامة.

حامد: الله يسلمك.

وضاح: من غاب غيبتك.

حامد: صدّقني مشتاق.

وضاح: وأنا أكثر يا مال الغنيمة بس لا تضع المهرج في الغوش.

حامد: أكثر من سنة.

وضاح: إي بالله خمس تعش شهر تقريباً... عسى ما تعبت.

حامد: لا ندمت... التعب مثل المعاناة ما نعرف هي من الذّات ولا

خارجيّة.

وضاح: تعب عن تعب يفرق ومعاناة عن معاناة تفرق!

حامد: معاناة الكبير كبيرة.

وضاح: كلّ واحد على قد ناره يغلي.

حامد: صدّقني تعب الغربة تعب للنّفس، العزاء الوحيد إن الواحد تعلّم

أمورًا لا يمكن يتعرّف عليها.

وضاح: قص.

حامد: خص وأنا أقص.

وضاح: هلها من أولها لتالها.

حامد: من جدّة لدبي لكراتشي لإسلام أباد لکندهار لپهران لکندهار
لکرا... .

قاطعه وضاح: شڪلك ما تجي بالطّيب هات العلوم السّنة.

حامد: زي؟

وضاح: اسمع إذا ما قلت بالطّيب راح أسلّمك لنقطة التّفّيش أكيد
معك كم من كتاب على أوراق مزوّرة وشف حلني.

حامد: ماسكني من يدي اللي تعور يا ابن الدّيه.

وضاح: قل بالطّيب... يا طيّيب في دبي مثلاً وين نمت؟ مع من؟ وين
سهرت؟ إيش لاحظت؟ كذا!

حامد: أنت صاحبي ولا مرقي وين نمت في فندق مع من ما هو شغلک
وين سهرت... سكرت وجي أستغفر وأتوب خلاص انبسط يا مليييح،
أنت قل لي كيف الدّورة في کندا.

وضاح: والله کندا حلوة ودي نروح سوا شلالات نياجرا... يا هي جنة.

حامد: واللحم؟!

وضاح: اللحم الأبيض المتوسط؟

حامد: في غيره يا أخو بدوه!

وضاح: والله أخوك عنز بدو طاحت في موریس بس مثلت العرب خير
تمثيل.

حامد: صدق ولا...؟

وضاح:

سل الغواني والغانيات

وساحة رقص وأغنيات

يقولون عنتره كان هنا

يضاجع بنات ومطلقات
 يداعب هاذي ويحضن تلك
 ويسكر من ضحكة العازبات
 يمصمص هاذي ويلحس تلك
 وتلحس (.....) العاهرات
 ضحك حامد من قلبه وقال: عجبنى البيت هذا عيده
 وضاح: عجبك اللحس ولا... (وأكمل)
 جاء بريء يطلب علمًا
 فأمسى لا يعرف الصلوات
 ترك البخاري والحنبلي
 إمامه صاحب رباعيات
 نديمه فودكا روسية
 وحنا الماشي زد منه هات.
 ضحكا حتى دمعت عيناهما، قال حامد: خسئت يا ماجن.
 وضاح: ماجن عبد الله (وضحكا)... لا تقول إنك يوسف عليه السلام.
 حامد: لا بس ما أحد لحس مكوتي (وضحك)... اترك من جنبها.
 استغفر ربّه وهو يقترب من ناحية الغزة متّجهاً إلى الحرم.
 قال وضاح: أحتريك؟
 حامد: لا... شكرًا بس وصل الأغراض لو سمحت عند الوالدة وقُلْ لها
 إني في الحرم ونتقابل بكرة إن شاء الله.
 وضاح: بس توعدني تحكيني بالتفصيل المملّ.
 إعادة اسم تجاري في السوق مرّة أخرى يحتاج إلى وقت وجهد ومال
 وعلاقات يجب أن يُعاد ترميمها وأخرى بناءها لإعادة ثقة التجّار والموزعين،

وكذلك اختيار الموقع المناسب والعمّال والنّظام الذي سيُدار العمل بواسطته بعد الثّورة الإداريّة التي بدأت تتجّاح العالم وهي الإدارة الإلكترونيّة، ولكنّ التّجارة هي الوحيدة التي تبني السّتار الحديديّ العازل والواجهة التي يمكن العمل من خلفها وتحريك الأموال عن طريقها، وهكذا بنيت الهيكلّة الرّئيسيّة للتّنظيم تخدم التّجارة وتعمل في الخفاء لخدمة أعمال وأهداف سرّيّة.

بعد أن حدّد خارطة الطّريق التي سيمضي من خلالها حياته، ووضع الخطط التّنفذيّة والمرحليّة للعمل على ضوءها بمشاركة وضاح تعاهدا أمام الملتزم عند باب الكعبة وهما في ملابس الإحرام، يحمل كلّ منهما قطعة قمّاش تمثّل الكفن ومصحفًا على المضي فيما عزم عليه، ولا تراجع حتّى الموت على أن يعمل كلّ منهما منفصلاً عن الآخر، وأن يكون الاتصال بينهما عن طريق الشّفرة والاجتماع في الضّرورة القصوى، أمّا الأموال التي يجمعها وضاح فننقل عن طريق التّجار لتطهيرها في أموال الشّركة، أمّا غير ذلك فلكلّ منهما عمل وأجندة يجب أن ينجزها بأفضل الطّرق على ألاّ يعرف أحدٌ من مجموعة الآخر، وأن تقدّم الأسماء بالكامل لمنسّق البيانات فإذا تكرّر اسم شخص في المجموعتين يبعد من التّنظيم ويراقب والمسئول المباشر عن ذلك هو وضاح، وله كامل الصّلاحيّة لتقصّي الأخبار عن جميع المنتمين للشّبكة أو الجمعيّة أو التّنظيم سمّه ما شئت، ودعا بعضهم على أن يمضي كلّ في عمله لتحقيق المراد حسب ما هو متفق عليه.

الخلايا البشريّة العنقوديّة تشبه في تكوينها وعملها وانتشارها مرض السّرطان (الخبيث) هناك مجموعات منها تتكاثر تكاثراً أسرع من أنواع أخرى من هذا المرض وكذلك في فاعليّة الانتشار، واحتلال أكبر مساحة ممكنة في أقلّ وقت ممكن بأقلّ تكلفة، وذلك باستخدام أقصر مسافة أو طرق، وهذا التّوع يتشر لضعف مناعة الدّولة في مناطق معيّنة وليس القصد

هنا المساحات الجغرافية، بل هناك مناطق أخرى يمكن احتلالها من خلال التفوذ والسيطرة في مؤسسات المجتمع، وهنا تكمن الخطورة على الحكومة وبعض أفراد المجتمع، المتنفذ الأكثر أو الأكبر من هذا النظام أو ذاك، ويشبه ذلك المريض الذي داهمه المرض في غفلة من المناعة الذاتية خاصة إذا سيطر على الغدد، أمّا إذا وصل إلى الدّم أو العظام فهي النهاية لا محالة، وبالتالي يكون القضاء المبرم على المريض في أعلى احتمالاته، وبعضها بطيء التكاثر، ولكن إذا تمكّن فهو فتاك ومن الصعوبة القضاء عليه، وبين هذا وذاك هناك عدّة مجموعات تتراوح درجة خطورتها وسرعة انتشارها على عدّة عوامل منها مقاومة جسم المريض أو بالأصح المنطقة من الجسم التي بدأ الزرع فيها، فإذا كانت المنطقة مؤهلة للتكاثر بنوع أو عدّة نوعيات أخرى من هذا المرض، وهو صعب الكشف عنه؛ ولذا سُمّي بالخبيث، والكشف عن بعض خلاياه إمّا عن طريق الصدفة أو عن طريق خطأ من أحد الخلايا بالعمل الفردي في مغامرة دون التّحسّب للعواقب، وكذلك الحال في المجموعات البشرية من الخلايا، والغريب أنّ النّوعين من هذه الخلايا يتحرّك وينشأ إذا كان هناك خلل وظيفي سواء كان في المجتمع غير المنظّم أو غير كامل التّنظيم أو في جسد الإنسان، وقد قال الله في كتابه العزيز: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ .

رحلاته إلى باكستان وأفغانستان وروابطه ببعض التّجار والشّخصيات توطّدت، ترك لذهنه العنان وإن كان يعتني بتهذيبها، قصّر ثوبه نوعاً ما حتّى الكاحل، ساعده حفظه للقرآن أن يتقرّب من عدّة جماعات إسلاميّة، وكذلك فعل صديقه وصّاح الذي عرّف حامد على بعض الشيوخ، ومنهم الشيخ شدّاد الذي داوم على سماع مناقشاته يوم الأحد والثلاثاء والخميس من كلّ أسبوع، حيث يحاضر الشيخ أيّام السّبت والاثنين والأربعاء في جدّة، وفي

إحدى الحلقات سمع طرف حوار بين الشيخ وأحدهم، قال الأول: وكأنَّ التاريخ يُعيد نفسه.

الشيخ: كيف؟

الرَّجل: وكأنَّ هذه المقولة تفرض نفسها بأنَّها صحيحة في الغالب الأعم، فالعناصر الثلاثة الأهم التي أدَّى تفاعلها مع بعضها (وليس عنصراً منفرداً منها) إلى حدوث اضطراب في البناء التشريعي للدولة العثمانية وتفككها، ثم سقوطها كأنَّها تعود مرَّة أخرى للأقطار الإسلامية.

الشيخ: وما هي تلك العناصر؟

الرَّجل: هي أولاً جمود الوضع التشريعي، وثانياً الصَّحوة الاجتماعيَّة والسياسيَّة، وثالثاً التدخُّل الأجنبي.

الشيخ بمضض وهو ينظر في أعين المريدن: والمعنى لهذه العناصر؟

الرَّجل: أولاً لو تحدَّثنا بصراحة عن جمود الوضع التشريعي الآخذ من الكتاب والسنة ولا أقصد هنا بجمود الشريعة نفسها، بل جمود الاجتهاد في الأحكام رغم تغيُّر الزَّمن، هو الذي أدَّى في محاولة التَّطبيق إلى انفصام الحادث بين نصوص جامدة وبين واقع بعيد عنها لا يستطيع أن يعبرَ عنها أو يجاريها واقع مصاغ في هياكله وعلاقاته ومؤسَّساته على نحو يتقبَّل النصَّ الشرعي.

الشيخ: وهل تطعن في النصوص الشرعيَّة؟

الرَّجل: ساحك الله يا فضيلة الشيخ، فأنا لا أطعن ولكن أريد أن أوضح الموقف فقط، فلو سمح صدر ساحتكم وتركني أكمل علَّنا نصل جميعاً لما يحبه الله ويرضاه لنا كمسلمين.

الشيخ وقد بدا وكأنَّه لا يريد أن يناقش: أناقش النصوص التشريعيَّة؟!

لا اجتهاد في نصَّ يا رجل!

نحن مسلمون نسلم الأمر لله كما هو دون نقاش أو كلام.
لم يعجب حامد ردّ الشيخ، ولكن أثر أن لا يتّهم بأنّه من أهل الكلام وتظاهر بالانصراف بعد أن غمز المحاور على أن يتبعه، ترك المسجد وتواري في أحد الأزقة الضيّقة يراقب المنصرفين حتّى لمح المحاور وتبعه ولما اطمئن أن ليس هناك من يراقب اقترب من الرجل، ودعاه إلى منزله لتكملة الحديث، فهو يحبّ الحوار والنقاش البناء الذي يبنى على أسس من احترام العقل، واتصل بوضاح يبلغه أن ينضمّ لهذه الندوة، وكذلك فعل مع بعض المقرّبين ولم تمض دقائق حتّى كانت هناك ندوة خاصّة في زاوية من زوايا منزله، قدّم حامد لضيّفه أسماء جميع الإخوان الذين حضروا، كما قدّم الضيف نفسه قائلاً: أنا أبو عبد الرحمن.

قام حامد بعد أن تعرّف على اسمه، وأعطى فكرة عن موضوع الحوار الذي ألغاه الشيخ شدّاد، وأنّ "أبو عبد الرحمن" لديه موضوع غاية في الأهميّة لمناقشته والاستماع ومبارزة الحجّة بالحجّة وهو العناصر الثلاثة التي ساعدت في سقوط السّلطنة العثمانيّة وانهيار آخر امبراطوريّات الإسلام، ارتاح الشيخ "أبو عبد الرحمن" فهؤلاء الشّباب يدلّ مظهرهم على تمسّكهم بدينهم وحرصهم على التزوّد بما هو مفيد ويزيد من ثقافتهم وعلمهم، وبالتالي فسوف يفيد ويستفيد وهذا هو المراد، قال: نعم وهذه العناصر الثلاثة هي جمود الوضع التشريعيّ، وثانيًا الصّحوة الاجتماعيّة والسّياسيّة، وثالثًا التّدخل الأجنبيّ، ولو بدأنا في جمود الوضع التشريعيّ الآخذ من الكتاب والسّنّة وليس جمود الشّريعة نفسها، بل جمود الاجتهاد في الأحكام رغم تغيّر الزّمن، ممّا أدّى في محاولة التّطبيق إلى انفصام الحادث بين نصوص جامدة وبين واقع بعيد عنها لا يستطيع أن يعبر عنها أو يجارها واقع مصاغ في هياكله وعلاقاته ومؤسّساته على نحو يتقبّل النّصّ الشرعيّ.

وضاح: وما أهم مظاهر الجمود؟

أبو عبد الرحمن: نجد أن مظاهر هذا الجمود تبدأ في شكليات المناقشات، فهي تُبنى على أسس لفظية أكثر من بنائها على أسس علمية موضوعية، ثانيًا نجد أن من مظاهرها تقدس آراء وفهم الفقهاء السابقين والسمو بتلك الآراء عن النقد علمًا بأن الفقهاء السابقين فهموا النص وأبدوا رأيهم في ذلك الوقت وبناءً على المعطيات الموجودة في أزمانهم ولمجتمعاتهم وثقافات تلك المجتمعات، ومن مظاهر الجمود هو عدم الاكتراث بما يظهر من آراء جديدة، بل نقل القديم كما هو مما أدى إلى ظهور التعصب المذهبي الشديد، وبالتالي تغلبت فكرة تحريم وتكفير غير مذهب من المذاهب الأربعة لأهل السنة وكذلك فعلت بعض المذاهب الأخرى كردة فعل، مما أدى إلى الاشتغال بالحيل للتخلص من الحكم الشرعي.

قال حامد معلقًا ومستفسرًا في الوقت نفسه: لقد قرأت لأنور الجندي في كتابه اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار: التخلّف الذي عانى منه الفكر الإسلامي من طغيان عنصر - الجبرية على العقل، وطغيان مذهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد على الوجدان، ويعني ذلك التسليم الكامل بالواقع؛ مما أدى إلى انسحاب الفرد من المجتمع (نحن اليوم لا نجد جامعًا يجمع بين سكان العمارة الواحدة، وليس بين الشعب بل سلطة مركزية وأفراد متناثرين) مما أسقط الإرادة البشرية.

قال فايز وهو أحد الحاضرين: إن صعوبة الرجوع إلى الأحكام الشرعية هو عدم تصنيفها في نظم وقواعد محددة أدى إلى اختلاف الأحكام القضائية رغم تشابه القضايا، فتجد قضية واحدة قد يحكم فيها شيخان مختلفان في منطقتين متقاربتين بحكمين مختلفين وكل شيخ يحكم بناءً على قاعدة شرعية.

قال أبو عبد الرحمن: صدقت وبالتالي نجد الجمهور من المسلمين في حيرة من أمرهم، فكيف يحكم على هذا بكذا، ويحكم على ذاك بكذا، وهما مواطنان في وطن واحد ودين واحد وشرعة واحدة.

سأل وضاح: وما شرْحُكم للعنصر الثاني؟

أبو عبد الرحمن: ولو تحدّثنا عن العنصر الثاني وهو الصّحوة الاجتماعيّة والسياسيّة نجد أنّ في كلّ فترة من الفترات تكون هناك صحوة من مجموعة الاجتماعيين ورجال الدّين والسياسيين، وبما أنّنا نتدارس العناصر الثلاثة المجتمعة التي ساهمت في سقوط الدّولة العثمانيّة فنحن نهتمّ بالفترة في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، فنجد أنّ أهمّ المصلحين في القرن الثامن عشر والتاسع عشر هم: محمّد بن عبد الوهّاب (١٧٠٣-١٧٩١) في منطقة نجد، وقد رفض الشيخ الجبريّة وفكرة الحلول والاتّحاد، التّأكيد على مسئوليّة الإنسان، فرّق بين التّوكّل والتّوكل، التّوسّل لا يجوز لغير الله، كما فتح باب الاجتهاد وعدم التّقيّد بمذهب معيّن من المذاهب الأربعة لأهل السنّة، وبذلك أسقط قداسة المذهب إلى قداسة المذاهب. ومنهم محمّد بن نوح (١٧٥٢-١٨٠٣) المدينة المنورة وغيرهم، فهؤلاء المصلحون أخذت آراؤهم وأفكارهم تنتشر خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث سقطت الدّولة العثمانيّة.

علّق حامد: وتقصد بالعنصر الثالث الغزو الأوروبيّ السّياسيّ والاقتصاديّ والعسكريّ، وما حمله هذا الغزو من تفوّق في العلوم والفنون والتّنظيم والإدارة والاتّصال.

أبو عبد الرحمن: نعم، فقد ظهرت هنا موجة التّجديد التي جاءت بعد ذلك، فقد أتت في ظروف مختلفة، فالغزو الأوروبيّ العسكريّ أمسك بمنطقة القلب في العالم الإسلاميّ وهيمن على أقطارها، ومن السّيّطرة السّياسيّة

والاقتصادية إلى محاولة التغلغل في النفوذ الفكري، وبالتالي قام مجموعة منهم: جمال الدين الأفغاني.

الشيخ محمد عبده، خير الدين التونسي، عبد الحميد بن باديس، وغيرهم، ولاقت الموجة ليس فقط خطر الاستعمار والاحتلال، بل نزعة التبشير المسيحي ومحاربة النزعة الغربية في المسلك والعادات وأساليب العيش، فلم يكن همها باب الاجتهاد فقط، بل الدفاع عن الثوابت للمعتقد والهوية، وانخرط البعض في الذود عن أصل وجود المؤسسات الإسلامية في التعليم والقضاء والفكر، وهكذا تصدّع المجتمع المسلم إلى جزأين، جزء محافظ على القديم وجزء يرغب في ملامسة المستقبل واللاحق بالركب الحضاري القادم من الغرب، خلال هذه الأحداث ظهرت فترة التنظيمات، ونشطت حركة التغريب سواء في التعليم أو النظم مما أدى إلى انحسار الشريعة الإسلامية؛ مما أدى إلى إنشاء كلية للحقوق تحت اسم (مدرسة الإدارة والألسن) في مصر، برغم أنّ مؤسس المدرسة وناظرها هو (فيدال) الفرنسيّ لمدة أربعة وعشرون عامًا في نهايات القرن التاسع عشر، ولكن بعد إلغاء معاهدة منترو عام ١٩٣٧م كان للجهد البارز للدكتور عبد الرزاق أحمد السنهوري في استقلال القانون بوضعه مسودة القانون المدني (١٩٣٨ - ١٩٤٨)، والجديد أنّه لم يأخذ بمذهب معيّن، وهنا كان الاستقلال من الذات وليس استقلال الذات من الغير فقط، فكان نقله ونصره للشريعة المرنة وقابليته ليس للتجديد فقط، بل للتنوع داخل الوعاء الفسيح للفكر الإسلامي، ولقد استوعب فقه الشريعة في القديم ما يصلح من العادات والتقاليد والأعراف للدول التي افتتحها ولمجتمعات كانت غريبة عنه، وانضمت تحت رداء الشريعة الإسلامية بعاداتها وتقاليدها وأعرافها، وبهذه التجارب اغتني الفقه، فهل هناك ما يمنع الاعتناء بالعديد من نماذج الحاضر،

ولو مَنْ يدَّعي أَنَّ التَّجديد محرَّم، فلماذا ظهر الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهاب وغيره في القرنين الثَّامن والتَّاسع عشر، ولمْ ظهر الشَّافعيّ والمالكيّ والحنفيّ والحنبليّ أصلاً؟ وبين أولئك وأولئك ظهر في كلِّ عصر مجدّد، وصدر القانون المدنيّ المصريّ عام ١٩٤٨م وفُعِّل عام ١٩٤٩م، ولكنَّ المحافظين ومنهم المستشار محمَّد صادق فهمي قاموا وطالبوا بتطبيق الشَّريعة، وهكذا انقسم المجتمع الإسلاميّ إلى فريقين، ومادامت ثوابت الشَّريعة تسع تلك الأبعاد من منع وجواز وإيجاب، فالأرجح هو الأصلح للجماعة.

علّق فايز: هذا كلام جميل، ولكنَّ القانون المدنيّ قانون وضعيٌّ ويحتاج إلى ركائز، فهل هناك ركائز مهمَّة للقانون؟

أبو عبد الرَّحمن: بالطبع فالركائز المهمَّة للقانون كما هو معروف هي: الدِّين والدَّولة والقانون... القواعد القانونيّة هي التي تحكم أفراد المجتمع... أيّ مجتمع، وإذا لم تكن هنا قناعة بقاعدة من هذه القواعد فمصيها الفشل إمَّا بالتَّحليل الذي يؤدِّي للفساد أو بعدم تطبيقها لعدم إمكانيّة التَّطبيق، ويعزو البعض أن انتشار الإسلام بسبب أن الدِّين والتَّشريع أصلهما واحد وهي كلمة مأخوذة من الشَّريعة فشرع هو أصل الفعل، ولكنَّ التَّجديد يحدث عندما نفرِّق بين الشَّريعة والفقه:

وضاح: كيف؟

أبو عبد الرَّحمن: الشَّريعة هي الأحكام التي وضعها الله لعباده ومصدرها القرآن والسُّنة.

أمَّا الفقه: هو معرفة الأحكام الشَّرعية التي تتعلّق بأفعال العباد واستخلاصها من أدلّتها التَّفصيليّة عن طريق الاستدلال والاستنباط والاجتهاد (وهو بهذا التعريف لا بدّ أن يساير مقتضيات الحياة المتغيرة في إطار الدِّين بمعنى وصل النّص بالواقع).

حامد: وبالتالي يمكن أن نقول تطبيق الأحكام القضائية: هو إنزال حكمها الثابت على الوقائع المتغيرة.

أبو عبد الرحمن (مؤكداً): بالضبط.

وضاح وقد بدأت الأمور تتضح عليه إذا فالاجتهاد: هو تحريك النص الثابت على الوقائع المتغيرة.

أبو عبد الرحمن: ليس ذلك فقط بل في التفسير أيضاً.

فايز: إذا ما معوقات التجديد؟

أبو عبد الرحمن: الاختلاف الأول هو هل الشريعة مصدر من مصادر التشريع أم هي المصدر الوحيد في التشريع؟ والثاني في مغايرة الشريعة والتشريع، هل يمكن أن تصدر المحكمة حكماً منافياً لقانون أو نظام صدر من ولي الأمر وفقاً للإجراءات الدستورية، مثل سنّ الرشد أو سنّ الزواج بالنسبة للفتاة المسلمة؟ نقطة الخلاف الثالثة اختلاف المذاهب واختلاف الحجّة والبرهان في هذا الحشد الضخم من الأحكام أو اختلاف المكان والزمان؟ وإن كانت الغاية واحدة وهو تحقيق مصالح الناس وضمان العدالة بينهم.

حامد: ما هي التحديات التي فرضها الواقع؟

أبو عبد الرحمن: تتمثل التحديات في المحاور الثلاثة التالية وهي مقاومة الفكر الأجنبي، ونظم الحكم، ومجاعة التقدم العلمي.

فايز: نتحدثون عن كلمة القانون وهو ما لا يرضاه رجال الدين أو المؤسسة الدينية!

أبو عبد الرحمن: قد نستعوض عن كلمة قانون بكلمة نظم وأنظمة وقواعد المسمى لا يهم المهم المحتوى.

وضاح: زادك الله من العلم والفضل، ماذا لو سألتك عن السنّة؟

أبو عبد الرحمن: ماذا تريد أن تعرف عنها؟

وضاح: ما هي السَّنة؟

أبو عبد الرحمن: السَّنة لغة: هي الطَّريقة أو القدوة، وشرعاً هي: كل ما صدر عن النَّبي ﷺ غير القرآن من قول أو فعل أو تقرير؛ لذا فقد قسم الفقهاء السَّنة إلى ثلاثة أقسام: السَّنة القوليَّة، السَّنة الفعلية والسَّنة التَّقريرية، وتعني أقوال أو أفعال الصَّحابة التي يقرّهم عليها أو ينهاهم عنها ﷺ مما يصلح لأن يكون دليلاً لحكم شرعيٍّ، وهي بذلك أوسع من القرآن القائم على النَّص فقط، فهل كل ما صدر عن النَّبي يُعْتَبَرُ تشريعاً؟ فكما قال محمّد مصطفى الجلبى قد يأمر ﷺ أو ينهى عن شيء في حالة خاصّة، وعندما سأل الصَّحابة التَّخفيف فيبين أنّه ليس مؤبّداً، بل لعلّة خاصّة، فعدم وجود حدّ فاصل بين ما يعدّ تشريعاً أبديّاً أم وقتيّاً كان من أهم أسباب الخلاف بين الفقهاء، وبالتالي فإنّ تشريع السَّنة لا يختلف عن تشريع القرآن الذي جاءت نصوصه موجزة أو مجملة أو عامّة أو مطلقة، وبعضها جاء مبهمًا أو متشابهًا أو مقيدًا أو خاصًا، فكان لا بدّ من تفصيل المجمل وتوضيح المبهم وتقيد المطلق وشرح العام.

حامد: السَّؤال الذي قد يبدو محرّجاً في زماننا، وقد يكون أو لا يكون في الأزمنة السَّابقة نريد أن نستزيد من علمك رعاك الله وتنورنا في موضوع نظام الحكم في الإسلام.

أبو عبد الرحمن: أسست أوّل دولة في الإسلام كما هو معروف في عهد الرّسول ﷺ، وجمع بين يديه السُّلطات الثلاثة التَّشريعية والتَّنفيذية والقضائية، وتوفي ولم يضع لهذه الدَّولة أيّ تشريع يبيّن شكل الحكم. فاجتمع المهاجرون والأنصار في سقيفة (بني ساعدة) حسب الطَّرق التي كانت سائدة وهي: الاستخلاف والشُّورى، ويقول الفقهاء أنّ الإمامة تنعقد

من وجهين أحدهما باختيار أهل الحل والعقد، والثاني بعهد الإمام من قبل، ثم تأتي البيعة، وهنا تواجهنا مشكلتان: مَنْ أهل الحل والعقد؟ مَنْ الفئة أو القبيلة؟ التي لها حق الاختيار، وحدث شقاق بعد وفاة الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ولكن اتفقوا على أنهم هم أهل الحل والعقد، واختلفوا في الثانية، حتى إن عمر بن الخطاب كما ذكر المؤرخون قال بعصبيّة (مَنْ ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن عشيرته)، وحدث انقسام بين الأنصار أنفسهم أي بين الأوس والخزرج وانقسم آخر بين بني هاشم والمهاجرين على مبايعة أبو بكر، ومكث بنو هاشم ستة أشهر لم يبايعوا فيها حتى توفيت فاطمة رضي الله عنها. قبل وفاة أبو بكر أوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب عن طريق الاستخلاف، ولكن عمر عهد بالشورى إلى ستة من كبار الصحابة أهل الحل والعقد؛ فاخاروا عثمان بن عفان وقتل عثمان ولم يستخلف، فاختر الصحابة علياً بن أبي طالب على جزء من الأمصار عن طريق الشورى، ودب الخلاف بين بني هاشم والأمويّون، ودبت الفتنة وانقسم المسلمون بين مَنْ يُطالب بدم عثمان ومَنْ يؤيد علياً، وتلاقى الجيشان المسلمان جيش علي وجيش عائشة والزبير (معركة الجمل) وقتل من المسلمين من الطرفين في البصرة خمسة عشر ألف مسلم بعدها معركة صفين التي انتهت بالتحكيم وظهور الخوارج لتخليص الأمة من عليٍّ ومعاوية فقتل عليٍّ وسلم معاوية، فأخذها معاوية بالسيف بعد ذلك معركة كربلاء بين الحسين بن عليٍّ ويزيد بن معاوية التي قُتل فيها ستة عشر من أبناء وأحفاد فاطمة ولم يبق سوى الرضيع زين العابدين، بعد ذلك قام يزيد بالخلافة عن طريق الوراثة وفتح المدينة بعد معركة الحرة التي قتل فيها ٣٠٦ من الصحابة وأبناء الصحابة، وانتقل لحصار مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق، وتوفي يزيد وعين ابنه معاوية بعده ولكن الحكم انتقل من أبي سفيان إلى الحكم وكلهم من بني أمية.

قال حامد: لم أقصد السرد التاريخي، بل قصدت هل ما يجري على الساحة الآن من الدول الإسلامية وما يتعرض له حكامها من اتهام عدم الشرعية! أبو عبد الرحمن: هذا كلام فيه كثير من المراوغة، فالواقع أن البيعة أو الانتخاب أو حتى اختيار أهل الحل والعقد لرجل ومن ثم الطلب من العامة مبايعته فهذا يكفي، أو تزكية من الخليفة السابق أو الملك أو أمير أو رئيس، لا فرق كما فعل أبو بكر مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وكما ذكرت سابقاً فهناك ستة طرق مختلفة تم فيها تعيين أو تنصيب خليفة للمسلمين. وضاح: جزاك الله خيراً... وما حكم الخارج على الوالي؟ أبو عبد الرحمن: إذا كان الوالي يخاف الله في رعيته ويتقيه فالخروج عليه فتنة.

فايز: وإذا لم يكن وكان جائراً. أبو عبد الرحمن: يجب على علماء وفقهاء الأمة أن ينصحوه، فإذا سمع لهم فحكم الخروج عليه كسابقه فتنة، وإذا أصرّ فعليهم التشاور (فهم أهل الحسبة) فيمن يقود الأمة لخيرها، وبالتالي يخلعوه دون سفك دماء للمسلمين أو القتال بين فئات المجتمع المسلم. فايز: ومن يختار أهل الحسبة؟ أبو عبد الرحمن: جمهور المسلمين. فايز: كيف؟ أبو عبد الرحمن: بعدد جمهور الفقيه العالم. فايز: ومن يحكم بينهم؟ أبو عبد الرحمن: أعرف ما ترمي إليه، تريد أن تكون هناك انتخابات؟

حامد: نعم... مجلس لتقنين الشريعة ومحكمة الوزراء التنفيذيين الذين يتجاوزون حدود الأنظمة والقواعد النظامية، وتلك التي تُسمّى تجاوزاً لوائح؟

أبو عبد الرحمن: مجلس شوري! الاسم غير مهم، سمّه مجلس شوري أو المجلس التشريعي... مجلس شعب أو مجلس أمّة مجلس حسبة... مجلس شيوخ أم مجلس مشايخ، ليس المهم الاسم يا سيدي، المهم هو صلاحيات المجلس وقوّته... نعم هذا صحيح... ولكن نحن كمسلمين أمرنا شوري بيننا.

الطّقس في مكّة المكرّمة بصفة عامّة فصلين حار وحار جدّاً، أمّا في فصل الصيف فهو إمّا حار جدّاً أو حار لا يُطاق، وترتفع درجة الحرارة مع سخونة الجبال المحيطة والرياح تأتي بما يُطلّق عليه أهلها (السّموم) بفتح السين وضّم الميم التي تليها، أمّا في هذا العام فقد تعدّت الحدود والمصيفون يغادرون البعض إلى الطّائف وأبها، والبعض خارج الوطن وإلى مصر- الكنانة بالتّحديد، ونسبة أقلّ إلى سوريا وأقلّ من سوريا تركيا وأوروبا.

حامد توجّه إلى دبي في طريقه إلى أفغانستان ووضّاح سبقه بحوالي تسعة عشر يوماً متوجّهاً إلى تركيا ليلتقي بحامد في أفغانستان عن طريق الأراضي الكرديّة مجموعة من الأكراد نقلته بسلام عبر الحدود الإيرانيّة ومنها انتقل إلى الحدود الأفغانيّة الذين أمّنوا طريق رحلته حتّى التقى بصديق عمره لأوّل مرّة في أفغانستان لم تكن عمليّة انتقاله من دولة إلى دولة سهلة، بل صادفته بعض المتاعب التي كادت أن تلقي به في أحد المعتقلات سواء الرّسميّة أو تلك العائدة لجماعات تابعة لتنظيمات أو أحزاب عقائديّة طائفية كانت أم إقليمية سياسيّة، بالإضافة إلى بعض الأمراض التي تعرّض لها وأدّت إلى انخفاض وزنه بشكل ملحوظ، ولكن في الوقت نفسه استفاد منها كثيراً من حيث قوّة

التَّحَمُّل والتَّخَفِّي وتصويره لجغرافية المكان واختلاف طبائع الإنسان حسب اختلاف معتقداتهم وما تجود به الطَّبيعة عليهم من خيراتها أو من فضلات الحكومات المركزيَّة التي تتبع تلك المنطقة، وما يصل إليها من بقايا الفضلات في بعض المناطق يعتمد ذلك على البعد المكانيّ أو قربه من المركز.

التقيا في كندهار، وضاح متعب ويحتاج إلى بعض العلاج قبل أن يلتحق بمعسكر خاص بالقرب من مزار شريف، أمّا حامد الذي أشرف على بعض مراحل علاجه فقد كان يتركه بعض الوقت ليتقابل مع بعض السَّعوديين كل على حدة وهم سعد، وماهر، وعاصم، ومناحي.

في اليوم السَّابق لمغادرة صديقه وضاح إلى مزار شريف مع مجموعة من الأفغان قام بزيارة سعد في منزله، وبعد تناول الشَّاي انفردا مع بعضهما سأل المكيّ: قابلت سعوديين؟

سعد: داخل أفغانستان!

المكيّ: أيوه.

سعد: قليل.

المكيّ: تعرَّفت عليهم؟

سعد: الصَّراحة... لا.

المكيّ: ليه؟

سعد: الحقيقة في الأوَّل لم أختلط مع العرب من أجل اللغة، ودي أتعلم الأفغانِيَّة وبعدين اتزوجت وأصبحت أقوم بمهامي مع الأفغان، وأعود للبيت وبعد كذا أشوفهم، نسلم على بعض وكيف الحال وبس لكن عمرنا ما سألنا عن أسماء بعض أو حتّى الاسم الحركي.

المكيّ: يعني سعد مو اسمك الحقيقي!

سعد: بالتَّأكيد.

المكّي: واسمك الحقيقي؟
سعد: برضه سعد بس سعد بن عبد الله مو سعد بن الوقّاص، وأنت اسمك الحقيقي إيه؟
المكّي: أبو سفيان المكّي.
سعد: اسمك الحقيقي مو الحركي؟
المكّي: صدّقني نفس الاسم أنا ما أغيّر اسمي؟
سعد: يعني في جوازك مكتوب؟
قاطعه المكّي: أبو سفيان محمّد علي المكّي إيش رأيك أعرفك على مجموعة من السّعوديين المتحمّسين.
سعد: متحمّسين على إيه؟
المكّي: على التّغيير (ونظر في تقاطيع وجه سعد).
سعد: صدق!
المكّي: ما ترغب في التّغيير؟
سعد: مين ما يحب التّغيير؟
المكّي: أواعدهم؟
سعد: أنت ضامنهم... واثق منهم؟
المكّي: أكثر من ثقتي فيك اللي تزداد يوم عن يوم وخلّتني أفتح معك الموضوع.
سعد: على بركة الله.
المكّي: وداعة الله.
سعد: في أمان الله... قل اسم واحد منهم.
حامد: ابن خلدون.

مناحي

كَمْ هائلٌ من السيَّارات تنهب الأرض نهباً متَّجهة نحو الغرب، الرُّعب والتَّعب والإرهاق السَّمة الظَّاهرة على الجميع، أمَّا الصَّغار الذين لا يعرفون الخوف طالما أنَّهم بين معارفهم وبالذَّات مع والديهم، السيَّارات بالمتات، بالألوف، العدد غير مهم، الأهمُّ أن يبعد عائلته عن خطر الكيماوي، وصواريخ صدَّام، قلَّة خبرته بأنواع الأسلحة والحروب جعلته يعتقد أنَّ الصَّواريخ تلاحقهم، بل سوف تتساقط عليهم كالطرر، أو أحجار من سَجيل، وإن كانت طيور الأبايل تلقي بحجارتها على مَنْ يريد الخراب بيت الله. فلماذا تلقى عليهم؟ ومَنْ؟ النُّظام في العراق من صدَّام! بطل القادسيَّة! حامي البوابة الشَّرقيَّة للبيت المقدس! صدام العرب! أباد بعضاً من أبناء شعبه المسلمين الأكراد في منطقة حلبجة كما يقولون في وكالات الأنباء، وها هو يريد أن يبيد عرباً مسلمين من دول الخليج، وقفوا معه في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل!

كذب وكذب فصدق كذبه وصدَّقوه، لم يتأخَّر أحد، معظم التَّكاليف التي صرفت على الحرب كانت تستقطع من حساب التنمية وبناء البنية التَّحتيَّة، مدارس، مستشفيات مصانع معاهد للتنمية البشريَّة، وبالرَّغم من كلِّ هذه التَّضحيات ها هو يغدر بالكويت ويلتهمها في ساعات، ويهدِّد، ويتوعَّد، ماذا حدث وماذا يحدث في هذا الزَّمن العجيب أو زمن العجائب أصبح الإنسان لا يعرف العدوَّ من الصَّديق، فبالأمس القريب كنَّا نمجِّد النُّظام في العراق في شخص قائده الغضنفر، واليوم تنزل عليه أبشع الشَّتائم... السِّياسة والسُّلطة. أين المبادئ؟ مَنْ الصَّديق؟ حبيب الأمس أصبح عدوَّ اليوم، مَنْ العدوَّ؟ عدوَّ اليوم سيغدو حبيب الغد؟ مَنْ المستفيد؟

هل هي حرب نفسية لتحطيم الإنسان المسلم المحطم أصلاً؟! الحرب النفسية هي التي تؤثر على معنويات الإنسان، وبالتالي على سلوكه فمن اللفظ نجد أنها تحارب النفس البشرية التي تكمن فيها الإرادة، وبالتالي الإدارة وهي السلوك الناتج عن الإرادة، وتعرض النفس للضغط يجعلها تستجيب بتوجيه الإرادة لرغبات الخصم، وهذه الركيزة التي تنطلق منها الحروب النفسية، أما السبب في قيام هذه الحروب فهو التأثير على معنويات الخصم لإملاء شروط معينة، وهي مثل بقية الحروب إما دفاعية أو هجومية أو وقائية.

مناحي المطر وهو يقود سيارته مع رتل السيارات الهائل التي غادرت العاصمة متجهة نحو الحجاز لأداء العمرة، ومن ثم الاتجاه إلى مدينة رسول الله يتجه بعدها إلى مسقط رأسه تبوك، وبجواره زوجته وضحة وأبنائه عابد وعبود وعالية ورابعة وهي آخر العنقود، كان يتحاور مع نفسه في صراع الفهم المستعصي لأحداث تتواتر، النظام في العراق عسكري يطلق عليه الإعتام أو الإعلام لا فرق، إنه نظام ديمقراطي، عسكري ديمقراطي كيف؟! نحن العرب لا نجمع الضدين فقط، بل باستطاعتنا أن نجمع الأضداد، ولنلوي ذراع الحق ونفرك الأقارب ونقرب من الأبعاد!

النظام في دول الخليج والأردن والمغرب يحكمه عائلات، حكم وراثي، المواطن الأمريكي كما عرفه مناحي منذ أن كان في (بلوم نجتون إنديانا) لأكثر من ستين في دورة تدريبية لا يهتم كثيراً بشكل النظام بقدر اهتمامه بالمضمون من حرية وعدالة اجتماعية، الإعلام الأمريكي ولمصلحته الخاصة يحارب هذا النوع من الأنظمة ويعتبره حكماً ديكتاتورياً، قديماً، رجعيّاً، آخر أوروبا ويجب أن ينتهي من على سطح الكرة الأرضية، إنسان القرن العشرين وما يليه من القرون يجب أن يختار حكومته على الطريقة الأمريكية، يختار الرئيس اليوم

ليشتمه في اليوم التالي، ويعيد انتخابه لفترة ثانية ليفضحه ويفضح زوجته وأولاده أو يتخلّص منه بقتله كما فعل في (إبراهيم لنكولن) و(جون كينيدي)، وكاد أن يفعلها في (ريجين) عالم غريب وطلبات أغرب وكأنّ العالم يجب أن يتأمرك عن طريق الحرّية على الطّريقة الأمريكيّة، الحكومات الأمريكيّة التي تعتلي السّلطة عن طريق الوصول إلى البيت الأبيض جمهوريين كانوا أم ديمقراطيين يستغلّون نقاط الضّعف لحكومات العالم بالعموم والمنطقة بشكل خاص، وتذلّم عن طريق توسيع الهوّة بين الحكّام وبين شعوبها من جهة، وأن تحاف وترتاب من بعضها البعض من جهة أخرى؛ لكي يأكل كبيرهم صغيرهم ويطنّى قوَّيهم على الضّعيف منهم، وأن يبقى الأمريكيان في المنطقة لحلّ النزاعات والأطماع التي مهّد طريقها لهم الإنجليز والفرنسيّون. ما معنى الحرّية؟ هل الحرّية كما حدث في أوائل السّبعينيّات عندما حاول بعض الطّلبة حضور المحاضرات في بعض الجامعات الأمريكيّة (حفاة عراة)، وبالتالي تدخّل الأمن؟ تناقض غريب. من وراء تطوير العراق لصواريخه؟ الأخبار متناقضة تناقض قرارات السّاسة المتغيّرة بتغيّر الأحداث.

يتذكّر عيني "سليمان العيسى" وهو يعلن عن إنذار أوّل صاروخ يصوّب نحو الرّياض العاصمة، فيها كثيرٌ من الخوف، وفي نبرات صوته كثيرٌ من الحزن، وفي عروقه وعرقه الذي تصبّب منه نعي مدينة بأكملها، واجبه الوطني يتطلّب منه أن يترك منزله وزوجته وأولاده في وقت هم في أشدّ الحاجة أن يكون معهم لا أن يكون خلف الشّاشة ليعلن ويحذّر الملايين هم أهلهم، أحبّهم... يريد أن يحذّر تراب مدينة أحبّها، الكلمات تخرج من حلقة ثقيلة، العيسى قد كان يبكي ويودع فبكت الرّياض معه وقد كان يبكي مدينة فبكى الشّعب كلّه معه أم تراه يبكي شعباً، فأبكى الشّارع العربيّ يبكي

العروبة التي كان يتغنّى بأمجادها ويرأها يمزّقها قرار، فتألّمت أمة محمد ﷺ معه أم تراك تبكي أمة الإسلام، وكيف انحدرت إلى هذا الخزي وهذا العار. أخذ الدّمع يهلّ من عيني مناحي وهو يعيد شريط النّبأ، سحبته زوجته من أفكاره: تأكّد من البنزين.

ألقي نظرة على عدّاد البنزين.

وقال: سوف نقف عند أوّل محطة... (ارتفع صوته يغنّي من الألم) ما هقيت إن البراقع يفتينني لين شفت ظباء النّفود مبرّقات، وبدأ الحزن يضخّم من الصّوت، أخذ يئنّ ثمّ ارتفع صوت بكائه وأنيته ينطلق رغماً عنه متخطّياً حواجز كان قد وضعها، أبعد السيّارة عن الطّريق، خرج منها بعد أن تأكّد أنّها في أمان، هرول بعيداً يبكي بصوت فيه كثير من الحسرة والألم، نزلت زوجته والأولاد، جلسوا على الرّمّل، وضعت رأسها بين يديها والدّموع تجري من تحت خمارها الذي لم تنتزع، سألت عبود ببراءة الأطفال: ليش تبكون؟

- ولوين رايجين؟

أجابت من بين دموعها التي حاولت أن تخفّف منها: راح نروح عند بيت الله.

(صاح الابن الأكبر عابد): وبيتنا؟

وضحة: الله يحمي بيتنا ومملكتنا رادين بعون الله رادين.

عابد: الانفجار اللي كسر شبابيك البيت كان قريب منّا صحّ؟

وضحة: إيه قريب... عسى تقرب نهايته.

عابد: قبلة؟

وضحة: لا... صاروخ.

عابد: ويش الفرق؟

وضحة: ما هناك فرق... كلّها تدمّر النبي آدم لعنة الله على من صنعها.
عاد بعد أن هدأت نفسه قليلاً، شرب بعض الماء وطلب من الجميع
العودة إلى السيّارة بعد أن توجه نحو قرية (السيّل الكبير) قال: راح نقف عند
المیقات.

لا يعرف لماذا تذكّر الآن وهو يرى الكعبة أمامه عبد الله بن الزبير
اختلطت الصور في ذهنه... الحجاج هناك يضرب الكعبة ويقتل المسلمين،
وأسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق تمشي، وتقول: أما أن لهذا
الفارس أن يترجّل (وهو ابنها) وهي التي دفعته إلى حتفه أو شجّعته بقولها لا
يضرّ الشاة سلخها بعد ذبحها! أصوات أقدام الجيوش، صلصلة السيوف،
صرخات الألم، صيحات التلذذ بالقتل لإرهاب الخصم ورفع معنويات
الجيش: خُذ هذه يا ابن... ثكلتك أمك!

يتخيّلها كما شاهدها في العديد من المسلسلات التي يُقال عنها إنّها
تاريخيّة، والتي عادة ما تعرض في شهري رمضان والحجّ، أو مسلسلات الحبّ
والخيانة والغدر، فقد كانت تعرض بقيّة أيام السنّة.

أين كانت المعركة؟ أهنا كان يجلس عبد الله بن الزبير؟ لو عاد ابن الزبير
والحجاج لرؤية الحرم الآن، ما موقفهما؟ سؤال غريب! في زمن غريب.

الاسم: مناحي محارب فالح الماطر (حسب بطاقة الأحوال الشخصية
الرّسميّة)

مكان الميلاد: تبوك.

المنطقة: الشّمالية.

تاريخ الميلاد: ٢-٢-١٣٨١هـ.

اسم الأم: الزّهراء.

الاسم: ناجي صالح عبد الله حسين (حسب دفتر إقامة صادر من الدَّمَام).

الجنسيّة: اليمن.

مكان الميلاد: إب.

تأريخ الميلاد: ٢-٢-١٩٦٢ م.

الاسم الحركي: ابن خلدون.

والده أحد تجّار تبوك والشّمال، يعمل في تجارة الجبوب وبعض المواد الغذائية الجافّة بالجملة، منها فقط تلقّى مناحي تعليمه الابتدائي والمتوسّط والثّانوي في مدينة تبوك يهوى القراءة، يهتمّ بتاريخ أمّته العربيّة، ويسأل والده دائماً عن حرب ٦٧ التي خسرها العرب، يجترّ والده ألم مرارة الهزيمة قائلاً: محارب: الرّئيس المصريّ في ذلك الوقت أخرج قوّاته من حرب اليمن وهي مثخنة ومرهقة.

مناحي: ليش حارب اليمن؟

محارب: لا... ما كان في حرب ضدّ اليمن... كان يساعد الثّوار اليمنيين من العسكر على الإمام البدر ابن الإمام أحمد، المهمّ نقلهم مباشرة إلى سيناء قالوا يومها إنّ الغرض سياسي حتّى يلهمي الشعب عن خطئه في إرسال قوّات إلى دولة عربيّة صديقة لمساعدة نظام على نظام! والتّدخل في شئونها الدّاخليّة. وقالوا إنّها خديعة من روسيا عشان يجربوا صواريخ سام المضادّة للطّائرات. قالوا إنّها دعاية للغرور النّاصري. قالوا دعم للقوميّة العربيّة! الجيش المصري يا وليدي كان منهياراً معنوياً لأنّ قيادته وضعته في مأزق، حرب ما لها هدف واضح للشّعوب المغلوبة على أمرها على الأقلّ؛ لذا فقد احتار المؤرّخ في أن يضع هدفاً لها غير إلقاء وزيادة أعباء العالم العربيّ بصفة عامّة والمصريّ بصفة خاصّة عن الواقع المريع الذي كان يعيشه، تأميم، فساد إداري، انهيار

اقتصاديّ، بطالة، هجرة قروية إلى المدن وبالذات القاهرة وعدم وجود خطط تنمويّة أو بنية تحتية للانفجار السكاني الذي لم تستطع الإمكانيات التي كانت مبنية أصلاً لتلبية الطلبات الملحة لعدد يزداد يوماً عن يوم بسرعة غريبة، كان هذا الوضع في مصر، أمّا شعب اليمن العربيّ المسلم فهم مجموعة قبائل تعيش في الجبال، فقراء يعانون من الجهل والمرض، مثلهم مثل معظم شعوب العالم العربيّ في ذلك الوقت، خاصّة شعوب جزيرة العرب.

مناحي: بس إنت كنت ناصري!

محارب: الإعلام... الإعلام المصري إذاعة صوت العرب والشعارات... الوحدة العربية، الحرية، العدالة، المساواة، أحلام في أحلام، قال وحدة عربية، مصر والسودان ما انفصلت غير أيام عبد الناصر، فين الوحدة... الحرية! السجون مليانة من المظالم... إيه يا وليدي... لا توجع لي قلبي في الأيام الخوالي، مصر كلّ شيء، المسرح يوسف وهبي، فؤاد المهندس، شويكار، السينما فريد شوقي، محمود المليجي، تحية كاريوكا، سامية جمال، الرياضة صالح سليم، الضظوي، رفعت الفناجيلي، أيام... الثقافة طه حسين، والعقاد، ونجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، ويوسف السباعي، وإحسان عبد القدوس، العلم، الفن، الطرب أم كلثوم، وعبد الوهاب... ذيك هي مصر...

تبوك مدينة صغيرة أو قرية كبيرة في تلك الفترة، فيها قاعدة عسكرية صغيرة للقوات السعودية، وقد كان معظم الضباط يجتمعون عند جدك في الدكان أو في الدبوانية في المنزل في الحي الشرقي والدبوانية مشهورة في تبوك وهي عبارة عن مجلس مفتوح على حديقة فيها نافورة ماء أو بركة صغيرة حسب مستوى المالك الاجتماعي، يجتمعون للأكل أو مشاهدة أحد الأفلام السينمائية أو لسماع حفلات أم كلثوم أو الست كما يخلو لجدك أن يسميها،

يجتَرّ أبو مناحي من شريط الذكريات بعض المناظر ... جسد الرّاقصة وهي تتلوّى مثل أفعى، فقد كانت درجة حرارته تصل لدرجة الغليان، لا ينكر أنّه كان معجباً بمصر أيّما إعجاب. فالح الماطر جدّك يتحدث مع الضّبّاط في كلّ شيء تقريباً، فقد جمعت الصّدّاقة والمحبة والألفة بينهم، وأنا الصّغير أسمع بعض الحديث، ولا تشغلني سوى همسات كانت تدور في المجلس يغادر بعدها جدّك إلى القاهرة، ظلّت لغزاً محيّراً وسراً دفنه جدّك معه، وتكاثر الإشاعات حول سفرات جدّك المتكرّرة، منهم من يقول إنّ هناك راقصة مصرية قد أغرته وقد يتزوّجها، ومنهم من يقول إنّ عضو في الحزب القومي النّاصري الوجودي؛ ولذا فهو يشجّع نادي الوحدة في مكّة المكرّمة، البعض يقول إنّ من مجموعة أحرار الحجاز، وإنّه يقوم بزيارة فرع الحزب في القاهرة برغم أنّ راعي الحزب هاشمي أردني، يريدون تحرير الحجاز من الحكّام الجدد، البعض يقول إنّهم مكلفون بالتخطيط لانقلاب في باقي دول عرب آسيا أو الجزيرة العربيّة الملكيّة كلّها، وليس الحجاز فقط، وتحرير الأجزاء الشّرقية من دول الجزيرة العربيّة وجنوب اليمن والمحتلّة من الإنجليز.

كانت المعلومات قليلة والقراءة الجانيّة أو ما يُسمّى قراءة ما بين السّطور أقلّ، ونظراً لأنّ الضّبّاط لا يستطيعون السّفر المتواصل للقاهرة لنقل المعلومات السّريّة الخطيرة، فقد كانت هذه هي مهمّة فالح الماطر، ويجلب الجد مع ما يجلب من القاهرة بعض الكتب عن الاشتراكيّة وبعض الأغاني والأناشيد الحماسيّة مثل وطني حبيبي الوطن الأكبر، وأخي جاوز الظالمون المدى، كنت أردّها دوماً وأحفظها، وأخذت تتسرّب إلى دمي لم أك أعي أنّه غسيل مخ، وهكذا أصبحت ناصريّاً، عندما قامت ثورة اليمن لم أك قد بلغت الخامسة عشر من عمري بعد، وكنت في الصّفّ الأوّل الثّانوي، وقد رأيت قبل الثورة حلماً في منامي أنّ اليمنيين يحملون النيران ويمرحون منازلهم،

الخوف في أعينهم وهيئتهم، عندما فسّرت جدّتك فاطمة الحلم بأنّ هناك حرباً ستشتعل في اليمن، بلغت "سعيد" و"سفر" و"عوض" زملائي في المدرسة لم يصدّق أحد منهم، ولكن بعد بضعة أيّام قامت الثّورة، وتدخلت مصر لمساعدة الثّوار، في تلك الأثناء قامت قوّات الجهاز بالقبض على بعض الضّبّاط، وجميعهم من أصدقاء جدّك، شعرت ببعض القلق والخوف، ولكن عندما جاء زوّار الفجر كما كانوا ولا زالوا يطلقون عليهم أو الخفافيش، كما أحبّ أنا أن أطلق عليهم إلى المنزل وأخذوا جدّك فقد ألّمني منظر جدّك وهم يضعون القيود في يده ويلقون بجسده داخل سيّارتهم، كاد قلبي أن يتوقّف من الخوف، أمّا أطرافي فقد تحوّلت إلى زرقة غريبة، والسبب عدم وصول الأكسجين إليها بسبب البرد والخوف، كان جسدي يرتجّ كأنّ فيه تياراً كهربائياً، وتعطلت في رأسي الأفكار ولم أستطع أن أتحرك، جدّتك وعمّاتك وعمّك الصّغير يصرخون ويستنجدون، ولكن كلّ من قدم للنّجدة ووجد سيّارات الخفافيش ولّى هارباً، لا أعرف كم من الوقت بقيت على هذه الحال حتّى بعد أن اختفت السيّارات عن ناظري إلّا أنّي أحسست بيد تجذبني داخل البيت، صرخت... بكيت بحرقّة عاجز وبكاء مغبون.

خلال الأيّام التي غاب فيها جدّك للتحقيق تعرّضنا للتفتيش الفجائي عدّة مرّات والتحرّش المقصود أو غير المقصود، ولكن بعد عدّة أشهر عاد جدّك ولكن غير جدّك الذي كان، أصبح لا يتكلّم كثيرًا من المسجد للدّكان للبيت، لا يستقبل أحدًا في الدّكان إلّا من أراد أن يتّاع أو يسدّد دينًا أو يطلب بضاعة، حتّى الصّدقات قلّت ومواساته للفقراء والمساكين انكمشت بدرجة أدّت إلى انكماش تجارته التي أخذت تنكمش شيئًا فشيئًا، والنّاس تهجره وهو يتعدّ عنهم، لا همّ له غير حفظ القرآن، حتّى المذبايع قام ببيعه، تغيّرت معاملته حتّى مع أهله لا يتحدّث معنا غير قليل إذا احتاج إلى شيء وهو نادرًا

ما يحتاج لأحد أن يقضي له أمراً فقد تعود أن يقوم بخدمة نفسه منذ أن وعى الحياة، لم يقل ماذا جرى هناك ولم يستطع أحد أو يتجرأ أن يسأل.

ولكن عندما ذهبت إلى المدرسة أو سمح لي بالأحرى بالذهاب إلى المدرسة كان هناك فريقان يتحدثان عن جدك، فريق يعتبره بطلاً قومياً فهو قد أفشى سر الخائنين من المتآمرين على النظام، وفريق آخر اتهم جدك بالخيانة العظمى للوحدة العربية ولبادئته، ومن هؤلاء أعزّ أصدقائي "سعيد" و"سفر" و"عوض"، ما يقوله الأطفال أو الشباب الصغار عبارة عن صورة مصغرة عما يجري ويدور في البيوت، فهم يرددون ما يسمعون وينقلون ما يشاهدون (خذوا أسرارهم من صغارهم)، وقد تعلّمت أنّ الجهاز يستخدم هذا المثل أو هذه القاعدة أيّما استخدام، فقد سمع الجهاز من طلبة المدرسة أنني قلت سوف تقوم حرب في اليمن قبل حدوث الثورة بعدة أيام فقط. لم يصدّق الجهاز أنّ جدك لم يكن يعلم بذلك، وأنّ ما قلت مجرد رؤيا في منام ولكن من يصدّق من؟ أكثر ما آلني في تلك الفترة أنّ أصدقائي الثلاثة لم يعودوا أصدقائي، ولكن بقدر فرحي بعودة جدك بقدر شوقي أن يقول لي الحقيقة كلّ الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، وهل الحقيقة في مثل هذه الظروف شيء سهل المنال وأن تكون علكة في فم الأطفال. هل كان فعلاً مع الثوار؟ أم مع النظام؟ أمّا بعد أن ألقى القبض على بعض الأشخاص في البلاد، ومنهم صاحب المكتبة المشهورة والوحيدة في ذلك الوقت الواقعة بجوار المدرسة الابتدائية في شارع الجيش وهو من أصل يمني، والذي وجّهت له العديد من التّهم منها أنّه ساهم في تمويل ثورة اليمن ويساهم في تمويل انقلاب مماثل، اتهم جدك أنّه من بلغ عنه، ولكن بعد أن خرج صاحب المكتبة وبرأت ساحة جدك من التّهمة، بدأت الحياة في مسيرتها، ولكن بنوع من الخوف والحذر والترقب، خاصّة أنّ القاعدة العسكرية بدأت تتوسّع نوعاً ما.

الإشاعات يستخدمها الجهاز في لمس الحقائق، فالتَّاس تنصرف لإثبات أنَّ معلوماتها هي الدَّقيقة والصَّحيحة أكثر من أهميَّة المعلومة نفسها، وبالتالي يفقد الحادث أهميَّته شيئاً فشيئاً حتَّى يلقي في غياهب النِّسيان، تعلَّمت من هذه المرحلة الشَّيء الكثير، تعلَّمت أن ليس كلَّ ما يعلم يُقال، وأنَّ كلَّ ما يُقال ليس بالضرورة صحيحاً، وأنَّ تسير عكس التَّيار في مبدأ معيَّن لكبي تكتشف المتحدِّث معك إن كان يقف على أرضيَّة صلبة في هذا الجانب أو ذاك، وأنَّ الوقوف في أحد الصِّفِّين لا يعني أنَّك خطأ حتَّى ينجلي المستقبل وتظهر نتيجة أيِّ الصِّفِّين أكثر خطأ من الآخر أو أكثر خسارة، وهذا ما يُسمَّى خطأ في الحسابات أو نقصاً في المعلومات التي بني عليها القرار والبعض يلقيها على القدر لإرضاء الذات فقط.

تعلَّمت المناورة ليس في الحديث فقط، بل في أعمالِي الحياتيَّة تعلَّمت أن لا أكذب، ولكن أن لا أقول كلَّ الحقيقة، بل الحقيقة التي يرغب السَّامع في سماعها بصرف النِّظر إن كانت في صالحه أو قد تؤدِّي إلى طريق الهلاك، الشَّفافية هي نوع من الصُّبايئة، فمنطقة الرَّمادي هي أفضل الطُّرق للعيش حتَّى يختار الجميع في تصرُّفك، فأنت أبيض مع البيض وأسود مع اللون نفسه، أو ليس اللون الرَّمادي يتكوَّن من خلط اللونين مع بعضهما البعض، سمعت كثيرًا من الإشاعات عن مكتبة شارع الجيش وصاحبها. هل كانت وكراً للمتأمِّرين؟ هل مَوَّل الثَّورة؟ ومن أموال جمعها في نظام ملكي؟ يُقال إنَّ الضَّابط الذي استلم منه جزءاً من هذه المبالغ وعده بأن أبناء الثَّورة لن ينسوا هذه الوقفة النِّبيلة معهم، وفي حالة انتصارهم سوف يرُدُّون المبلغ مضاعفاً، فردَّ عليهم أنا لا أريد مالاً أو شكراً من أحد، المبالغ التي قدَّمتها ليست ديناً على وطني، بل هي حقٌّ للوطن، وهي واجب على المواطن الحرِّ، نريد أن نرى جزيرة العرب، بل كلَّ العالم العربيَّ نور وعلم كفانا جهلاً وظلمات وكذباً

وشعوذة، نبغي شمس الحرّية وميزان العدالة الاجتماعيّة، نريد جمعيّة العرب الفتاة كما هي تركيا الفتاة، ونريد جمالاً ككمال... كلمات... كلمات... أحلام يقظة... وأوهام.

سقطت حكومة عائليّة حاكمة أخرى في العالم العربي بعد عائلة محمّد علي وخروج الملك فاروق آخر ملوك مصر، وسقوط فيصل العراق سليل رسول الله ﷺ، وتولي العسكريين قيادة البلاد مصر والعراق، وفي اليمن ماذا كانت النتيجة؟ الفقر لايزال ينهش بأنياه الأغلبية العظمى، الجهل لايزال يدمّر المجتمع اليمني، والمرض يفتك هنا وهناك دون رقيب أو حسيب، أمّا الحرّية والديمقراطيّة فالحق يُقال أنّ الأحزاب في اليمن أكثر من الأحزاب في الصّين صاحبة المليار نسمة، وأكثر من الأحزاب الموجودة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة بلد الحرّية والديمقراطيّة كما يُقال. الإشاعات تنناثر دون حسيب أو رقيب، لا يستطيع أحد أن ينفي أو يثبت أو يتابع للوصول للحقيقة وهل توجد حقيقة أصلاً، ما يُقال اليوم تنفيه النتائج غداً أو بعد غدٍ، فالطلّبة الذين كانوا يعتقدون أنّ جدّك خائن أصبحوا ينظرون إليه على أنّه مواطن صالح والعكس.

يوم الاثنين الخامس من حزيران قاعة الاختبارات في مدرسة ثانويّة، تبوك هادئة إلّا من أصوات أقدام المراقبين الذين يحاولون جاهدين المشي بحذر شديد خوفاً من أن يفزعوا من المعلومات القليلة الموجودة في رُءوس الطُّلاب، ولكن بعد مضي نصف ساعة تقريباً من توزيع الأوراق بدأت تظهر حركة غير عاديّة على المدرّسين ما لبثت أن ازدادت، الهمسات التي لم تكن تسمع أصبحت تتمتات غير مفهومة، ولكنها تدلّ على أنّ خطباً ما في الأفق، كنتُ أمتحن في الثّانويّة العامّة في القسم الأدبيّ في ذلك الوقت، قد استنفرت كلّ حواسي عسى أن أسمع شيئاً، كان الفضول قد بلغ بي أيّ مبلغ، وكان

المراقبون داخلين خارجين يتهايمسون ويبتسمون، البعض يخرج لفترة، والآخر يبدي مللاً في المراقبة بانتظار عودة مَنْ خَرَجَ، وبحاستي المرفهة عرفت أَنَّ الأمرَ خطيرٌ من نظرات المراقبين وحديثهم وقلقهم. هل ألقوا القبض على جدك مرّة أخرى؟ هل قام انقلاب؟ مَنْ سينتصر على مَنْ؟

السّياسة لعبة غير واضحة، ولكن الثّورة وطلب الكرسي مغامرة كلعبة الرّانة، إما أن تنجح فتفوز بهتاف الجمهور أو تسقط وتنكسر رقبتك دون أن يلتفت إليك أحدٌ، هل هي الحرب؟ حرب التّحرير كما كان يرّدّ الإعلام العربيّ، أنّه يريد أن يلقي بإسرائيل في البحر؟

الأسئلة تتزاحم في رأسي تزامم الإجابة التي أريد أن أفرغها على ورقة الإجابة، استعجلت الإجابة وقَدّمت ورقة الامتحان، لا أعرف ماذا كتبت ولم أكلف نفسي حتّى مراجعة ما كتبت، دبّت الفوضى في القاعة المجاورة لوجود ابن لشخصيّة كبيرة في القاعة يريد أن يعرف ماذا حدث، ويريد إدخال المذيع إلى قاعة الامتحان، ولكنّ طلبه قُوبِلَ بالرّفص، فانتهاز بعض الطّلبة الفرصة ليقوموا بالاستيلاء غير الشرعي على الإجابات، نقل مباشرة من الكتب أو بعض زملائهم المتفوّقين، بعض المراقبين تركوا الرّقابة والتّصقوا بالمذيع، خاصّة أولئك القادمين من الشّام تاركين القاعات في حيص بيص. صوت العرب من القاهرة... أحمد سعيد... البيانات العسكريّة... عدد الطّائرات التي سقطت بالعشرات، خرجت من القاعة، كان سمير ويوسف قد سبقاني إلى الخارج وبحثوا عن راديو حتّى وجدوا تجمّعاً حولهم بعض الطّلبة والمراقبين سألت: إيش صار؟ سمير: الحرب!

محارب: مين بدأها؟

سمير: اليهود.

محارب: آخر الأخبار؟

سمير: الجبهة المصرية أسقطت حوالي مائة طائرة حتى الآن، والجبهة السورية تستخدم سام ستة الروسية.

الانتصارات لم تكن على الجبهة المصرية والسورية فحسب، بل حتى الجيش الأردني الباسل قد تقدّم بقوّاته البريّة والجويّة إلى داخل الأراضي المحتلة، مسكينة هي إسرائيل فحظّها العائر أوقعها بين أشرس الدّول العربيّة وأقواها على الإطلاق وأكثرها عروبة ومطالبة بالوحدة العربيّة، في اليوم التّالي للحرب سألت كم عدد الطّائرات الإسرائيليّة، أجاب يوسف: لا أحد يعرف بالضّبط.

أمّا سмир الذي دقّق في السّؤال ردّ عليّ بسؤال آخر: ماذا تقصد بسؤالك؟ محارب: أقصد من غير المعقول أن تمتلك إسرائيل كلّ هذا العدد من الطّائرات، ولنفترض أن إسرائيل لديها هذا الكم الهائل من الطّائرات هل تملك الدّول العربيّة مجتمعة هذا الكم الهائل من المقاتلات أو حتى طائرات مدافعة، كنتُ أسمع من الضّباط الذين كانوا عند جدّك أن الدّول العربيّة جميعها لا تملك أكثر من أربعين طائرة فرنسيّة مقاتلة، كنّا في سيّارة يوسف نجوب الشّوارع، نستمع إلى الأخبار... بيانٌ جديدٌ ونصرٌ جديدٌ، إذا كان العرب ينتصرون على كلّ الجبهات... لماذا معركة جبل المكبر؟ سأل يوسف بتعجّب وهو العارف بالمنطقة أكثر منّي ومن سмир: قد تكون فرقة إسرائيليّة قد تسلّلت إلى هناك، وهذا يحدث.

أحسستُ بشيءٍ من الغثيان؛ فالسيَّارة لا تهدأ من الدَّوران في الشَّوارع، والأخبار فيها الكثير من المبالغة، ولم يخطر على بالي أنَّ الهزيمة كانت للجيوش العربيَّة وخاصَّة المصريَّة.

في المساء كانت نسمة علية من نسائم ليل تبوك القادمة من الشَّام في شهر حزيران الدَّافئ نسيبًا، فهو بداية الصَّيف تنقل معها رائحة التَّربة المميَّزة التي تعطَّرت ببعض من رشات المطر واختلطت بالأخشاب وأوراق الشَّجر والتربة وبعض الزَّهور البريَّة المتناثرة لتخلق رائحة من نوع خاص لا يعرفها إلَّا مَنْ سكن بالقرب منها في تلك الرُّوابي والأودية، الخلطة التي تغازل الشَّعور بنشوة انتصار كانت تحرِّك في ثلاثتنا لذَّة وحلْمًا جميلًا لا نريد أن يوقظنا منه أحدٌ، وكلُّ مَنْ يحلم بقضاء الصَّيف في أحد المدن الفلسطينيَّة الحرَّة أو على شواطئها، ونحن في أحلامنا في منزل زميلنا يوسف أو جوزيف، وهو من أصل فلسطينيٍّ، وصورة الرِّئيس العربيِّ تزيِّن الغرفة، ومؤشِّر المذياع كالعادة على صوت العرب لفت انتباهنا تكرر الإعلان عن خطاب مهمٍّ للرِّئيس، أغاني وطنيَّة، وعندما بدأ صوت الرِّئيس يعلن تنجِّيه عن المسئوليَّة، ويرشِّح نائبه ليخلفه الحكم، وإنَّ الحرب انتهت بنكسة عربيَّة أشدَّ وأكثر ضراوة من حرب ثمانية وأربعين، لم أستوعب في بداية الأمر ما يجري، اختلطت رائحة المطر بروث البهائم وعبير زهور بريَّة غضة تحاول أن يكون لها دورٌ في الحياة لتزكم وتعبِّي الجيوب الأنفيَّة الفارغة حتَّى من هواء نقِّي في أمنيَّة بدت رماديَّة اللون والطَّعم والرائحة، صاح يوسف وكأنَّه لا يريد أن يصدِّق ومَنْ يريد أن يصدِّق: الحرب خدعة... لا بدَّ أنَّ الرِّئيس يخدع اليهود بهذا الخطاب... ومَنْ كان له حيلة فليحتال... هل هو الوحي أم الحرب والخديعة يا رسول الله...؟ بل الحرب والخديعة، كلُّ ما هو مطلوب منك أن تثقَ في القيادات العربيَّة... القيادات الأمانة... القيادات الصَّادقة...

القيادات المأزق... الخائنون، وأخذ حذاءه وألقى بها على صورة الرئيس، وأخذ يجھش في بكاء مرير، أمّا سمير فقد كان يحدث نفسه بصوتٍ خافتٍ: خطاب مهمّ للرئيس خطاب مهم... مهم، ثمّ أخذ يلطم على خديّه كأنّه امرأة فقدت أولادها... ماذا حدث؟ كيف حدث؟ بدلاً من أن نطالب بتل أبيب ويافا وحيفا وفلسطين، أصبحنا نطالب بالصفّة الغربيّة والقدس وسيناء والجولان، وبخوفي لا نطالب بسوريا ولبنان وتضييع العراق... ظهر صوت الرئيس وهو يحاول التماسك معلناً تنحيه عن منصبه والابتعاد عن الحياة السّياسيّة كانت كلمات مقتضبة... خائفة... متحشّرة... بطيئة... باردة... سمجة... قاتلة كأنّها مخدّر يسري في جسدي، تجمّدت أطرافي، أحسستُ أنّ جسدي كلّ عاجزٌ عن الحراك والسّمع والفهم؛ فأنا لا أريد أن أسمع، جسدي أصيب بقشعريرة، الألفاظ تخرج من لساني غريبة ركيكة مضحكة؛ لأنّها لا تكون جملة واحدة مفيدة، أمّا سمير فقد فغرفاه كأنّه تاجر راھن على كلّ ما يملك في صفقة لا يملك إلّا أن يغامر بكلّ ما يملك، ولكن عندما نصدم بالخبر بالخسارة لا نريد أن نصدّق، ولكنّ الحقيقة تصفعنا عسى أن تنتهي عن المبالغة في عواطفنا وقدراتنا، يجب أن نتحكّم في انفعالاتنا وأن نقيم الأمور كما هي لا كما نريدها أن تكون، يوسف الذي ألقى بحذائه على صورة الرئيس ألحقها بالمذياع الترانزستور في حركة هستيريّة تحطّمت الصّورة وهوت مع المذياع والحذاء، وكذلك صوت أحمد سعيد على أرض الواقع المرير تحطّموا جميعاً كما حطّموا أحلام أمة العرب بأكاذيبهم وتضليلهم وشعاراتهم الجوفاء، مزّق يوسف قميصه وهو يبكي، أخذ يصبق على الصّورة ويرفس المذياع بقدميه وكأنّه كرة، نوبة من المستيريا، قال يوسف بحرقة: المصيبة فينا يا زنمة، والله بكرة يظهر التّاريخ أسماء الخونة ويعرّيهم أمام الملأ.

محارب: هوّن عليك.

يوسف: قادة خونة.

محارب: لا حول ولا قوّة إلّا بالله... قل لا إله إلّا الله.

يوسف: كلاب... خنازير... يهود... عملاء.

محارب: يا رجل... اخفض صوتك... لا تودينا في داهية!

يوسف: هذا هو... هنا مربوط الفرس... سكروا تمكّم يلعن أمكم بدهم

إيانا نخرس، نأكل تراباً ونخرس... يا زنمة الحمير وهي حمير تنهق من الألم

حتّى هادي ما بدنّاش نعملها... شطار يسجنونا ويختش...

محارب: صلّ على النّبي.

يوسف: الله ينتقم منهم ومن عياهم إن شاء الله.

محارب: صلّ على النّبي هديّ أعصابك.

يوسف: احنا إيش سوينا يا ربّ... لا بدّ في حاجة غلط... والغلط لا بدّ

يتغير.

محارب: ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ ﴿١١﴾ .

يوسف: صدق الله العظيم... نعم، يجب أن نغير ما بأنفسنا، وأوّل شيء

الحكّام.

محارب: لكلّ حادث حديث ولكلّ وقت أذان.

اتّصل مناحي بعد وصوله بأصدقائه أو شلّة تبوك، حيث إنّ له شلّة في

الرّياض وشلّة ثالثة في مكّة، الاجتماع كالعادة عند الشّيوخ، عقارب السّاعة

قاربت العاشرة مساءً عندما دخل على الشّلّة، وبعد العناق والترّحاب

وسلامة الوصول سأله سمير موجّهاً كلامه للقادم من الرّياض بعد أوّل

صاروخ: بالله... حكينا بالضّبط إيش صار، أقصد تجربتك من أوّل ما

سمعت البيان الي سمعناه كلّنا في التّلفزيون عندما وصلت عندنا هنا.

مناحي: كنت أنا ووضحة أمّ العيال في أسواق الموسيقى في شارع العليا عندما فاجأنا الإنذار، وقد حرصنا على الأولاد بعدم فتح الباب أو الشباك لمن ما كان، ولكن عندما وصلنا كانت صفارات الإنذار تدوي وكأنّها نعيق البوم أو غراب البين، دخلنا مسرعين وأغلّقنا جميع الفتحات، وتأكدنا من المؤن أن لا تصاب بتلف الكيماوي، وبالذات المياه، وتوجّهنا إلى البدروم المعدّ وهو عبارة عن مستودع تحت الأرض تمّ تجهيزه ليستوعب عائلتنا لفترة من الزمن، وبدءنا في ارتداء الأقنعة الواقية التي اشتريتها من السوق السوداء. قاطعه الشيخ: ولكنّ الدولة هي التي أمنت الأقنعة مجاناً.

(ردّ مناحي) كان في صوته شيء من الخوف والحياء: خرطى! (وحدث نفسه) يجب أن لا تنفعل، فهذه الحكومة قد وضعت حدوداً حتّى للحديث عنها تحت أيّ ظرف مثلها مثل أيّ دولة ملكيّة كانت أم جمهوريّة، شيوعيّة رأسماليّة أم غير ذلك، هذا في أيّام السّلم والأيّام العاديّة، فما بالك في مثل هذه الأوقات والتي يتحوّل فيها أعظم نظام ديمقراطيّ إلى نظام دكتاتوريّ، وتعلن فيه قوانين الطّوارئ أو المارشال أي القوانين العسكريّة (الطّاعة العمياء للقيادة)، فالخذر الخذر حتّى من شقيقك؛ لأنّ الأخ أو الصّديق قد يردّد الكلمة عن حسن نيّة ويستغلّها تجّار الحرب وتجّار الوهم، والمعجزات الزّائفة التي سيقومون عن طريقها بإصدار أمر بسجنك لحماية المجتمع منك ومن أمثالك، وذلك عن طريق خداع المجتمع واستغلال جهلهم وخوفهم الذي يعمي أبصارهم ويضللّهم، وبالتالي ينساقون كبهيمة الأنعام... زرافات ووحيداناً إلى حظائر مخصّصة، أمّا من يحاول أن يظهر الحقيقة أو جزءاً منها، ويقف ضدّ مصالحهم أو رغباتهم فعليه أن يختار واحدة من أبشع التّهم مع أحكامها المسبقة الإعدام، فمن خائن إلى عميل (جاسوس) إلى عضو في

الطَّابُور الخامس أو السَّادس! هل تعرف عدد الطَّوابير؟ ماذا لو سألك المحقِّق عن عدد الطَّوابير؟

هل تعتقد أنَّه سيتفهَّم انفراج صدغك أو أنَّ فغور فمك سينقذك؛ لأنَّ السَّوَال صعب وليس المسْئُول بأعلم من السَّائل! وإنَّك بريء براءة دم عثان من فتنة فرضتها حادثة! هل وقوفك كطالب بليد أمامه سينقذك؟ أم ستفضح جهلنا كشعب؟ استر علينا الله يستر عليك، وتعلم عدد الطَّوابير قبل فوات الأوان! وقد تكون صدّامياً أو ناصرياً، شيوعياً، بعثياً، وقد تصل إلى اتِّهامك بأنَّك ملحد، علمانيّ ماسونيّ كافر ويهدر دمك، وقد تكون أنت السَّبب الوحيد في انتكاس الأُمّة وخسارتها في حال وقوع خسارة وما أكثر خسائر الأُمّة، ولكنَّ الحقيقة كلّ الحقيقة أنَّ مناحي قد دفع مبلغاً محترماً مثل غيره لشراء أقنعة ورشاش من السَّوق السَّوداء للدِّفاع عن أسرته إذا احتاج الأمر إلى ذلك.

إنَّ الحياة في الزَّمن المعلَب تحتاج إلى أكثر من أقنعة حماية من التَّلَوُّث البيولوجي، والأخطر الأيديولوجي أو الأنثروبولوجي الذي أخذَ يتبسَّج ويحترق خصوصيتك من خلال الأثير ليضع أمامك مواده، وعليك أن تسير بحذر في متهاته بين حقول الألغام والقنابل وأشعة الليزر وتقنية ما لا تعلم عنها أكثر بكثير مما يتفضَّل عليك أربابها من فتات مائدتهم الدَّسمة لتختار أفضل الأسوأ، ولا تنسَ أن تدفع الفاتورة، فالمسبقة الدِّفع تمكِّنك من الحصول على تخفيض بقدر زمن استثمار قيمة الفاتورة في الأسواق الماليَّة التي تسحب من دم وعرق العامل الفقير؛ لتزيّد من فجوة الطبقيَّة التي كان أجدادنا يلعنونها وينعتونها بالإقطاعيَّة، فأصبحنا نستنشقها ونستطعمها ونستسيغها؛ لأنّها - وبكلِّ بساطة الكلمة - تقطع أجسادنا وأرحامنا وتفصل أجزاءنا وتصنّفهم مجموعات، مجموعة من حقّها كلّ شيء ولا واجب عليها،

وأخرى من واجبها عمل كل شيء ولا حق تنتظره، حتى لو كلمة شكر أو خطاب تقدير بإنهاء خدمة، وبين هذه وتلك يدور صراع جذب وشدّ قباش وطن يتمزق من داخل خلاياه أكثر من تمزقه من جروح سطحيّة خارجيّة، أبلاء التّريع لكثرة الشّقوق التي داهمت في غفلة الرّمن، قد يدّعي أحدهم أنّ النّظام لا يعلم عن أولئك الانتهازين ولكن هنا ينطبق قول الشّاعر:

إِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فِتْلِكَ مُصِيبَةٌ وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي فَاَلْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ

أكمل مناحي: على كلّ حال لما شافت البنت الصّغيرة (رابعة) الأقنعة صرخت من الهلع، فهبّانا وحنا لابسين الأقنعة كأننا قادمين من خارج الكرة الأرضيّة وتشنّجت في بكائها؛ ممّا اضطرنا إلى خلع الأقنعة، وتركناها قليلاً، وكان هذا من فضل الله علينا؛ حيث إنّها كانت قديمة وفاسدة، بل من بقايا الحرب العالميّة الأولى وليست الثّانية، يُقال إنّ البعض مات بسبب إصراره على الحياة ولبس الأقنعة ليتفادى الكيماوي، ولم يعلم أنّ الكيماوي لم يرسله نظام صدام الفاسد، بل فساد النّظام الصّدامي في كلّ العالم العربيّ، تحيّل أن تشتري الموت بمالك وتحمله بيدك لتقتل أعزّ ما تملك روحك، أمّا ملف الحادث فشماعة القضاء والقدر خير من نعلّق عليه جشعنا وطمعنا وأخطاءنا المقصودة وغير المقصودة.

سرح مناحي بفكره قليلاً وأكمل: أمّا الولد عبود فقد كانت عيناه ككرة تنس طاولة في مباراة بين بطلي العالم لا تستقرّ، يرفض أن يلبس القناع، يرتعش بدون دموع، وحنا على هذي الحالة ما سمعنا إلّا الانفجار وكأنّ صدام يقصدي وعائلي قصداً، والله الواحد الأحد البيت انهزّ من ساسه فراغ الهواء السّاخن من أثر الانفجار أدّى إلى خلل، وبالتّالي اهتزّت المنطقة، قفزت الصّغيرة رابعة لحضني، ضمّيتها لصدري وحسّيت إنّ ماءً ساخناً قد انساب في عبيّ أعلم مصدره، انتظرنا قدرنا لو في كيماوي مع السّلامة فهذه هي

النهائية، عيوننا تراقب بعضنا، وبعضنا يراقب عيون بعضنا، وكذا مرّت دقائق وحنّا منتظرين حكم الإعدام لمدينة، الألسن لا تكف عن ذكر الله والدُّعاء، فترة هدوء ما قطعها غير أصوات سيّارات الإسعاف، وبعض من رجال الأمن الذين آمنوا برسالتهم وفدائهم لوطنهم وأبناء وطنهم من المدنيين، ضحّوا بأنفسهم ليسعفوا مصابًا، رنّ جرس الهاتف، صوت من الطّرف الآخر يطمئن ويطمئن واتّصل الشّيخ الذي قاطعه معلّقًا ومشاركًا: لما عرفت إن الصّاروخ نزل على السّليمانية في الرّياض اتّصلت بمناحي بسرعة لأطمئن، وقلت له تعال هنا أفضل وأبعد، قلت له قبل الضّرب تعال عند هلك وربّك لكن في ناس ما تمشي غير بالضّرب، علّق أحمد مستغلًا انفلات الحديث من مناحي، خاصّة أنّ الرّاوي يرتشف من عصير المانجو الطّازج الذي أحضره الخادم احتفاءً به قال: الحقيقة إنّ المعلومات ما كانت وافية، والمصدّاقة قريبة من صفر التّجمّد أكثر من دفء الشّفاية خوّفوا النّاس من القنابل، يتهيّأ لي أنّ رعب الموت أكبر من الموت نفسه بينما الحقيقة المعروفة إنّ الموت حقّ.

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ تَعَدَّدَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ
من كلام حبيبنا مناحي... يمكن ناس فعلاً ماتوا من الأقنعة، والسّبب الطّمع والجشع، راكبين على الجهل والخوف، كلّ هذا من أجل حفنة من الدّولارات.

راشد الذي يشارك في الحديث لأوّل مرّة هذه المرة، كان مشغولاً بقراءة أوراق في يده باللغة الإنجليزيّة، ويقوم بترجمتها على أوراق أخرى: الحقيقة أنّ مشكلتنا في الإعلام... الإعلام العربي صفر... لا توجد محطة عربيّة واحدة تستطيع أن تنقل صورة واضحة وحقيقة عن حدث معيّن.

سمير الذي يحب أن يجادل "راشد" في أي شيء: اكفيننا شرك يا راشد وسيب العرب لحاهم، أنت بدوي مانت عربي زينا.

علق راشد بعدما تبسم على تعليقات سмир: أنا يوم كنت في الجامعة جانا دكتور سوري اسمه الحاج حسين أستاذ اللغة العربية قال لنا إنه كان وزير إعلام لمدة ستة وتسعين ساعة، بس أيام الانقلابات السورية المشهورة في التاريخ، ومن حسن حظّه أو سوءه - الله أعلم - كان مؤتمر وزراء الإعلام العرب يُعقد في القاهرة، الغرض من المؤتمر هو تخفيض درجة التضليل من خمسة وتسعين في المئة إلى تسعين في المئة، وانتهى اجتماع المتأمرين وليس المؤتمنين على الأمة العربية بموافقة الجميع على بقاء النسبة كما هي، وكأنهم أقرّوا فقرة كُتبت في كتاب لويس - فردناند سيلين - تصف العالم بأنّه عالم تعفن بالكاذب حتّى وصل إلى درجة الانهيار والتحلّل.

الشيخ: كمل... كمل يا أخو بدوه وسيبك...

مناحي: أبدأ طال عمرك... بعد الانفجار خطّيت المونة في السيّارة وأخذت هلي ومسكت خط الحجاز، قلت أجيب عمرة وأزور قبر الحبيب في طريقي لكم.

لا يمكن الحصول على الأخبار إلّا عن طريق المذيع في السيّارة، وعن طريق الإذاعة البريطانية العربية، وهناك من يقوم بالتشويش على المحطة والمحطات الأخرى، ويرغمك على مشاهدة التلفزيون، القناة الأولى، وبالتالي اشتهرت فيما بعد بغضب واحد ممّا يساعد على نشر الإشاعات وربكة الشارع في ملاحقة تصحيح الأكاذيب بتكذيب الحقائق، والدخول في دوامة خلط الأوراق والكروت، وبالتالي تتسلّى في البحث عن مخرج المتاهة، الأخبار تقول مشادة بين وزير الخارجية السعودي وأمين عام الجامعة. تبسم راشد وقال: أقرّوا الفاتحة على الأمين العام للجامعة.

غمز (الشيخ) أحمد الذي كان مشغولاً بشرب حساء الذرة بالدجاج: بدأ التنجيم.

راشد بنبرة تحدّ: قراءة ما بين السطور ما هو تنجيم يا طويل العمر، العملية تحتاج متابعة وربط لا... أزيدك من الشعر بيتاً... الجامعة العربية راح ترجع القاهرة بدل تونس.

سمير بعد أن أخذ الإشارة من الشيخ: ليش ما تشتغل كاهن... حقّ (دنبوشي) والله الأندية عندنا فيها مجانيين كثير، ويصدّقوا الكلام الفاضي هذا، وبعدين ترى ضريبتها ثوب زي حقّ الأفارقة وسبحة طويلة، شوف كم سبحة والضمها في بعضها و(مرش) اخلط الشخان مع الموية واللبن ومبخرة وشوية بخور جاوي على لبان ذكر راح تلاقي زباين وفسر الأحلام وطلق وزوج وحبل... (وضحك).

راشد مقلداً صوت سمير: بخور... ذكر... حبل... ذكر ينفضك لين ما تحبل يا حمر يا عطر يا وجه العنز السوري (ضحكات الجميع).

لم تمض أكثر من ثمانية وأربعين ساعة حتّى تمّ عزل الأمين العام للجامعة، عادت الجامعة العربية لمقرّها في مصر بعد أن علّق عضويتها العرب بقيادة صدام العراق، عادت الجامعة إلى القاهرة بمساومات من مبارك مصر، المهم تحقّقت قراءة راشد للمستقبل، انقسم العرب إلى عدّة أقسام، الظاهر صفين، والواقع إلى أجزاء صغيرة، تستمع إلى المذيع كلّ إذاعة لها رأيها ولها أولوياتها، أمّا المضحك المبكي فإنّ إذاعة إحدى الدول العربية ذكرت أنّ صاروخ سكود العراقي ضرب الرياض وعاد إلى قواعده سالمًا.

بدأ الجميع يستمع لراشد الذي بدأت غطرسة العلم ونشوة الغرور تحتاج مواجهته العاملة دون تهوّر حتّى لا يقع فيها لا تحمد عقباه، ولكن من حقّه أن ينتشي بنصر على الجهل، وعندما سمع خبر الإذاعة العربية علّق بسخريته

المعهودة من الجهل والجهلاء: هذه نتيجة الخمسة وتسعين في المائة من الكذب والتّضليل، وينك يا عميد الأدب العربي غير المتوّج، وينك يا حاج حسين سلبوك عمادة الأدب وأعطوها لطف حسين، هل كنت فعلاً تستحقها أم كان هناك في مكان ما من العالم العربي مَنْ هو أجدر منك ومن طه حسين بهذا اللقب.

أخذ سمير يداعبه: فضحكوك والله يا حبيبي في شوارع باريس وحديقة غابات بولوني، ومع سكّانها المحترمين والمثقفين الذّكور والإناث والبين بين. ردّ عليه راشد: ويش حشر باريس ما أقول غير حسبي الله ونعم الوكيل، ويا أمّة ضحكت من جهلها الأمم.

قال الشّيخ: تفضّلوا العشا الله يحكمكم وكملّوا الحديث بس لا تتكلّموا كلام سامج على نعمة الله. علّق خليل الذي لا يتكلّم إلّا في أندر النّادر: الله يديمها عليك يا أبو سيف.

الشّيخ: جزاك الله خيرًا.

الحرب لاتزال نارها موقدة، لكن لا أحد يعرف ماذا يجري أو ماذا جرى، الجميع يتفق على شيء واحد فقط، أن تقف تروس عجلة الحرب إلى الأبد ولتنقل حركة دورانها الذي لا بدّ منه امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ﴿٦٠﴾ إلى أيّ مكان آخر.

منزل الشّيخ يستقبل الشّلة يوميًا، إنذار من مذيع التّلفزيون في القناة الأولى، اقتراب صاروخ من مدينة الرّياض، كانت دموع مناحي محبوسة في عينيه، ولكن مَنْ يمعن النّظر فيهما يحسّ أنّ هناك حزنًا وألمًا وغموضًا بالرّغم من البريق الذي لا يعرف أحدًا ما هويّته وكيف تبلور، حتّى الشّيخ الذي يلاحظ الجميع كانت تقلقه نظرات مناحي الجديدة، أمّا عندما أعلن عن

سقوط صاروخ على مجمع للأمريكان في الظهران وقتل العديد منهم فإنَّ الثَّقة بدأت في الاهتزاز نوعاً ما، ولكن عندما أعلن دخول بعض القوَّات العراقيَّة إلى الخفجي اشتدَّ النَّقاش بين راشد وأحمد حتَّى كاد يخرج عن إطار الأدب المطلوب، بدأ النَّقاش بهدوء وبيعض التَّعليقات على الحدث، وأنَّ الحرب كُرِّ وفُرَّ تذكر مناحي حديث والده عن حرب النِّكسة وعن انتصارات العرب الوهميَّة والحرب في جبل المكبر وسقوط الضَّفَّة الغربيَّة في يد اليهود هل تتكرَّر الأزمة؟ وبدل أن نبحت عن تحرير الكويت يترجَّى العالم صدام أن يحرَّر بئراً واحدة من آبار بترول المنطقة الشَّرقيَّة، وبالتالي نبقي أكثر من خمسين عامًا بين دهاليز المحاكم وممرَّات الملفَّات، لم يخرج من ذكرياته وأفكاره السَّوداء إلَّا صوت راشد الذي بدأت نبراته ترتفع سائلاً: وين قوَّاتنا المسلَّحة؟

القفز على الأسلاك الشَّائكة في النَّقاش وتعدَّى النَّقاط الحمرى في زمن المسموح وغير المسموح، ولكن يتلاشى الخوف عندما يئنَّ شبر من تراب الوطن، قوَّة غريبة تظهر فجأة، حتَّى أولئك الذين كنت تظنَّ أنَّهم مرءون ومنافقون ومنتفعون قد تجد منهم مَنْ يريد أن يطمئنَّ على ما انتفع، ومَنْ حسبت أنَّهم توابع أو كما يُقال (مع الخيل يا شقرا) فجأة تجد لديهم الشَّجاعة على النَّقاش، والمحاسبة، والقتال أيضًا، سؤال كالقنبلة فجَّره صوت راشد الذي اختلط بدموع الألم والتَّحدِّي والاستعداد لدفع الثَّمن مهما كان هذا الثَّمن فقط يريد إجابة على سؤال صدمَ الجميع: ويش يدبَّرون هناك؟

سمير الذي حاول أن يلطِّف الجوّ: يلعبوا بلوت!
ولكن كلمات الأخير كانت كَمَن يريد أن يكحلَّها فعمهاها، الجميع في صدمة الحدث وصدمة السَّؤال والأسئلة التي سيطلقها راشد كطلقات رشَّاش لا ترحم ولا تفرِّق، أو تعرف بل لا تريد أن تعرف مَنْ يقف أمامها،

كانت كلمات أحمد واضحة وأمرة ومنذرة ومحدّرة في الوقت نفسه: سبق وقلنا ألف مرّة سيبك من الفلسفة يا راشد!

صاح راشد بدون أن يتمالك نفسه أو يعطي أحدًا فرصة للحديث: فلسفتي... جيشنا نايم... وصدام في الخفجي وتقول لي فلسفتي... ولا تبيني أسكت... الله عليك دير... والله صدق الشاعر يوم قال لو حكينا ندمنا، وإن سكتنا قهر صحّ لسانك يا حكيم زمانك يبوني أنظم نسكت لين الخسيس يصل الكعبة ويشق عبد الله بن الزبير، تعال يا حبيبي شوف من يبيني أسكت (أخذت الدّموع تختلط مع نبرة صوته وتنساب على خديه) والله... الله في سماء ما أحد جابنا ورا غير أنت وأمثالك من الانبطاحيين.

علّق أحمد بهدوء وخبت: أقول... انظم من أنت؟ الشيوخ أبخص يا حبيبي!

راشد: الشيوخ أبخص هددني... تراني مرّة زيك... والله خوفتني بكلمة... يا حبيبي شيوخنا حنا اللي بايعناهم ويحتاجوا النصّح الأمين، ما يحتاجوا المنافقين والطقعانيين أمثالك الإمعة يس سير وادهن السير يسير خربتموها يا أولاد الكلاب وقعدتوا على تلّها، الله يلعن من جمعكم.

صاح "قليل" وهو يعمل لدى الشيخ ومسئول عن القطاع العقاري لأُملاك الشيخ: ويش يرطن هذا.

راشد يشدّ شعره بعد أن ألقى بالشّاغ والطاقيّة والعقال: يا ربّ رحمتك ها لسنين كلّها والدّولة فاتحة مدارس وتعلم والجهل ساكن أصادي وبحبّه، أبيع لكم البيعة اسمعوا بيت الشعر هذا:

فَلَمَّا رَأَيْتَ الْجَهْلَ فِي النَّاسِ فَاشِيًا تَجَاهَلْتُ حَتَّى قِيلَ أَنِّي جَاهِلٌ

ردّ أحمد بشيء من السّخرية: هو الجهل كمان اتهمته بالفاشية، أنا كنت أظنّه شيوعيًا، يا حبيبي احقن دمك، الشيوخ ما هم بحاجة لنصايحك.

الشيخ والحنق يغلي داخله كمرجل نار: اتفضّلوا العشا.
لم يتحرّك أحدٌ من مقعده سوى حامد الذي اعتذر عن تلبية الدّعوة
للعشاء في هذا المساء، وطَلَبَ الذّهاب إلى الغرفة المجاورة، وهي عبارة عن
مجلس عربي لأداء الصّلاة وتلاوة القرآن والدّعاء، علّق راشد على كلام
حامد: نبي رجال تشيل سلاح وتحارب وتحرّر الخفجي يا الرخمة، ما نبي أحد
يقرأ القرآن خليّ هذي لكبار السنّ والحريم... يا...
حامد بهدوء: ساحك الله وهداك لما يحبّه ويرضاه.
راشد: الله راح يسامحني غصب عنك لأنّي نظيف من جوا البلا ما أعرف
أسكت مثلكم.

أحمد: ليش ما تروح تحارب وتترك المسكين.
(حامد ترك الصّالون بعد أن استأذن من الشيخ ولم يعر أيّاً منهما أيّ
اهتمام).

راشد: والتّدوير في المخ أفضع أنواع التّدوير، حنا نحتاج لميزانيّة لإعادة
تأهيل هذي البشريّة، رحنا مرقه يا راشد، وجيت في زمان ما هو زمانك
ولا... والحظّ الدبر دفك على ها الشّلة.

قاطعه سمير: ميزانيّة... ومناقصة... وبلع... ناقصنا... اهبط خاصّة أنّنا
مشهورون بالحمير، مما يعطي للجّهات المعنيّة طلب ميزانيّة أكبر، بمناسبة
الحمير، اسمعوا هذي النّكتة: واحد قال للثّاني:

مين أذكى الحمار ولا الإنسان؟

قال الثّاني: الإنسان طبعاً.

قال الأوّل: ومين اللي يقلّد الثّاني الذّكي ولا الغبي؟

قال الثّاني: الغبي طبعاً.

قال الأوّل: عمرك شفت حمار يتكلّم زي النّاس.

قال الثاني: لا.

قال الأول: بس شايف ناس كثير تتكلّم زي الحمير.

أحمد: إشاعة... قرأ كتابين وقال مثقف ويتبع الإشاعات، ويقول عندي

علم... علم مكوتي!

قليل: ما في نار من غير دخان.

أحمد: نحتاج لإثبات بلاها نلقي بالتّهم.

حامد: هذا لعب في كبدا.

ردّ راشد: الحق إنّ الواحد معاكم ما يبي له غير يسكر تمه ويعمل حمار...

وجاهل...

ردّ أحمد: يا حبيبي احقن دمك... الشّيخ ما هم بحاجة لنصائحك، ومن

الأفضل أن توفرها على نفسك.

قال قليل: ادعوا لهم بالبطانة الصّالحة.

قال سمير: مرّة في صلاة الجمعة الإمام يدعي لهم بالبطانة الصّالحة، واحد

من البطانة قال: آمين، قال له زميله من البطانة لا... طاعون... لا تقول آمين

يطيرونا.

قال راشد: يا أخي لو تقدّم واحد من الشّيوخ وأصرّ على قيادة الطّائرة،

وهو ما يعرف يسوق ما تنصحه لأنّه في هذه الحالة راح يموت نفسه ويموت

غيره ونقول الشّيوخ أبخص، الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم قال:

﴿وَأْمُرْهُمْ شُرَآئِهِمْ بَيْنَهُمْ﴾ ١٨، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَسْأَلْ بِهِ

خَيْرًا﴾ ١٩، وفي آية أخرى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا

تَعْلَمُونَ﴾ ٢٠، ودعاء سيّدنا موسى ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ٢١

هَرُونَ أَخِي﴾ ٢٢، أشدّد به أزرى ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ ٢٣،

ليتنا بس نتقدّم ونقرأ ونعي ديننا كما أنزله الله، في الأمور المهمّة نحن ما نسمع

في التليفزيون غير تحروا الرؤية، دخل شهر شعبان، تحروا رمضان، تحروا العيد، والآيات التي تذكر بالصيام والحيض والنفساء والحج، أمّا ما يخصّ أمور الأمة وشؤونها وتقنين الشريعة أو تشريع القوانين ومخافة الله في الأمة أن يستشري فيها الفساد منك ومن أمثالك الي ما يعيشوا غير في القذارة مثل الحشرات الضّارة فلا وألف لا.

تحرّرت مدينة الخفجي وعادت الكويت، وتشتّت الاتحاد السوفيتي، وانتصرت الديمقراطية على الدكتاتورية كما قال البعض، أمّا الآخرون فقد قالوا هو انتصار الرأسمالية على ماركس ولينين، وآخرون قالوا أنّه انتصار الاقتصاد الحرّ على الاقتصاد المخطّط (ولكن حتّى الرأسمالية تخطّط لاقتصادها). هل انتهت الشيوعية؟ هل العالم سوف يقسم إلى دول صغيرة؟ من سوف يقسم غدا؟ بريطانيا؟ هل سوف نرى المملكة الاسكتلندية أو الجمهورية الاسكتلندية؟ وجمهورية ويلز؟ وتنضمّ أيرلندا الشّمالية إلى الجنوبيّة؟ وانجلترا؟ كلّ دولة لوحدها، أوروبا الشرقيّة؟ ولمصلحة من هذا التقسيم؟ إسرائيل؟ أم الولايات المتّحدة الأمريكيّة؟ وهل هناك فرق؟

نعم (أجاب راشد على سيل الأسئلة التي أفرزتها الجلسة في هذا المساء) فالإسرائيليّون يعتقدون أنّهم يستغلّون الولايات المتّحدة الأمريكيّة في شراكة الخاسر فيها أمريكا، والأمريكان يعتبرون الإسرائيليّون مجموعة من كلاب الحراسة الأمريكيّة في المنطقة، وهذه اللعبة حسّاسة وخطيرة، خاصّة إذا ظهر على السّطح التّنافس الشّخصي بين رئيس وزراء إسرائيل ورئيس الولايات المتّحدة الأمريكيّة. ولكننا نجد أنّ كلّ رئيس لدولة إسرائيل يحقّق لدولته مكاسب على حساب خسائر في الاتجاه الآخر وهو أمريكا التي تجبر الخسارة الماديّة على دافع الضّرائب وعلى المواطن العربي، وتحتفظ بخسارة الحقد على

كلّ ما هو أمريكيّ من الشّارع العربيّ والإسلاميّ، وبالتالي استطاعت إسرائيل أن تحوّل أعمال العنف التي كانت تدمّر مكاتبها ومصالحها في العالم إلى تفجير وضرب للمصالح الأمريكيّة، وبدأ النّسر - يخرج من دور الدّيمقراطيّ إلى دور القاتل والمعتدي الذي يؤمن بأنّ الدّيمقراطيّة هي تلك التي تخدم مصالحه، وظهرت التّجربة الدّيمقراطيّة في الجزائر، فبعد نقاش بين أمريكا وفرنسا على موضوع الجزائر والمعلومات الخاطئة التي بحوزة الفرنسيين أنّ الإسلام انتهى من الجزائر وأنّ العلمانيين هم المسيطرون، لم يعرفوا أنّ الفرق بين العلمانيّ المسلم والعلمانيّ غير المسلم أنّ الإسلام أهمّ من أيّ شيء في حياة المسلم مهما كانت درجة انحرافه أو بعده عن ممارسة شعائر الإسلام، وأنها بذرة لا تخرج إلّا بالشّهادة لأنّها زرعت في جسم المسلم بالشّهادة أيضًا، شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّدًا رسول الله، أمّا نزاعها من جذورها فيجب خروج الرّوح معها؛ لأنّها معلّقة بالرّوح، والمسلم يكاد يكون الإنسان الوحيد الذي يوازن ما بين نظريّة المصالح ونظريّة المبادئ إذا تمسّك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، الإسلام فكر ومنهج وحياة للمسلمين؛ ولذا نجح الحزب الإسلاميّ في أوّل انتخابات حرّة في الجزائر، وكان الانتقام مهولاً من النّاحيين لا لشيء إلّا أنّهم يظهرون ما لا يبطنون، فألغيت الانتخابات، وغضبت الرّاعية فرنسا وطلبت من عملائها الانتقام؛ فكانت مجازر الجزائر تحت الدّيمقراطيّة ونظرة الحياريّ من البشر حول العالم. سأل سмир؟ هل أقنعت إسرائيل أمريكا بتقسيم الدّول الكبيرة وتفتيتها لكي تستطيع السّيطرة عليها؟ هل سنجد يومًا ما أنّ الصّين قد خرجت منها دول صغيرة متناثرة هنا وهناك؟ وأنّ الصّين لا تتعدّى بكين وبعض القرى والمدن الصّغيرة المحيطة بها؟ ولكن لماذا سمح لألمانيا الشرقيّة أن تنضمّ لألمانيا الغربيّة؟ هل فعلاً لإضعاف الاقتصاد الألمانيّ القويّ؟ وبعد ذلك تقوم حرب

أهليّة ألمانيّة تؤدّي إلى ضعف ألمانيا وانتقام اليهود من كلّ ما يمتّ لتلك الأرض بصلة.

ما دور الولايات المتّحدة الأمريكيّة بعد سقوط الشيوعيّة...؟
سؤال طرحه (راشد) في إحدى الأمسيات الرّمضانيّة بعد الحرب، وأخذت الإجابات تأتي من كلّ اتّجاه، وكلّ يدلي بدلوّه: بوليس للعالم عندما تزنق اتّصل على ٩٩٩ يرّد عليك (رئيس الولايات المتّحدة)... لا تساوم كثيرًا مع الأمريكيين؛ لأنّهم سوف يحسبون عليك وقت المكالمات (الوقت عند الأمريكيين فلوس... دولارات).

علّق (قليل) : محاربة المافيا.
علّق (سمير): لا... لا يا "قليل" لا تدلّهم على المافيا؛ لأنّ النّظرية العلميّة تقول إنّك لو قضيت على شيء فإنّك تترك فراغًا يجب ملؤه، والأمريكيّون لو قضوا على المافيا راح يقوموا بدورها، وهذا هي المصيبة الأعظم.

علّق (أحمد): محاربة المخدّرات.
علّق (سمير): ليش ما تقول (تقنين) تجارة المخدّرات وتحويل المبالغ إلى الخزانة الأمريكيّة لتقليل فارق ميزان المدفوعات.
قال (راشد) محاولاً تقليد أمريكيّ زنجيّ:

YOU ARE ANTI AMERICAN FUCKER –

(وأكمل)... الحقيقة إنّ الأمريكيان يحتاجوا الفلوس أكثر ممّا، يستفيدوا منها في الأبحاث العلميّة، والطبيّة، والأسلحة النّوويّة، والعلوم الفضائيّة وطوّروا العمران وأبحاث الطّيّران والاتّصالات والمواصلات عن طريق الكمبيوتر أو الحاسوب، كما يحلو للبعض أن يسمّيه، تستطيع تخزين ملايين المعلومات ونقلها من بلد لبلد في ثوانٍ، أمّا الإنترنت فسوف يكون أهمّ

وسائل اتصال العالم؛ فتستطيع عن طريق الكمبيوتر أن تتحدث مع شخص آخر بالرسائل ويرد عليك في الوقت نفسه، وهناك أبحاث للهاتف المرئي تستطيع أن ترى محدثك على الشاشة إذا رغبت.

المهم نفعلوا البشرية، احنا أكبر همنا بين فكينا وفخذينا... تلاقي الرجال منا ما يصدق على الله يعطوا له مجال يتكلم قام وقال كلام لو حسبت الفائدة التي تخرج منه ما تجد شيئاً جديداً غير كلمات رنانة يسموها في اللغة العربية (البلاغة)، والله فلان بليغ، بليغ حمدي (ضحك) ويش أضاف لنا هذا البليغ الذي يجتر كلمات الأولين كعنز تجتر الشعر بدون إضافة جديدة، ولا الشعر الله... الله... ثلاث أرباع الصحف العربية قصائد (شعر موزون، شعر حديث، شعر نبطي، شعر شعبي، زجل، شعر غنائي، الله ودك لو الخليفة الهادي يعود ويجلد هؤلاء المنافقين المتفعين لما وجدت شاعراً مداحاً نباحاً في بلاط حاكم أو أمير أو مسئول، ولما وجدت حاكماً مغروراً يعتقد أنه وصل إلى درجة الآلهة، ألم يقل الشاعر لأحد خلفاء الفاطميين:

مَا شِئْتَ لَا مَا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
فَكَأَنَّمَا أَنْتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ وَكَأَنَّمَا أَنْصَارُكَ الْأَنْصَارُ

وهل يوجد شرك أكبر من هذا؟ وهل يوجد نفاق ورياء أكبر من ذلك؟ وهذا ما أصاب الحاكم بالغرور، ومن ثم الخطأ في القرارات، وبعد ذلك تدمير الدولة وتدمير نفسه وأسرته، أو لا نقرأ التاريخ ونتعظ منه ولو بعد فترات؟ رحمك الله يا ابن الخطأ فقد كنت مدرسة عندما تقول: عندما أحس في نفسي الكبر أمرغ أنفي في التراب لكي أذلها، ويختلف العرب من الشعراء، البعض مؤيد والآخر معارض لهذه الفئة أو تلك، وكأننا لازلنا في سوق عكاظ، وكأن المعلقات سوف تعيد لنا الأرض المحتلة أو كرامتنا. أما إذا تحرك ما بين فخذينا (وجينا عامر) فعلى العواصم يا حبيبي إذا ما

عجبك اللي في الغرب روح الشرق، وما خلّينا ما شاء الله علينا قرية ما فسدنا فيها، واصرف في الليلة من العملة الصّعبة من أموال البترول على حفنة من بنات الهوى أو الجنس الثالث والخمر والميسر).

بعد العشاء والجميع يرتشف الشّاي قال "قليل": أنا إلى الآن ما ني فاهم ويش الطبخة...؟

أجاب "مناحي" متمنطقاً باللغة العربيّة الفصحى: أيّ طبخة تعني يا هذا؟ فالطبخ كثير.

ردّ "قليل": طبخة الحرب... والآن تقديم الفواتير... وشدّوا الحزام.

قاطعه "سمير": يا مسكين وأنت مهو بناقصك... جلدة على عظمة.

قال بجديّة "قليل": لا... صدق ويش السّالفة...

علّق "أحمد": لا سكت لك حسّ يا فيلسوف الزّاوية.

قال "راشد": خوفي أقول تقولوا... الحقيقة وديّ أوضح لكم شيئاً...

هذي الحرب بدأت عام ثلاثة وسبعين ميلادي (وخرجت ونة لم يستطع

إخفاءها) في حرب أكتوبر ثلاثة وسبعين بين العرب وإسرائيل واللي سمّاها

العرب حرب العبور، اتفق فيصل والسّادات - رحمهما الله - على قطع

البترول عن الأميركيان، أنا في ذاك الوقت كنت في جامعة إلينوي في مدينة

صغيرة جامعيّة اسمها بلوم نجتن شاميين أوربانا... الحقيقة هم مدينتان

بجوار بعضهما، لا يفصلهما عن بعضهما غير شارع واحد، يعرفها "مناحي"

ترى أخذ فيها دورة لمدة سنتين، في ذاك الوقت هاج الشّارع الأمريكي وماج

والسّبب الإعلام اليهودي، اجتمع الكونجرس وظهرت أصوات تنادي

باحتيال آبار البترول، وعلّق أحد أعضاء الكونجرس، ولماذا نحتلّ دولة

ونخاطر بأبنائنا؟ أين أبنائنا الآخرون؟ ويقصد أولئك الذين تعلّموا في

المدارس والجامعات الأمريكيّة، وأنّ ولاهم سوف يكون لأمریکا. بعدها

قدّم أحد أعضاء الكونجرس ورقة بأن نعمل على برنامج تحريك قوّاتنا بأسرع وقت إلى منطقة الخليج للسيطرة على الموقف في أيّ وقت، بدل الخنوع لرحمة البدو الذين يسيطرون على ثروة دوليّة، لقيت الفكرة تأييدًا كبيرًا خاصّة من الشّركات.

علّق أحمد: على فكرة رجال الأعمال هم اللي يضغطوا على الحكومة في واشنطن، والحكومة الأمريكيّة حكومة مؤسّسات.

قاطعه فالح، وفي كلماته كثير من الخبث: الله... يا شيخ لو إنك بغناك ونحك الجبّار في أمريكا كان زمانك تلعب بالسياسة الأمريكيّة لعب.

صمت الجميع، فالحقيقة أنّ "الشيخ" رجل متّزن، مثقّف مؤدّب، محترم، غيور على دينه وعروبه بعقلانيّة تكاد تكون مثاليّة، فهو مثاليّ لدرجة أنّه لا يترك حمّام الطّائرة بعد أن يستخدمه حتّى يقوم بتنظيفه وترتيبه كما أن لم يستخدمه أحد، منتهى الحضارة والرّقّي، وثناء يعلم الجميع أنّه تعب كثيرًا لجمعه واستثماره الاستثمار الأمثل، ما عدا "فالح" الذي كان دائمًا يشكّك في الطّريقة التي جمع الشيخ بها الأموال، وينعته بأنّه يمثّل، تحمّس "قليل" منهيًا تأثر الجو من حديث "فالح"، وقال: والله... كلامك حلو يا راشد وبعدين...؟

وأكمل راشد: وفعلًا قامت الدّنيا في أمريكا، وبدأت فرق العمل على وضع السيناريو.

قاطعه "فالح": وش هو...؟

ردّ "راشد": اللهمّ طولك يا روح... تراك زقيت في كبدي يا طالح أنت طالح ما أنت بفالح.

فالح: يا أخي تكلم بالعربي وسبيك من ها الخرابيط... عشان نفهم.

راشد: ليتك تفهم أنت ودك تهرّج وبس وتقاطع النّاس وبس... ما ودك

تسمع... ما ودّك تفهم. الله حسبي عليك ولد.
قال "قليل": كمل... كمل وسيبك من تعليقاتهم والله... أنا تعجبني
فلسفتك.

أكمل "راشد": وفعلًا بدأت ورش العمل هناك، واحنا هنا نائمين في
العسل... وصدر في العام نفسه كتاب في أمريكا باسم CRASH OF 79
يعني صدام تسعة وسبعين يا فالح... هذا الكتاب يتنبأ فيه الكاتب عن
حدوث حرب في الخليج، وأنّ شاه إيران راح يعمل قنابل خاصّة (لأهل مكّة
والمدينة) تنومهم فقط، أمّا الرّياض وبقية المدن تقتل البشر وتترك المدن كما
هي، الكتاب مثير، سمعت أنّ من ضمن التّمثيلية... بلاش نقول سيناريو
حتّى لا يغضب علينا حفيد سيبويه الأخ "فالح" أنّ (الرئيس ليندون
جونسون) قال للشّاة إنّ من قراءاته للتّاريخ الإسلاميّ لم يحدث أنّ حكم
الفرس (المسلمين) مثلما حدث (للمغول والأتراك حتّى العبيد الماليك)
حكموا وكان لهم تاريخ... ويُقال والله أعلم إنّ هذه الكلمات فهمها (الشّاة)
على أساس أنّ أمريكا سوف تساعد الشّاة في تحقيق حلم دام أكثر من ألف
وثلاثمائة وثمانين عامًا، وبالفعل شرب (الشّاة) المقلب، خاصّة عندما فتحت
أمريكا بلادها لتدريب القوّات الإيرانيّة، وجامعاتها لتعليم الطّلاب
الإيرانيين... وأسواقها للتّجّار الإيرانيين، وهات يا بيع وهات يا
دولارات... من فئة (GULF PETRO DOLLARS).

طلب وزير خارجيّة أمريكا هنري كيسنجر في ذلك الوقت من الدّول
المصدّرة للبتّروول رفع سعر البتّروول، والسّبب هو البحث عن مصادر أخرى
للطّاقة البتّرووليّة، لكنّ بالأسعار الحالية لن يستطيع أحد التّنقيب واستخراج
البتّروول، أو عمل أبحاث ودراسات لبدائل أخرى للنّفط لأنّ التّكلفة أكبر
من سعر البيع للبرميل الواحد.

العالم العربيّ كلّهُ كان يراقب الموقف الأمريكيّ وشهر العسل الأمريكيّ الإيرانيّ حفزّ الوضع العربيّ ودول الخليج بالذّات لدعم البوّابة الشّرقية (العراق)، وبعد أن أحسّت أمريكا أنّ الشّاة مستعدّة الآن أن يصبح ماردر المنطقة، كانت (فرنسا) العزيزة تتبنّي آية الله الخميني، وتعدّه لثورة (الكاسيت) وتمنّيه بحكم العالم الإسلاميّ عن طريق الثورة الإسلاميّة وتصديرها إلى العالم الإسلاميّ، وخرج الشّارع الإيرانيّ وهو لا يعرف ماذا يريد غير رأس (الشّاة) وأحلام كلّ مسلم في إيران أن تعود الدّولة الإسلاميّة كما كانت قويّة متهاسكة موحّدة تحت قيادة آية من آيات الله، فما بالك أن تعود هذه الدّولة المرتقبة من شارع، من منزله، وتحت عباءة الملاي الإسلاميّة كانت تكمن هناك عدّة أهداف، وكلّ مجموعة لها هدف تريد أن تحقّقه، رجال الأعمال لهم أهداف يريدون تحقيقها، خاصّة تلك المجموعة التي حرمها الشّاة من مناقصات عامّة متعمّدا إعطاءها لفئة دون أخرى بدون أيّ مبرّر سوى القرب والفساد، أمّا رجال الدّين وبالذّات الخميني له أهداف تتراوح بين الثّار والحقد والتّغيير وحفر التّاريخ الإيرانيّ باسم الخميني وخدمة مدينته قم من النّاحية الاقتصاديّة لتصبح مزارا للحجّاج الإيرانيين، أمّا بعض العرب فلهم أهداف مصر- مثلاً لأنّ إيران تعتبر مصدر إزعاج للزعامة المصريّة في المنطقة، أمّا العراق والتي رضخت لتوقيع اتفاقية مع الشّاة من الجانب المغلوب على أمره وتتنازل عن حقّ لن تتنازل عنه بعد اليوم.

أمّا إسرائيل لها أهداف اقتصاديّة وسياسيّة مع النّظام، خاصّة بعد تدمير الآلة العسكريّة في إيران والتّخطيط مع الغرب على خلق حرب بين العراق وإيران لإضعاف اللدودين والعمل كوسيط أسلحة ينفع الخزانة اليهوديّة التي تعاني من اقتصاد ضعيف وإعانات بدأ دافع الضّرائب الأمريكيّ

والإسرائيليّ يعاني منها، أمّا أوروبا لها أهداف تختلف من دولة أوروبية إلى أخرى ومن مصالح اقتصادية إلى مصالح سياسيّة ونفوذ.

أمريكا بالطبع لها مصالح ليس في إيران فقط، بل في المنطقة بأسرها، ولكنّ المسرحيّة الأمريكيّة، كانت الوحيدة التي تحقّق أعلى أرباح على شبّاك التذاكر الفصل الأوّل من حرب الخليج.

هَلْ "قليل": الله... الله... ما شاء الله عليك يا أخي ويشلون تتركب الأحداث وتظهرها كأنّها حقيقة... زدني... زدني... زادك الله من علمه وأفادك.

سقط حكم الشّاة وانتصرت ثورة الكاسيت في إيران، ودبّت الفوضى في طهران وبقية المدن الإيرانيّة والقلق والترقّب عواصم العالم الإسلامي والعربي بالذّات، والسّبب عدم وجود برنامج معيّن لقيادة الثورة، صحيح إنّها الثورة الدّستوريّة الحقيقيّة التي قامت في العصر الحديث تقريباً، فالمواطن الإيرانيّ هو الثّورة وليست مجموعة من الضّباط في الجيش أدّت القسم (وهو قسم لو تعلمون عظيم) بالولاء للوطن والملك بعد طاعة الله ونصرة الدّين، ولكن معظم الضّباط يحنثون في يمينهم ويدكون قصور الحكم بدبّاباتهم في معظم دول العالم الثّالث، والمضحك المبكي أنّهم يطلبون من الضّباط الآخرين أداء اليمين أمامهم، ولكنّ الضّباط الإيرانيّ وقف مع القسم ومع الشّاة حتّى خرج الشّاة من الأراضي الإيرانيّة، وتنازل أو أجبر على التنازل عن الحكم، المهمّ ثورة الشّارع الإيرانيّ أو غير الإيرانيّ تؤدّي إلى وقت كبير من الفوضى؛ لأنّ إعادة جماهير الشعب إلى النظام سوف تتطلّب وقتاً وجهداً ومالاً؛ لأنّ رجل الشّارع يعتقد أنّه هو الذي أسقط النظام ويستطيع أن يسقط أيّ نظام لا يعجبه، وبالتالي يجد الحاكم نفسه أنّه لا يستطيع عمل شيءٍ إطلاقاً، وحيث إنّ الحاكم وصل إلى السّلطة وليس هناك منهج أو برنامج يمكن تطبيقه، فقد

مرّت إيران بمرحلة لا تحسد عليها، خاصّة أنّ الجيش الإيراني كان يدافع عن القسم الذي أدّاه أمام الشّاة حتّى آخر لحظة؛ مما جعل الثّوّار يقومون بعزل الرّتب الكبيرة في الجيش الإيراني صاحبة الخبرة والممارسة... هذه الطّروف وبعض المعلومات الخاطئة من قبل المخابرات الأمريكيّة التي هربت إلى القيادة العراقيّة بسوء أو حسن نيّة، ولكن بتخطيط مدروس من قبل الإدارة الأمريكيّة التي كانت تحتاج إلى وقت لوضع سيناريو يمكن أن يتحقّق بنقل خمسمائة ألف جندي إلى منطقة الخليج، وكذلك إلى المناطق الاستراتيجيةّ أو ذات المصالح الأمريكيّة الآنيّة أو المستقبلية.

قامت القيادة في العراق بعمل حسابات مستعجلة وعلق بيض كالعادة، وفي غياب الجيش الإيراني والفوضى التي ترتع في إيران وفي الشّارع الإيراني يمكن أن تستعيد العراق عرب ستان (عبدان والأهواز) التي أجبرت على التنازل عنها للشّاة والتي قطعها الانتداب البريطانيّ أو المستعمر البريطانيّ من مملكة الإحساء بعد أن قسّم المملكة إلى أجزاء ليترك المنطقة في مشاكل يطلب منه في وقتٍ لاحقٍ أن يحلّها ويعود بحجّة القاضي العادل، وأنّ لديه الوثائق المهمّة في المنطقة لاحتلّها مرّة أخرى، ومزّق صدام الاتفاقية العراقية الإيرانية أمام صيحات بعض من المضللّين وحماس رعا من الشّعب لا يعرفون حتّى قراءة أسمائهم، بدأت الحرب (العراقية - الإيرانية) أو ما يطلق عليها (حرب الخليج الأولى) والاسم الحقيقي الفصل الثّالث من المسرحيّة الأمريكيّة... واستمرّت الحرب... دول الخليج، أو الجمعيّة التعاونيّة على رأي الممثل الكويتي حسين عبد الرّضا في مسرحيّة الشّهيرة، تدفع الفواتير، والنّظام العراقي يشترى ويبعث بالفواتير (وقد يبالغ) إلى بنك الخليج. ونشطت مصانع الأسلحة الأمريكيّة، وزادت تجارة المخدّرات، وارتفع سعر البترول،

وهلّلت بيوت الاستثمار اليهوديّة، العرب يدفعون، والإيرانيّون يدفعون والمسلمون يذبحون.

ثمان سنين من الحرب بين المسلم وشقيقه المسلم، وتجارة المخدرات تزيد من أرصدهم في البنوك دون رحمة أو هوادة، ومصانع الأسلحة في أمريكا تسابق الزمن للوصول إلى أسلحة الدمار الشامل، الرّبون موجود ويدفع تكاليف جنازته، وتطوير الأسلحة الأمريكيّة يحتاج إلى (المال والضّحايا) والخليج وبلاد المسلمين هما المكان المناسب. كانت الأموال العربيّة تتّجه إلى (أوروبا) للاستثمار، وإذا كنّا متميّزين في وضع نظريّات مثل نظريّة المؤامرة، فنستطيع أن نقول تدمير بنك (إنترا) اللبنانيّ بداية الحرب الاقتصاديّة للاستثمار في العالم العربيّ، وقيام الحرب الأهليّة اللبنانيّة التي كان من الممكن أن تنصب فيها معظم الأموال الخليجيّة والعربيّة الأخرى، وحرمان الدّول الأوروبيّة وأمريكا منها، وتخوّف رأس المال العربيّ من مصر وسياسة التأميم التي كان يتبعها الرّئيس، ووجود أحكام نظام الطّوارئ وسياسة الانفتاح غير المدروس لسياسة الرّئيس اللاحق الاقتصاديّة وعدم وجود بنية تحتيّة مع وجود فساد وبيروقراطية قاتلة وتخوّف رأس المال العربيّ من النّظام السّوريّ، ولكنّ الاقتصاد الأردنيّ والسّوريّ والسياسات العقيمة لإدارة الأقطار العربيّة من جهة، وخوفاً من الوضع من جهة، وعدم وجود فرص استثماريّة من جهة أخرى إمّا بسبب ضيق مجال القطاع الخاص، فالقطاع العام يملك كلّ المصادر الطبيعيّة بالإضافة إلى مجانيّة التّعليم وإن كان هناك بعض المدارس الخاصّة التي لا تستطيع أن تنافس الخدمات المجانيّة والصّحّة والإعلام والمصانع الضّخمة وبقيت بعض الصّناعات الخفيفة والبسيطة مع التّجارة في الأراضي والتّجارة المستوردة، ومن جهة أخرى الفساد الإداريّ أو النّظم البيروقراطيّة الموجودة في الخليج والبطء والترّدّد في اتّخاذ القرار

متّخذين من المثل العربيّ القديم (في العجلة الندامة وفي التّأني السّلامة)، وأصبحت عبارة إن شاء الله تعني التّسويق وتضييع الوقت، والوقت بالنّسبة للتّاجر ورجل الأعمال مال، ولكن عبارة راجعنا بكرة أصبحت نوعاً من أنواع التّصدير لرأس مال العرب خارج الحدود، وضيق الشّارع أمام القطاع الخاص، حيث إنّ القطاع العام هو المسيطر أدّى إلى التّقليد، وليس التّكامل، وأدّت سياسة الإغراق إلى انتحار العديد من المؤسسات والشّركات، وأنّ القيادات في تلك الدّول تهتم فقط بالتّقرير الأمنيّ الدّاخليّ والتّقرير السياسيّ الخارجيّ، أمّا التّقارير الاقتصاديّة والخدمات الدّاخليّة فلم تكن هناك رقابة تذكر أو اهتمام، بل بالعكس كان هناك نوع من التّغاضي في إهدار المال العام، وظهرت أساليب حديثة في الفساد تكتب فيها مجلّدات وتدرس للأُمم القادمة مجّاناً وتُسمّى "فساد للبيع". لذا بدأت رُؤوس الأموال العربيّة تتّجه إلى الخارج، وبالذّات إلى أوروبا (باريس لندن) بصفة خاصّة، باعت بريطانيا للعرب كلّ شيء حتّى سروال الملكة (فيكتوريا) كان معروضاً للبيع، وظهرت مسرحيّة تحت عنوان (من أجل عيونك الجميلة يا حبيبتى) تنذر العرب والمسلمين بأنّ الكيل قد طفح، وأنّ الانتقام بات قريباً، ولكن نردّد قول الشّاعر:

لَقَدْ أَسْمَعْتُ إِذْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

الحقيقة كان العرب (إلاّ من رحم ربّك) في فلك يسبحون، على الباربات وأفخاذ الغيد يتسابقون، وحتّى الميسر وهو محرّم في دينهم يلعبون.

صاح "قليل": الله... الله. كلامك حلو وصرت شاعراً.

عقب "مناحي": هذا سجع يا جاهل (وأضاف) اسقني يا (ساقى)

قليلاً من الشّاي فالمجلس اليوم رائع.

تابع "راشد" الحديث: انتهت الحرب العراقيّة الإيرانيّة أو الإيرانيّة

العراقية (حرب الخليج الأولى)... وهلل الإعلام العربي مستخدماً نسبة الأكاذيب نفسها... انتصرنا... انتصرنا... انتصرنا... غناها على طريقة (عبد الحليم حافظ)، وانهاالت الألقاب على (صدام)، ولقب بألقاب ما أنزل الله بها من سلطان، وانهاالت التّهاني، والهدايا.

(أكمل راشد حديثه المطول) في أثناء الحرب العراقية الإيرانية كانت تجري على الجناح العربي الأوسط، والذي تمّ تكسيه وتجيده على الطريقة الأمريكية قام الرئيس المصري (محمد أنور السادات) عليه وعلى أموات المسلمين الرحمة بزيارة مدينة (تل أبيب) وخطب في (الكنيست) الإسرائيلي، وسلّم على راين وقولدامير وكلّ الأخوة الأعداء على رأي الكاتب الروسي بريماكوف.

انتهم (صدام) الفرصة لتحويل القيادة العربية من مصرية إلى (عراقية)، فجمع العرب في بيت العروبة الجديد القديم (بغداد).

كلنا نعرف نتائج المؤتمر، والإعلام العربي كالعادة قد أحضر - (الدّفوف والطبل والمزامير)، وصوّر لنا المؤتمر وكأنّ (صلاح الدين الأيوبي) قد بعث من مرقده ووحد العرب، وأنّ انتصارنا على (إسرائيل) مسألة وقت ليس إلّا... ولكنّ شيئاً واحداً لم يبينه الإعلام العربي بسوء أو حسن أو جهل أو تعميم أو تضليل سمّه ما شئت، ولكن وصل إلى (واشنطن) وبالتحديد لوكالة المخابرات الأمريكية التي كان يتربّع على رئاستها في يوم من الأيام السيّد (جورج بوش الأب) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وكاتب المسرحية الجديدة، أو حرب الخليج الجزء الثاني.

وسأل سمير: ويش قال (صدام) للملوك ورؤساء وأمراء الدول العربية؟
أجاب راشد: ويش قال مو مهم كيف كان يعاملهم والأهم إطلاعهم على نواة الأسلحة النووية والبيولوجية، صعّق العرب ما عدا اليائسين

المفلسين ليس من الأموال ومصادر الثَّورة فحسب، بل حتَّى من الأفكار والنَّظم التي تستطيع أن تنفع دولهم. ها هي سنغافورة جزيرة لا تملك حتَّى مياه الشرب التي تحتاجها استطاعت بنظامها أن تصل إلى أرقى دول آسيا، اليابان التي أذهلت العالم وليس آسيا فقط. أمَّا تلك الدَّول التي أطلقت على نفسها أو يُطلَق عليها المجموعة العربيَّة الفقيرة أو جماعة (عليَّ وعلى أعدائي يا ربِّ) بسبب رداءة اقتصادهم من ناحية وسوء إدارتهم لبلادهم من ناحية أخرى، وعدم احترامهم للمفكرين والمثقفين في بلادهم مثلهم في ذلك مثل كلِّ العالم العربيِّ، ولم يطبَّقوا نظريَّة سيِّدنا عمر بن الخطَّاب في السَّاح للمعارضة بإبداء رأيها عندما قال: (لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها)، ولكن هيهات أن تكونَ من المعارضة في دولة من الدَّول العربيَّة.

علقت عضويَّة (مصر) في الجامعة العربيَّة، والمؤتمرات الإسلاميَّة وعادت الأبواق وشعارات أواخر الخمسينيَّات وأوائل الستينيَّات الجوفاء التي كانت تصدرها (القاهرة)، وكنا في الجزيرة العربيَّة تأتينا من الغرب أي نسمعها بأذننا اليسرى إذا نظرنا شمالاً، ومن حوض النيل العظيم تبتَّها الآن (بغداد)، وأصبحنا في الجزيرة العربيَّة نسمعها تأتي لنا من الشَّرق أي نسمعها بأذننا اليمنى إذا نظرنا ناحية الشَّمال أيضاً، ومن شط العرب أو من عبر الرَّاغدين دجلة والفرات، كانت عبارات مثل الحرِّيَّة: وتعني أنَّ المواطن العربيَّ حرٌّ في أن يختار سكنه، طعامه ولباسه وزوجته يجامعها وقت ما شاء فقط، وهل توجد حرِّيَّة أعظم وأكمل وأجل من هذه؟

الديمقراطيَّة: ومعناها في اللغة العربيَّة كما وجدها الرِّئيس الليبي هي ديمو: من الدِّيمومة أي استمرَّوا، وكراسي أي استمروا في الكراسي (ديمو كراسي)، هذا من ناحية اللغة، أمَّا المفهوم العربيُّ لها فهو أن يطابق رأيك رأي

الرَّعِيم الذي يحكم القطر الذي أنت أحد أبنائه، وأن لا يكون رأيك مخالفاً
والأ سوف تتهم بأنك غير ديمقراطي وتتهم بالديكتاتورية والبرجوازية
والإمبريالية والنّازية والصّهيونية والشيوعية والعلمانية وضدّ النظام الذي هو
إرادة الشعب العربيّ الديمقراطيّ الحرّ، ضدّ الإسلام والمسلمين، وقد تقدّم
على أنّك حليق الذّفن مشرك كافر، وأنك ضدّ العروبة لأنّك رجعيّ غير
تقدمي، وأنك عميل ومن الطّابور الخامس أو السّادس أو السّابع، هذا إذا
عرفت عدد الطّوابير غير طابور المدرسة الصّباحيّ وطابور الجمعة، وتسقط
الإمبريالية، والرّأسمالية، والصّهيونية، ويجيا الفول والطّعمية تحيا الوحدة
العربيّة على رأي (عادل إمام) في شاهد ما شفشف حاجة. العدالة: وهي أن
تعباً السّجون بأصحاب التّفكير والثّقافة والنّاصحين من المسلمين وغير
المسلمين من العرب، أمّا أصحاب التّدبير والتّفجير والتّكفير من القتلة،
والأفّاقين، ومروّجي المخدّرات، والمفسدين في الأرض فقد تمتّعوا بالحصانة
وتسلّقوا على فروع القذارة من الشّجرة الخبيثة التي نبتت في مزبلة التّاريخ،
التي لن تكتب عنهم أكثر ممّا يستحقّون، وسيلعنهم كلّ من يبقى على ظهر
الكرة الأرضيّة لقراءة هذه المرحلة من تأريخ أمّتنا.

علّق "قليل": والله احنا حظنا حلو عندنا شلّة أنس، ثقافة دينيّة
موجودة، ثقافة عامّة موجودة، ثقافة سياسيّة موجودة، تجارة، حشّ، نكت،
ثقافة جنسيّة من النّوعين عاديّة وشاذّة (وأشار إلى أحمد) الشّلل الثانية ما في
غير (بلوت، كنان، طرنيب) أو يتحدّثون عن الكرة هدف عبيد الدّوسري
في مباراة السّعوديّة والكويت في الدّورة الرّابعة عشر لكأس الخليج، أناقة
خالد مسعد، عبقرية يوسف الثّنيان، عملقة محمّد الدّعيع، فدائيّة حسين عبد
الغني، هدف الهلال غير صحيح، الحكم جامل الهلال على حساب النّصر،
الدّبوشي، الصّحافة تطبّل للمدرب الجديد، هذا هو المدرب العالمي الذي

يحتاجه الفريق، هذا هو القرار الحكيم، تصريح للمدرّب الجديد: سأجعل من الفسيخ شربات، ومن فردكم غزالاً، وسننافس على كأس العالم؛ فنحن لن نذهب للنزهة أو للمشاركة بل للمنافسة، وبعد مباريتين فقط من هزيمة الفريق يطرد المدرّب، وبدلاً من أن يكون الفريق مفخرة للعالم، يصبح مسخرة وتقوم الصحافة بالتطويل مرّة أخرى... القرار الحكيم... القرار السليم... والله... الله يا عليم... تطويل في تطويل... والله أنا ما أنا فاهم حاجة، وهناك بعض الشلل التي تسهر مع حفلات عرس الشيطان، لا تعرف من أين تأتي بالشراب والنساء والرّقص، بالرّغم من أنّه ممنوع وحرام، وهناك مجموعة تتعبّد لله، أمة في منتهى التناقض، حاجة تخلط الأمور، يقولون إنّ الغناء حرام... تسمع الغناء ومن النساء في الإذاعة ولا تسمعه أو تشاهده في التلفزيون، ولكن تشاهد المرأة في التلفزيون تحب وتُحب، تُغازل وتُغازل، تحون وتُحان وبثياب النوم وكامل زينتها، أنا سألني ولدي عبد الهادي عن السّبب في التناقض هذا، ما وجدت إجابة شافية أو مقنعة، إعلامنا قبل اغتصاب الكويت من العراق كان يبجل ويمدح صدام، اليوم نصف صدام بأفطع الألقاب وأشنعها، إذا حبّينا نبلع الزّلط وإذا كرهنا نوقف على الغلط، صحيح إن قراراتنا عاطفيّة غير مدروسة لأنّ نظرنا ما تتعدّى أرنبة أنفنا، والله ما ني فاهم شيئاً...

قال "راشد": هذا... وأنت منك فاهم وتقول كذا... أجل ويش خلّيت للفاهمين يا عقله الصّباح، وأكمل: نعود لموضوعنا عشان الليل سري ونبي نتحدّث عن موضوع آخر باكر إن شاء الله. الحقيقة أنّ هذه الشّعارات الزائفّة مثل تحيا الحرّيّة، وقام الإعلام المصري بالرّدّ، وبدأت الحرب الكلاميّة وانشقّ العرب كالعادة، كنّا "عرب عاربة" و"عرب مستعربة"، أصبحنا "عرب تقدميين" و"عرب رجعيين"، "عرب متدينين" و"عرب علمانيين"،

"عرب آسيويين" و"عرب أفارقة"، و"عرب أفغان" و"عرب إسرائيل"، "عرب أغنياء" و"عرب فقراء"، و"عرب الخليج" و"غير الخليج"، وأفضل عرب في رأيي المتواضع، "عرب التليفزيون" ... أنا حتّى الآن ما أفهم المسلسلات العربيّة والتي يُطلق عليه البدويّة، ويش المقصود منها؟ أنا متأكّد أنّ العربي في هوليوود أخذ الشّخصيّة من العربي في المسلسلات البدويّة، تجد العربي مسكيناً... غداراً... دنيئاً... قذراً... عاطفياً... يجري خلف شهواته... اتكالياً... جشعاً... شرهاً... يحبّ الشرّ والقتل... أنانياً، مثل اليهودي في كتابات شكسبير. لا ونستكر وندين ونشجب ونحتجّ ولا نترك كلمة مرادفة في قاموس اللغة العربيّة قديمها وحديثها ما نستخدمها إذا شبه الغرب العربي بأيّ صفة من هذه الصّفات تقوم الدّنيا وما تقعد، وينطبق علينا (أدعي على ولدي وأدعي على الي يقول آمين)، ومزّق العرب شرّ ممزّق، وضاعوا في متاهة المتناقضات. وكالة المخابرات الأمريكيّة تجمع المعلومات، والخزينة الأمريكيّة تجمع الدّولارات، والعرب يا عيني تايهين ولا هم عارفين العمر ثواني ولا سنين يا حبيبي (غنى معه الجميع تقريباً).

ردّد "قليل": الله... والله نغم... يا سلام نفسي أعرف تجيب الكلام هذا من فين؟

قال "راشد" بتواضع: من القراءة... من القراءة يا أخا الجهالة، الله سبحانه وتعالى أوّل شيء أمر فيه محمّد عليه الصّلاة والسّلام على لسان جبريل عليه السّلام قال له: اقرأ.

قال: ما أنا بقارئ. قال له: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿١﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٢﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٣﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٤﴾ أنت لو تقرأ

وتفهم. السّورة هذه تعرّفك على أشياء كثيرة... القراءة والكتابة والعلم والخلق أي الإبداع، وأنّ الإنسان يجهل أمورًا كثيرة حتّى يقرأ ويكتب، فيعلّمه الله ما لم يعلم من قبل.

قال "قليل": والله اقرأ ولكن...

ردّ "راشد": الغرب يقول إن العربي ما يقرأ، وإذا قرأ ما يفهم، وإذا فهم يبي يفهم الي في رأسه فقط حتّى لو كان ما في رأسه شيء وهذا الأغلب، ولكن الباقي الي في رأسهم ليس هو الواقع دائّمًا، قد يكون الي في رأسهم منطقيًا ومثاليًا ومقبولًا، ولكن ليس واقعيًا، المثاليّة حلم، المدينة الفاضلة حلم وليست واقعًا؛ لذا يقولون: (إذا ناقشت عربيًا لا تشرح له كثيرًا، بل أجب على قدر أسئلته فقط، وستكون دائّمًا الرّايح)، أهم من القراءة أنّك تفهم ما تقرأ يا أبا العرب، وأنّ تذكر الأحداث وتربطها بعضها ببعض، هذا كلّ شيء ببساطة متناهية حتّى الآن، أمّا قراءة ما بين السّطور والرّمزيّة والغام القرارات العليا، فهذه تحتاج إلى دراسات متعمّقة إذا كنت مؤهلاً أوّلاً.

علّق سمير: لا... والله هذي موهبة من الله خصّ ناس بها عن ناس. كمّل يا ملك الرّبط... يا خوفي إنّك تعمل مع المخابرات الأمريكيّة (ضحك الجميع).

ولكن أبا خالد سأل: كم سنة درست في (أمريكا)؟

أجاب "راشد": مع اللغة ستّ سنوات.

علّق "سمير" مازحًا: أوه كافية لتدريبك (وضحك).

ردّ راشد: يا زينك ساكت هذا احنا العرب نتهم بعض، نشك في بعض، نسبّ بعض، نقتل بعض، وينك يا عبد الحسين عبد الرّضا تجي تشوف العرب.

علّق "فالح": المهم كمّل السّالفة خلنا نسري، وانا سحور وعمل.

قال "راشد": الآن أحداث تَمَّت عبر سنين، تبي تسمعها في لحظة.
قال الشيخ بهدوء: نتسحر هنا ونكَمِّل السَّالفة تراها مسليَّة وإن كانت
مؤلمة.

أجاب "فالح" بسرعة: كثر خيرك يا ابن الأكرمين... يا ساقى هات
الشَّاي.

أكمل "راشد" الحديث بعد أن رشف قليلاً من الشَّاي الصَّيني الذي
تعود أن يشربه من بعد زيارته الأخيرة لمدينة (بكين) عاصمة الصَّين الشَّعبية،
حيث نصحه أحد الصَّينيين بشرب الشَّاي الصَّيني مع الياسمين؛ لأنَّه يحمي
بعد الله من أمراض القلب والسَّرطان، كانت الطَّبخة تطبخ على نار هادئة،
(العراق) خرج من الحرب (العراقية الإيرانية أو الحرب الخليجية) مثخناً
بالجراح، النِّظام يحتاج إلى كثير من الأموال لتغيير (النِّظام الحياتي) للشَّعب
العراقي، فالشَّعب بعد الحرب غيره أثناء الحرب، في الحرب يحتاج إلى أسلحة
وطعام، معظم الشَّعب مجنَّد أو يعمل لخدمة الجيش بطريقة مباشرة أو غير
مباشرة، أمَّا الآن فالوضع مختلف العراق يحتاج إلى مستشفيات، مدارس،
وظائف، بنية تحتية للمدن، بنية أساسية للقرى والأرياف، مساكن مصانع،
معامل، برامج تطويرية للزَّراعة، والصَّناعة، والتَّجارة، وهذه المتطلَّبات تحتاج
إلى قيادات غير القيادات الحربيَّة، وفي حالة رغبة القيادات في عدم التَّنازل عن
السُّلطة أو لم يكن هناك مجموعة قادرة على تغيير القيادات الحربيَّة؟ معنى هذا
أنَّه يجب البحث عن حرب أخرى لصرف نظر العالم والشَّعب عمَّا يجري من
خلل، وقد ساعد في المشكلة أنَّ أسعار البترول انخفضت بفعل بعيدٍ عن
نظريَّة المؤامرة! لتزيد الوقود على نار جراح الأمَّة، نسيتموا ما فعله الرِّئيس

المصريّ بجنوده بعد حرب اليمن، نقلهم من اليمن إلى سيناء، وخسر ٦٧، خرج (صدّام) يطلب من دول الخليج العربيّة المساعدة بالتّنازل عن الدّيون المتراكمة، ولكن لا يوجد مبرّر لتقديم مزيد من المساعدات، فالحرب مع إيران انتهت دون استشارة الدّول العربيّة عامّة أو دول الخليج بصفة خاصّة كما بدأت، وبالرّغم من ذلك وقفت الدّول الخليجيّة موقفًا مشرّفًا من الحرب، وإن كان مؤلمًا ما يحدث بين دولتين إسلاميتين، وانتهت دون علم دول الخليج أو التّخطيط معهم من أجل السّلام القادم مع إيران، وكأنّ دول الخليج بحكوماته وشعوبه، لا يستحقّ أن يُستشار بل يدفع فقط دون أن يفكر لماذا يدفع، منتهى الدّيمقراطيّة العسكريّة...! واحترام دول الحوار حكومات وشعوبًا...! لذا فقد نصّحه (الخبراء) عفوًّا الخبراء بحسن أو سوء نيّة أن يضغط على دول الخليج، وذلك بتكوين (مجلس التّعاون العربي) وضمّ الأردن ومصر واليمن، معتقدًا أنّه بهذا الحزام يخيف العرب في الخليج، وبالتالي يبتزّهم وقت ما يشاء، وأنّه بهذا يصلح ما أفسده في الماضي مع القاهرة، خاصّة أنّ الرّئيس الجديد لمصر ينتهج سياسة (التّقرب للعرب) بدلًا من سياسة البعد والحرمان، بالإضافة إلى أن يجعل له قواعد قويّة ومتينة جماهيريّة وشعبيّة، وتقوية حزب البعث في (اليمن والأردن) وهما الدّولتان اللتان تظهران ما لا تبطنان، تساعداه عند تكوين الدّولة العربيّة الكبرى ولكنّ الأحلام ليست واقعيًا، بالطبع الفكرة جيّدة وتخدم الغرض منها، ولكن لا يمكن تنفيذها على أرض الواقع؛ فالكلام المنطقي جميل ومثالي، ولكنّه غير واقعيّ؛ فالمثاليّة غير الواقعيّة المثاليّة يسعى النّاس لتحقيقها، أمّا الواقعيّة فهي ما تمّ إنجازه بناءً على المعطيات والظّروف المتوفّرة في هذا الوقت، قد تتغيّر

أحد العوامل بالتَّحسُّن أو الإِسَاءَة؛ ولذلك نجد أنَّنا في الواقع نحكم على العوامل من خلال الظُّروف والوقت الذي اتخذ فيه القرار (المدينة الفاضلة حلم جميل وكلام عسل مثالي منطقي، ولكن لا تزال غير ممكنة التَّحقيق، بل إنَّ جماها يكمن في عدم الوصول إليها أو تحقيقها). وبدأت فرق العمل، وتكوَّن (مجلس التَّأمر العربي).

أخطأ "صدام" مرَّة ثانية حيثُ إنَّ خطأه الأوَّل كان قبل الحرب؛ حيثُ إنَّ حساباته قبل الحرب العراقيَّة الإيرانيَّة لم تكن كاملة، وكان بعضها حقيقيًّا، ولكنَّه مضلَّل طالما أنَّها لم تكتمل، وذلك بأن اختار مصر بدلاً من السُّودان مثلاً لعدَّة اعتبارات أهمُّها: (مصر) دولة تبحث عن الزَّعامة. الرَّئيس يريد أن يتعامل مع العرب كلَّ العرب باستراتيجيَّة واقعيَّة جديدة، مصلحة مصر فوق كلِّ المصالح، ثمَّ المصلحة المشتركة بين الطَّرفين بعقليَّة حضاريَّة متفتَّحة تبادل المصالح مع المحافظة على أن لا تخطئ مصر في حقِّ أيِّ عربيٍّ. حرِّيَّة الصَّحافة: التي بدأ العمل بها في مصر، وحرِّيَّة الأحزاب سلاح جيِّد إذا عرفت الدَّولة والشَّعب كيف يُستخدَم، وسيئ إذا لم يحسن الشَّعب والحكومة استخدامه كما حدث في (لبنان) أوائل السَّبعينيَّات، مصر مديونة لبعض من دول الخليج والولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، لم تنسَ (مصر) كدولة أن سبب تعليق عضويَّتها في مؤتمر القمَّة الذي عقد في (بغداد) هو العراق، وأنَّ "صدام" شخصيًّا هو مَنْ طالب بعزل مصر عن القافلة العربيَّة في الوقت الذي كانت تحتاج فيه وقفة الصَّدق في ذلك الوقت، حتَّى وإن كان هناك خلاف على زيارة السَّادات، بالإضافة إلى المعاملة السيِّئة التي كان يلقاها بعض العمَّال المصريين في العراق. كلُّ هذه العوامل وغيرها الكثير لم يكثرث لها فريق العمل العراقيّ العربيّ كالعادة سلق بيض، لا تخطيط ولا يحزنون،

وعلى رأي الزرافة عندما قالت للحمار الوحشي وهو معجب ومتباهٍ بخطوطه: (تخطيط إيه يا حمار دا التّرقيع أحسن).

وبما أنّه لم يدرس الملفّ اليمنيّ دراسة وافية، بل ظنَّ أنّ اليمن يستطيع بعدد من الجنود والمدفعية أن يتقدّم نحو الشّمال بحماية الطّيران العراقيّ، بالرّغم من أنّ القيادة اليمنيّة غير القيادة في ليبيا مثلاً في ذلك الوقت، القيادة الليبيّة تدّعي أنّها تتمنّى الدّولة العربيّة الكبرى بصرف النّظر عن الزّعيم أو القائد، ولكن في القيادة اليمنيّة والتي بدأت تعي اللعبة السياسيّة تمامًا، وبدأت تحسّن علاقتها مع الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وأنّها على استعداد لعمل لجان انتخابات وتعدّد الأحزاب وعمل برلمان يمثّل الشّعب طمعًا في وحدة عربيّة كاملة، ولكن تحت قيادتها أو على الأقلّ أن يكون لها دور بارز وحقيقيّ، ومشكلة شطري اليمن تسبّب لها مشاكل بالرّغم من إعلان الوحدة، ولكنّ الوحدة تكامل وليست ترفًا، ولأنّها تعتقد أنّها أصل العرب، ويجب أن يعود الجميع للأصل، وتعني في الوقت نفسه أنّها غير مؤهلة على الأقلّ في الوقت الرّاهن لهذه القيادة، ولكن بالصّبر والعمل الجاد سيكون لها دور في مستقبل الأيام.

أمّا الوضع في الأردن، فكيف يكون؟ هو أشدّ غرابة فكيف يثق شريف في بعثيّ قد لوّث يديه بدم عائلته في منتصف القرن، فمقتل (فيصل العراق) لا يزال يقلق نوم أشرف قريش، ودمهم ليس بهذا الرّخص الذي يظنّه المهيب الرّكن "صدام حسين"، والحياة السياسيّة التي عاشها العاهل الأردنيّ جعلت منه واقعياً أكثر منه هائماً، حالماً يجري مثل رجل الشّارع خلف شعارات زائفة لا تعني شيئاً سوى خسائر الخبر الذي انسكب على صفحات الجرائد أو جدران المنازل.

قال "الشيخ": الله عماء.

واصل "راشد": المهم بدأ الشعب العراقي يطالب حكومته بالإصلاحات التي وعدهم، وزاد الشارع العراقي سوءاً عودة الجنود من الخطوط الأمامية، بعضها بدون أطراف والآخر مشوه أو يحتاج إلى برامج تأهيل، وكثر الضغط على الحكومة، والنظام العراقي يبحث عن مخرج، قبل الاجتياح أو اغتصاب الشرعية السياسية في الكويت من قبل جار الكويت (بواب) البوابة الشرقية العربية المهيب "صدام بيه حسين".

كنت في (لندن) ولقيت (الشيخ) في الصيف تذكر.

انتهز (الشيخ) الفرصة للحديث قائلاً: بالفعل كنا نشاهد الدبابات العراقية متجهة إلى الجنوب الغربي نحو الحدود الكويتية... لكن لم أتصور أن يحتاج (مجنون العراق) الكويت، كنت أعتقد أنها مناورة فقط للضغط على الكويت، حتى كنا نتناقش أنا وراشد ما هو حجم الديون التي يريد (العراق) إسقاطها، وأعتقد أن الخليجيين لديهم استعداد للتنازل عن بعضها وإعادة جدولة البعض الآخر، ولكن الخوف... كل الخوف أن العملية تتقل من مرحلة سماح وكرم إلى مرحلة الابتزاز، وهذا كان مصدر قلق كبير للعرب بصفة عامة وللخليجيين بصفة خاصة.

قاطع "راشد": الحقيقة أن الرغبة الغربية تطلب الحرب ولا شيء غير الحرب؛ لأن القيادة الأمريكية وعلى رأسها السيد (بوش الأب) ترغب في حرب عادلة؛ لأنه يقال دومًا في التاريخ أن كل زعيم يبحث عن حرب عادلة، والسيد "بوش" ليس استثناءً من زعماء التاريخ، فهو يبحث عن هذه الفرصة، حيث إن "صدام" العراق لم يقرأ التاريخ أو تعالى عن قراءته؛ لذلك يجب عدم إهدار الفرصة المتاحة، ولذلك لعبت السياسة والدبلوماسية الأمريكية دورًا بأن تضع القرار الكويتي في موقف أنه لو تنازل عن ديونه

وفوّت الفرصة للحرب، فإنّ العراق لن يقف عن الطّلب وابتزاز الكويت ودول الخليج الأخرى، كيف لا وقد شاهدوا بأأمّ رأسهم أسلحة الدّمار الشّامل! وهذا يعني أنّه لا بدّ من التّعاون مع (الأعداء) الذين كانوا في الاستخبارات الأمريكيّة في يوم ما، والآن يتربّعون على كرسي الرّئاسة، إنّها فرصة لا يمكن أن تفوت وإلّا فإنّ دول الخليج سوف تندم طوال حياتها، والقرار يحتاج إلى سرعة في البتّ وجرأة في اتّخاذ، أمّا أن ينام الضّمير العربيّ قليلاً ويستيقظ ضمير (الأنا) وبعدي الطّوفان، وعلى رأي الشّاعر الفارس العربيّ أبو فراس الحمدانيّ (إِذَا مِتُّ ظَمَأَنَ فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ)... فهذه هي الأنانيّة بعينها وأرنبة أنفها.

علّق "سمير": يا سيّدي... العرب جرب... والله ما راح يفلحوا.
علّق "أحمد" مازحاً: أنت تحتاج إلى إعادة تأهيل عربيّة يا "راشد"، وبعدين أنت تتكلّم وكأنّ العالم كلّهُ أمريكيّا وبس... طيب فين الاتحاد السّوفيتي؟ الي كان دائماً يدافع عن العرب أو على الأقلّ يقف في صفّهم مادّيّاً ومعنويّاً.

ردّ "راشد" بتهكّم: الاتحاد السّوفيتي... يا حبيبي لو أنت متابع الأحداث وعرفت رأي الاتحاد المنيل بنيلة بتاعك ده على رأي الإخوة في مصر، فلو تتذكّر عام ١٩٨٧م عندما قابل "ياسر عرفات" رئيس منظمّة التحرير الفلسطينيّة الرّئيس السّوفيتي "ميخائيل جورباتشوف" الذي حدّد للسّيّد "ياسر عرفات" بصفة خاصّة والعرب بصفة عامّة والعالم الثّالث بصفة أعمّ سياسة الاتحاد السّوفيتي، حيثُ ردّ على "عرفات" عندما اشتكى له من الأمريكيين لأنّهم يستبيحون لأنفسهم عمل أيّ شيء في منطقة الشّرق الأوسط، فردّ عليه السّيّد جورباتشوف (نحن والأمريكان دخلنا كثيرًا في منافسات ومواجهات في الشّرق الأوسط، والآن انتهت هذه المرحلة) لو

تتمعّن في هذه العبارة يا سيّد، ولو الرّئيس "صدّام" تمعّن في هذه العبارة وعرف أنّه لا يمكن للاتحاد السّوفيتي أن يعصى أمرًا لأمريكا، ولكنّ الحقيقة كما قلت لكم أنّهم يريدون أن يفهموا فقط الشّيء الذي في ذهنهم، ولا يريدون أن يسمّعوا ويعوا ما يسمعون، وحتّى في مؤتمر (البيروستريكا) كان السّوفييت يريد أن يبلغ جميع أصدقائه عن الحالة المزريّة التي وصل إليها، وأنّ على كلّ دولة من الآن وصاعدًا أن تعتمد على نفسها أو الولايات المتّحدة الأمريكيّة أو على الأقلّ لا تضع في حساباتها الاعتماد على السّوفييت، أمّا في ٢٤ أبريل عام ١٩٨٧م، بالتّحديد فقد تأكّد الرّئيس "حافظ الأسد" عندما التقى مع السيّد جوروباتشوف بعد حوار عن المساواة الاستراتيجيّة، وعندما قرأ من جواب محدّثه أنّ السّوفييت لا رغبة لديهم في العمل في هذا المجال، أراد أن يعرف إلى أيّ عمق سوف يتعدّ السّوفييت؛ فحاول أن يغيّر موضوع المساواة الاستراتيجيّة وحوّله بذلك فطري وخبرة سياسيّة إلى (توازنات المصالح)، ولكن عندما تأكّد الرّئيس السّوري أنّ الاتحاد السّوفيتي انتهى... كقوّة يمكن الرّكون إليها، وأنّ عليه أن ينظر نحو الغرب إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة بالتّحديد عدوّه اللدود، بدأ عن طريق أصدقائه وأصدقاء أمريكا بفتح قنوات اتّصال مستغلًا التّسوية السّلميّة، وحرب الخليج عند الاجتياح العراقيّ لدولة الكويت... هذا كلّه والرّئيس "صدّام" نفسه عرف توجّه السّوفييت؛ حيث قال في مارس ١٩٩٠ في مؤتمر قمّة مجلس التّعاون العربيّ الذي عقد في "عمان الأردن" إنّ السّنوات الخمسة القادمة سوف تشهد سيطرة قوّة عظمى واحدة تنفرد بمصائر العالم، العجز السّوفيتي مثل (العجز الجنسي) جاء بعد عدّة مشاكل فيسولوجيّة وأخرى نفسيّة، ولم يأت فجأة حتّى الجيش السّوفيتي لم يستطع عمل انقلاب عسكريّ داخل (الكرملين) ولم ينتصر على أفغانستان، وحالته يرثى لها.

أكمل "راشد" بعد أن رشف بعضًا من الشَّاي: يا خوي... يا أبو سيف... يا حبيبي... يا ناس صدَّقوني... والله... الله في سباه، إنَّ العرب ما راح يفلحوا... أستغفر الله يمكن بعد يوم القيامة، أنا عربي... دمي عربي... وأبكي العرب كلَّ يوم، قبل النَّوم... وبعد النَّوم. كانت أحجار لعبة الشَّطرنج كالتَّالي على لوحة لاعب الشَّطرنج الأمريكي هي أنه لابدَّ أن يقف العرب صفَّين، صفَّ أبيض وآخر أسود، صفَّ مع العراق وصفَّ ضدَّ العراق، الصَّفَّ الي مع العراق يشجَّعه في أن ينفذ المخطَّط الأمريكي من تلك الزَّاوية، والصَّفَّ الثَّاني يكمل اللعبة من الجهة الأخرى، فكان الأردن وفلسطين واليمن مع العراق، اليمن تكافأ بأن تستولي على اليمن الجنوبي أو عدن وحضر موت والثروات البشريَّة والماديَّة... ومنها البترول، وتصبح يمينًا واحدة، وهذا وعد أمريكيٍّ في حال نجاح الخطَّة، أمَّا الأردن فالمساعدات الأمريكيَّة لن تنقطع، خاصَّة بعد أن تطبَّع الأردن علاقتها مع إسرائيل، أمَّا مصر فسوف تسقط الدَّيون التي عليها لدى دول الخليج والولايات المتَّحدة الأمريكيَّة على أن تقف مع دول الخليج وتخرج من مجلس التَّعاون العربي، وتعود الجامعة العربيَّة إلى القاهرة، ويكون الأمين العام مصريًّا.

أمَّا سوريا التي حاولت أمريكا عزها فقد تسلَّمت شيكًا بمقدار ألف مليون دولار كما أشيع لكي تقف مع الدَّول الخليجيَّة، وهي خطوة مصالحة مع (النَّسر الأمريكي) الذي يأخذ من الفريسة ما لذَّ وطاب، ويترك (للدَّب الرُّوسي) الجيفة لكي يصبر بها جوعه حتَّى إشعار أمريكيٍّ آخر.

بدأت الأمور تسخن على رقعة الشَّطرنج، وبدأت الأحداث تتطوَّر بسرعة، السَّعوديَّة تتدخَّل، ومصر تحاول، وحرارة اللقاءات تضع صاحبي القرار سواء كان في بغداد أو الكويت في موضع حرج، مندوب العراق لديه تعليمات محدَّدة من القرار العراقيّ، ومندوب الكويت لديه تعليمات واضحة

وصريحة من القرار الكويتي، العراق يطلب التنازل عن الديون متهمًا الكويت بسرقة النفط العراقي أثناء انشغال العراق بالحرب مع إيران، والكويت ترفض النقاش، ويعتبر الموضوع تهريبًا من دفع الدين الكويتي للعراق وأن هذا نوع من الابتزاز. انتهت المقابلة في (جدة) وكأن مدينة جدة تريد أن تتنازل عن شواطئها الجميلة الهادئة الدافئة ورومانسيّتها العذبة لتدخل في متاهات تسجيل دماء التاريخ بهذا الزخم الإعلامي السياسي العاصف، انتهى الاجتماع على أساس أن يبلغ كلٌّ منهم القيادة في عاصمته، وبعد ذلك لكلِّ حادث حديث، لم تمضِ ساعات، وفي صباح الخميس الأسود استيقظ العالم على اجتياح القوّات العراقية للكويت وصدّم العالم العربي، وفجع الغيورون على الإسلام، المستفيد الوحيد من هذه الحرب هو (الغرب)، والغرب هنا يشمل أوروبا الغربيّة، وأمريكا، وإسرائيل، وإن كان هذا الاصطلاح غير دقيق وغير عمليّ إلاّ أنّه متداول حتّى في أروقة المثقّفين في العالمين (الإسلاميّ والعربيّ) للأسف.

مناحي الذي لا يشارك في الحديث كثيرًا: في ذلك اليوم كنت نائمًا، أيقظني صوت الهاتف، كان صديقي (محمّد درويش) على الطّرف الآخر، وطلب منّي أن أستيقظ وأذهب لتناول طعام الإفطار عنده، ومن ثمّ ندخّن (الشّيشة) وكنت قد تركت أهلي مع أبوها وأُمّها والأولاد في (لندن)، الصّراحة لما شفت القوّات العراقيّة متّجهة نحو الحدود الكويتيّة جاني شعور إنّ هذه الحشود ما راح تعود بدون عمل شيء، وتناقشت مع (الشّيوخ) في الموضوع، وقلت له لا بدّ أن أعود إلى الرّياض، ولكن خائف لا تلبس في (المره)، نصحني أبو سيف أن أسافر وحدي؛ لذلك رحّلت عند "محمّد"، وفطرنا ودخّنا الجراك، وعند السّاعة الحادية عشرة والنّصف أو قرب السّاعة اثنعش في الظّهر اتّصل "فريد"، وأبلغ "محمّد" عن الاجتياح العراقي،

وقال له إِنَّ أمير الكويت قد قتل، كانت تعابير "محمّد"، وهو يستمع لـ "فريد"، وهو يعلّق أف... أف... لا حول ولا قوّة إلّا بالله، إنّنا لله وإنّا إليه راجعون، مصيبة، كارثة، وأنا عيوني مع "محمّد"، وأذني ودها تسمع "فريد"، وعندما أبلغني "محمّد" بعد أن أنهى المكالمة بما سمع.

كان محمّد يهدر وهو يبحث عن المذيع، ويتكلّم ويبحث في (المذيع)، أعجبتك كلمة مذيع يا أخ فالح ترى أخذتها من مجمع اللغة العربيّة في دمشق بتاع (شاطر ومشطور وبينهما طازج) المهم الإذاعة السّعوديّة برامجها عاديّة، حاولنا في إذاعة الكويت دون جدوى، أخيراً سمعنا الخبر من محطة إذاعة دويلة إسرائيل كما يحلو لإعلامنا العربيّ أن يطلق عليها، وهو بسلامته اللي يجبرنا على سماعها، تأكّدنا من الخبر، اتّصلت بالشّيخ في لندن قال: الأخبار اللي عندي أن أمير الكويت عندنا في المنطقة الشّرقية وهو في ضيافة أمير الشّرقية، ولكن هذا لا يمنع أن بعضاً من أفراد الأسرة الحاكمة في الكويت قد تعرّضوا للقتل أو أنّهم أسرى وأنّ الوضع خطير.

وسألته: هل تعتقد أنّ "صدام" راح يتّجه نحو السّعوديّة؟
قال: ما أعتقد... الآن على الأقلّ...

قلت: علي وشو بنيت هذا الاعتقاد... على أيّ أساس؟
قال: مجرّد تحليل القوّات العراقيّة التي دخلت الكويت لا تتعدّى ثلاثين ألفاً، وهناك حوالي ثلاثين ألف عراقي على الحدود الكويتيّة العراقيّة، واجتياح الحدود السّعوديّة من قبل القوّات العراقيّة في هذه الفترة مستحيل من عدّة محاور، أوّلاً المحور السّياسي فالسّعوديّة وقّعت اتفاقية عدم اعتداء بين البلدين قبل عدّة أشهر. ثانياً العالم العربيّ والإسلاميّ والعالم ككلّ سوف يهبّ لنجدة السّعوديّة لعدم السّماح لطاغية مثل هتلر، وجعله يتحكّم في مصدر الطّاقة الحيويّة للعالم، وهذا تقدر تعتبره ثالث المحاور وهو المحور

الاقتصادي، أمّا من ناحية عسكريّة، وهذا رابع المحاور فالعراق يحتاج إلى جيش كبير العدد ليتحرّك برّياً نحو السّعودية، وفي الوقت نفسه يحمي حدوده العراقيّة الإيرانيّة التي قد تستغل الفرصة وتضع العراق في موقف حرج لا، لا ما أعتقد الآن على الأقل، وبعد أن يرتّب نفسه في الكويت ويستقرّ لكلّ حادث حديث.

قلت: وهل تعتقد أنّ العراق سيبقى في الكويت؟

قال: أجل ويشو له دخل الكويت من البداية؟!

انشقّ العرب إلى نصفين هذه المرّة كالعادة، ولكن بتصنيف جديد عرب المع وعرب الضدّ، من وجهة منظور الشارع العراقيّ ومَن يؤيّدهم من الشّعوب العربيّة الأخرى أنّ دول (مع) هي من وجهة نظر الشارع الكويتي والشّعوب العربيّة التي انحازت إليه دول (الضدّ)، والعكس صحيح، وبدأت القوّات الأمريكيّة في التوجّه إلى المنطقة، القرار صائب من وجهة نظر بعض الدّول العربيّة ومرفوض من قبل المجموعة الثّانية، ولكنّ الغريب أن تتحفّظ ولا يكون لها رأي محدّد واضح، فالسّؤال واضح أنت مع أو ضدّ، وتعالّت أصوات، نحن ندين الاعتداء على الكويت ولكن ضدّ دخول قوّات أجنبيّة الأراضي العربيّة، ومَن يحرّر الكويت؟ الجيوش العربيّة المتهالكة، التي لم تستطع أن تسترجع كرامتها من دويلة إسرائيل! ويعلم الجميع أنّ الجيوش العربيّة لا تستطيع إلّا الانقلاب أو قمع الثّورات في الدّاخل فقط؛ لأنّها بنيت لحماية أو الانقلاب على النّظام فقط وليس لحماية الوطن أو المواطن.

دخلت القوّات الأمريكيّة المنطقة، ودخلت قوّات رمزيّة من أنحاء العالم لكي تغطّي العمليّة بقرار دولي، قد يكون هذا تحريفاً، لم يكن في حساب

الولايات المتحدة الأمريكية البقاء؛ لأنّ الدّول الغربيّة وبالذّات فرنسا وألمانيا حتّى بريطانيا صديقة أمريكا لن تسمح أن يكون البترول في منطقة الخليج ملكًا للأمريكيين فقط ولن يقبلوا بفتات أيضًا، أمّا الدّب الرّوسي فهو جائع دائمًا، ويرضى بما يشبع نهمه؛ ولذا تراه متحفزًا عند أيّ انقضاخ للنّسر الأمريكيّ وكذلك التّنين الصّيني، أمّا العالم الإسلاميّ فسوف يحارب كلّ ما هو أمريكيّ في كلّ العالم، وتجدر أمريكا نفسها قلقة حتّى على مصالحها في جميع أرجاء العالم؛ لذلك عندما حسبت أمريكا حساباتها حسبته بالسّنات (الهللة)، فأمرىكا تريد من التّجربة، اختبار قدرتها على السّرعة في الوصول إلى المنطقة وليس البقاء، وتكلفه الخزنة الأمريكيّة مبالغ ما أنزل الله بها من سلطان تحت شعار حماية النّظام الدّوليّ، في حسابات الأرباح والخسائر الأمريكيّة. ماذا أريد؟ ومن يدفع الفاتورة؟ كم تكلف؟ ما هو الرّيح؟

أرقام مجرّدة، أسئلة واضحة وأرقام هي التي تصنع القرار الأمريكيّ، أمّا نحن قوم عرب فنحسبها بالعواطف، أمّا إذا حسبناها صح فالشّرط أربعون لنا عشرون وعسى البلد تخرب والدّنيا تحرق.

علّق "سمير" لإعطاء "راشد" فرصة لشرب الشّاي: أقول لكم نكتة سمعتها (يُقال إنّ وزيرًا يابانيًّا دعا وزيرًا عربيًّا لزيارة دولته، وبعد الزّيارة الرّسميّة عمل الوزير اليابانيّ حفل عشاء للوزير العربيّ، فتعجّب الوزير العربيّ من فخامة منزل الوزير اليابانيّ، وقال له: ما أعتقد أنّ راتبك يكفي لبناء منزل مثل هذا؟

فردّ الوزير اليابانيّ بكلّ ثقة: أكيد لا، ولكن شايف المشروع هذا؟
ردّ الوزير العربيّ: نعم.

قال الوزير الياباني: أخذت عشرة في المائة من المشروع، بنيت المنزل والباقي يكفي لأن أعيش عيشة كريمة حتى الموت.
هزَّ الوزير العربيَّ رأسه.

وبعد سنتين دعا الوزير العربيَّ نظيره اليابانيَّ، وعندما وجد الوزير اليابانيَّ نفسه في قصر الوزير العربيَّ سأله: ما أعتقد أنَّ رواتبكم عالية لهذا الحد.
فهم الوزير العربيَّ ما يرمي إليه نظيره اليابانيَّ فقال له: الحقيقة (وأخذه إلى أحد الشَّبابيك) انظر إلى ذلك المشروع.
نظر الوزير اليابانيَّ حيثُ يشير الوزير العربيَّ، وقال: لا أرى مشروعاً هناك.

فردَّ الوزير العربيَّ بكلِّ ثقة: بالتَّأكيد فأنا أخذت مبلغ المشروع لبناء منزلي، والباقي في الصَّرف على الديكور والفرش. للأسف أنَّ الوضع العربيَّ مؤلم في أيِّ اتجاه.

أخذ راشد بأطراف الحديث قائلاً: المهمَّ نرجع لموضوعنا الأساسي...
الأمريكان صادين رادين... صادين رادين، زي لعبة (مفساح مقطار) تتذكروها، والغول يا عيال الخليج جاهز، "صدام" يحرك دبابتين نحو الكويت، يرتفع عدد القوَّات الأمريكيَّة إلى مائة ألف جندي. وادفعوا يا عرب.

علَّق "الشيخ": بس السَّعوديَّة قالت ما راح ندفع.
أصرَّ "راشد": إذا أسعار البترول لازم تنخفض، وفارق السَّعر أكثر من قيمة الفاتورة، يعني بالعربي وبالأمريكي وبالتَّايْلندي لابدَّ أن تدفع يا حبيب القلب، الأمريكيان ما يعرفوا الله يخليك ادفع؟ ترى أشتيك إذا ما تدفع، كلام فاضي، تدفع يعني تدفع، أو النَّظريَّة الثَّانية الدَّولار والين الياباني، (الولايات المتَّحدة) تشتري لما يكون سعر الدَّولار ١٧٠ أو ١٨٠ ين، يعني

مليون دولار تساوي ١٨٠ مليون ين ياباني، وعند التَّسديد (بقُدرة قادر) يصبح الدّولار ٩٠ ين، يعني تسدّد الولايات المتّحدة فقط ٩٠ مليون ين، أو ما يعادل ٥٠٠ ألف دولار بدلاً من مليون دولار، قال "راشد": المعادلة... والجميع فاتح فمه، ولم يجراً أحد على سؤاله إذا كانت المعادلة صحيحة من ناحية اقتصادية أو ماليّة أم أنّها مغالطة، ولكنّهم يسمعون فقط عن رفع الين مقابل الدّولار، انخفاض الين مقابل الدّولار. والدا وجونز ونيكاي وكاك وكلّ الإخوة مقاييس ارتفاع وانخفاض الأسهم في البورصات العالميّة، ولكن دون معرفة حقيقيّة وكأنّ بها طلاسّم أو سحر، هذا إذا دفعت، ولكنّ الواقع يقول إنّ أمريكا تدفع إذا دفعت الفوائد فقط. قال مناحي أو أبو فالح: يا خوفي بدل ما نطالب بفلسطين نطالب بجزء من العالم العربي لنعيش فيه!

"مناحي" الواضح الغامض في ذهن الشّيخ يتسلّل من الزّاوية كخروج برج الحمل لا يشعر به أحد، فجأة تفتقده، والجواب يكاد يكون متكرّراً... ذهب يقرأ! في إحدى الأمسيّات مناحي يحدث شخصاً ما على الهاتف في الطّرف الآخر: ما انتبهت لكلامك البارحة.

المتحدّث: موضوع الشّيخ!

مناحي: مين هذا الشّيخ؟

المتحدّث: الحقيقة كان المكيّ في محاضرة للشّيخ شدّاد وتحوّلت لمناظرة بين شدّاد ورجل يُدعى أبو عبد الرّحمن، وانتهت بخطف الرّجل للزّاوية في مكّة... الحقيقة كنت أتمنّى تكون معنا.

مناحي: مين كان معاكم.

المتحدّث: خمسة ستّة أشخاص.

مناحي: أبي أساء.

المتحدّث: تعرف المكيّ أبو سفيان وصاحبه وضّاح ومعهم واحد يُقال له فايز.

مناحي: رحيم المكيّ.

المتحدّث: إيه ومحايك وكمان اثنين والله ما عرفت أساميهم، تعرف المكيّ يقول أبو فلان وأبو زعطان، طيّب لو بغيت الرّجال مليون أبو فلان في المملكة.

مناحي: بلّغ صاحبك المكيّ تحيّاتي.

اللقاء بين مناحي وبين المكيّ في إحدى عواصم دول الخليج لم يكن محض صدفة أو لقاء شقيقتين في بيت الجيران، وإن ظهر لمن شاهد اللقاء أو تتبّع أحدهما أنّ الصّدفة وحدها هي المسؤولة عن جمع طرفي المقابلة، المعرض لأعمال أحد الفنّانين الخليجين في العمل التّجريديّ، المكيّ وقف يتأمّل لوحة مجاهدًا أن يفهم شيئًا مما يحاول الفنّان أن يقنع الحاضرين بما يريد، وإذا بشخص على عجلة من أمره يسقطه أرضًا، ويقوم محاولًا مساعدته في النهوض ويعتذر منه، لم يكن ذلك الشّخص سوى مناحي الذي أصرّ على الاعتذار بطريقته وهي دعوة المكيّ لتناول فنجان من القهوة في المقهى القريب من المعرض، وبالرّغم من محاولة المكيّ التّخلّص من هذه الدّعوة معتذرًا لضيق الوقت ورغبته في قضاء أطول مدّة ممكنة في المعرض، قال "مناحي": أنت فنّان تشكيلي؟

المكيّ: الحقيقة... لا تشكيلي أبكي لك.

ضحك "مناحي" وقال: ناقد.

المكيّ: لا.

مناحي: تفهم في هذا الشّيء.

المكيّ ردّ: بصراحة ولا هذي كمان.

مناحي (ضاحكاً): أجل!

المكي: أكيد أنت فتان.

مناحي: أنا أعشق الشعر والرسم.

المكي: يعني تعرف تقول لي إيش الهباب الي عامله أخونا.

مناحي والمكي يضحكان من قلبهما ويخرجان لتناول كوب القهوة، اختارا

طاولة في زاوية المقهى، من خلالها يستطيع حامد أو (أبو سفيان المكي) أن

يلاحظ من يتبعهم أو يقوم بعملية المراقبة أو التنصت، استأذن (المكي) المدعو

لدقائق حتى يغسل يديه، وعاد فقام مناحي بغسل يديه ممّا أعطى المكي فرصة

البحث تحت الطاولة عن أيّ جهاز تنصت وهو الحذر وصاحب:

وَالشَّكَّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَغْلَقْتَهَا أَغْلَقْتَ بَابًا لِلْيَقِينِ عَظِيمٍ

خاصّة وأنها المرّة الأولى التي يلتقي فيها بمناحي خارج حدود الوطن.

المكي: خلاص عزمتموا على السفر.

مناحي: إي... بالله.

المكي: زرافات ولا.

مناحي: بالنسبة لي راح أسافر بروحي.

المكي: وخط السير.

مناحي: دبي الهند.

المكي: حلو... والترتيبات.

مناحي: ابن ياسر راح يرتّب رحلتي لأفغانستان والعودة.

المكي: قد إيه راح تجلس هناك هذي المرّة.

مناحي: مو أكثر من تسعين يوم فترة إجازة المدارس.

المكي: جميل... تحتاج لمساعدة؟

مناحي: الحقيقة أحتاج لاثنين من المساعدين قالوا الإخوان لازم أقابلك.

المكّي: من جنسيّة معيّنة.

مناحي: لا... بس يفضل مَن يكون لغته عربيّة أو إنجليزيّة ومتخصّص في المحاسبة والشؤون الماليّة.
المكّي: هنود مثلاً.

مناحي: المهمّ يكونوا على ملّتنا.

المكّي (مازحاً) وهل تعلم ما في الصّدور؟
مناحي: أنا كلّما قابلتك تذكّرني بهذي... على فكرة متى راح تروح هناك... تصوّر ولا مرّة اتقابلنا هناك، أنا سمعت من الإخوان إنك كنت في (مزار شريف).

المكّي: مين من الإخوان.

مناحي: حسن وعزيز ومصطفى اللي قابلته في لاهور أكّد لي الخبر.

المكّي: وأنت قلت لهم إيه؟

مناحي: أفا ما أري لا أسمع لا أتكلّم.

المكّي: ممتاز على كلّ حال... قل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله يتوكّل المؤمنون... بس لازم تغيّر مكان العمل إذا تبغي تعمل مع الهنود، الشّخص الي ما تراتح معاه تخلص منه بسرعة... وغيّر مكانك.
مناحي: والتمويل؟

المكّي: اختصر في المصاريف على الاحتياجات الضّروريّة في الأوّل بس وبعدين نتفاهم.

مناحي: أيّ تعليمات؟

المكّي: تروح وترجع بالسّلامة.

مناحي: البريد بينا (وضحكا).

عاصم

ألقى عاصم بقلمه الأسود وحبّره الأكثر سوادًا من معاناة كاتب، وتنقّس الصُّعْدَاء وتبسّم بشيءٍ من الغرور وهو ينتهي من إعداد مسرحيّته الغنائيّة "زنزانة الفكر" جانبًا، رفع سمّاعة الهاتف بنشاط واتّصل بصديقه العزيز عمّار الذي وعده بتلحين المسرحيّة إذا ما أعدّها الإعداد المميّز.

عاصم: مرحب عمّار.

عمّار: هلا وغلا برفيق سهيل.

عاصم: كلّنا في الهوى عشق.

عمّار: صح لسانك احنا أهل السّهر والليل بدوننا حزين ما له طعم ولا لون.

عاصم: أبشرك.

عمّار: خير!

عاصم: انتهيت من إعداد المسرحيّة.

عمّار: تجي نقراها سوا؟

عاصم: أنا سيّارتي عطلانة وبلاش تقول خذ تاكسي، وأنا أردّك لأنّك تعرف الزّير وغطاه.

عمّار: بعد نص ساعة أكون عندك ولم القهوة والشّاي.

عاصم: أبشر.

أخذ عاصم يعيد بعض أبيات المسرحيّة، وعندما بلغ (أبتاه ماذا أقول وماذا يخطّ لك بنان) شعرَ بحزنٍ عميق؛ فهو لا يتذكّر أباه الذي فقد في حادث مروريّ وهو لم يبلغ السادسة من عمره بعد، وغرق في ملف الماضي تسحبه الذّكريات من صورة إلى أخرى...

على الشاطئ الشرقي الهادئ إلا من أصوات آلات إخراج الذهب الأسود من باطن الأرض من البلاد، وفي ليلة ظلماء من ليالي الشتاء الطويلة الباردة، إلا من بقايا أضواء تراقص فرحة أم حزينة على حرق وإهدار طاقة لم يحسن الاستفادة منها، تهادى على كثران الرمال الذهبية وكيف لا تكون ذهبية وهي تبيض مئات الملايين من الدولارات الأمريكية بما تخرجه من بطنها يومياً، ساعد ويساعد على تعليم أبناء المنطقة، وتطوير مدنها، وتحديث مستشفياتها، ومن هذه المدن التي لم تحظ حتى ولا ببعض من بقايا فئات مائدة النُفط مدينة (الهفوف) وبالتحديد في أحد الأحياء الفقيرة منها، اقتصر حفل عباس على زينب بنت الباقر محمد علي عباس على أقرب الأقارب فقط.

فقد كان الحفل بسيطاً جداً حتى العباءة (المشلع) التي ارتداها العريس هذه المناسبة، استعارها من ابن الجيران الذي اشتراها من (حراج البشوت) بالرغم من أن أجود البشوت أصلاً تطرز وتصنع في هذه المدينة، خاصة تلك التي يقتنيها الشيوخ، أما فستان فرح العروس فقد قامت والدتها بتغيير طفيف على فستان زواج أختها التي مضى على زواجها أكثر من ست سنوات، وبالرغم من خلوّ الحفل من أيّ مظهر من مظاهر الأفراح التي يسمع عنها، في بعض المدن الأخرى، وكأنّها آتية من خيال كتّاب قصص ألف ليلة وليلة، أمّا تلك التي تُقام في الطبقة المخملية فلا يمكن تصديقها أصلاً من قبل هذه الطبقة، بل يعتبرون المتحدث مبالغاً أكثر من اللازم، فما يحكي عنه من تبذير وبذخ لا يقوم بعمله مجنون، فكيف يقوم بمثله عليه القوم؟! أمّا إذا كان من نسج الخيال فلا خيال يضاهي ألف ليلة وليلة وشهرزاد وشهريار واختلاط الجنّ بالإنس في حكايات خيالية يغرق القارئ ويطير معهم على بساط من حرير يسحبه الأثير.

إلا أنَّ البهجة عمَّت الجميع، وإنَّ تخلُّلَ الحفل بعض اللحظات التي كادت أن تعكّر جوَّ المرح الذي ساد، إلا أنَّها أصبحت من اللحظات التي تفرط من الضَّحك ويتندَّرون عليها عندما يتذكَّرونها لوجودها غير المرغوب فيه، في مثل هذه المناسبات منها على سبيل المثال سكَبَ بعضاً من العصير على ثياب العريس من يد العروس الصَّغيرة النَّحيلة المرتبكة، ومنها بشت ابن الجيران الذي صرخت والدته فرعة على البشت؛ ممَّا أخرج الجميع، وبعد ذلك تعالت الضَّحكات حتَّى أغرقت العيون في برك الدَّموع. من الحزن والألم؟! أم من سخرية القدر؟ ألم يُقال إنَّ شرَّ البليَّة ما يضحك، في اليوم التَّالي بدأ بعض الأقارب والأصدقاء يتوافدون لتقديم التَّهاني والمباركات وبعض الهدايا المتواضعة والتي تُسمَّى (رفدا) للعروسين، وفي الوقت نفسه تتلصَّص على ما حدث أثناء الحفل أو بعده، كيف تمَّت الخطوبة؟ ومتى تمَّت الموافقة؟ ما رأي العروس؟ هل تقدَّم لها أحدٌ غيره؟ لماذا رفضت ذاك وقبلت بهذا؟ هل ستسافر معه إلى الغربة عند الكفرة أم تنتظره حتَّى يعود؟ أسئلة لا تنتهي واستفسارات لا يعرف لماذا تطرح؟ ومَن يستفيد من جمع معلومات كهذه، ولكنَّها العادة لكي ندَّعي المعرفة ببواطن الأمور، وأنَّنا الأقرب والأحقَّ بالمعرفة، عبَّاس الذي يتنسم بطريقة غامضة يجب بأقلِّ قدرٍ من المعلومات ويعتذر عن معظمها، أمَّا والدته التي يُقال إنَّ جذورها بحرينيَّة فقد كانت تتمتع بالحديث عن كلِّ صغيرة وكبيرة، بل تنسى عندما تحاول أن تعيد رواية الموقف نفسه، وتبالغ في كلِّ مرَّة لتجعل الموقف أكثر إثارة وغرابة، وبالتَّالي يتعد عن الحقيقة، الجميع يعلمون أنَّها تسرح وتهدر وتخلط الأحلام بالحقيقة، وما كانت ترغب في حدوثه مع ما أمكنها أن تفعل لسعادة ابنها عبَّاس والظَّهور بثوب يعلم الجميع أنَّها لا تملكه ولا يمكن أن يكون مقاسها، وبالرَّغم من ذلك لا يقاطعها أحد، ولا يجراً أحد أن يذكرها بأنَّها قد قالت

في رواية سابقة للحدث بطريقة أخرى، بل كانوا يتمتعون بحديثها المملوء بالأغلاط، ولكن هذه هي السيّدة أمّ عبّاس، يحبّها الجميع كما هي؛ لأنّها لها نكهة خاصّة.

سبعة أيّام قضاها العروسان في العاصمة الرّياض في منزل أخت العروس وزوجها الذي يعمل في أحد الدّوائر الحكوميّة، ويسكن في الدّخل المحدود في جنوب الرّياض حتّى تنتهي إجراءات سفرهما إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة لكي يكمل عبّاس دراسته هناك في مدينة أتلانتا بولاية جورجيا، حيث يحضّر الماجستير في الفيزياء بعد أن يكمل دراسة اللغة في معهد اللغة في جامعة إلينوي.

بين تصديق عقد النّكاح والحصول على جواز سفر لزينب والحصول على تأشيرة لمرافقة الزّوج وإنهاء إجراءات وزارة التّعليم العالي يذهب يوميّاً من الصّباح ولا يعود إلّا قرب صلاة العصر، ليجد والدته زوجته وشقيقتها يضيفون شيئاً جديداً للحقائب، فهذه علبة للملوخيّة الجافّة، وهذا كيس بامية جافّة، وآخر فاصوليا بيضاء، وغيره لبهار الكبسة، حبوب وبقول بأنواعها؛ لكي لا يموتوا من الجوع أو يضطروا أن يأكلوا أكلاً لم يذكر اسم الله عليه، أنواع من العلاجات الشعبيّة، مياه قرأ عليها الملا الفلاني، بعض الأحجار الصّغيرة التي أحضرت من كربلاء للصّلاة، أدعية للتّحصين، وسجّادتان للصّلاة ممّا اضطرهم لشراء حقيبة إضافيّة، كلّ هذا وعبّاس يتسم، لا أحد يعرف ما تخبّئه هذه الابتسامة خلفها من أفكار، اعتبرها البعض أنّها الخوف من المجهول، أمّا البعض فقد اعتبرها ضحكة بلهاء، وآخرون سخرية ممّا يجري أمامه فهو لن يذهب إلى الرّبع الخالي، بل لأعظم دول العالم حضارة ورقياً، ومنهم من اعتبرها أنّها مجاملة، والحقيقة أنّك لو سألت "عبّاس" نفسه عن سرّ هذه الابتسامة فلن تحصل على إجابة، ليس

لأنه مراوغ ولا يثق فيك لاطلاعك على هذا السرّ الخطير، بل لأنه يجهل نفسه لما ترسم هذه الابتسامة على شفثيه بهذه الطريقة في مثل هذه الأوقات.

هبطت الطائرة في مطار كيندي بنيويورك، نزل العروسان وكانت المفاجأة عندما طلب منهم موظف الجمارك توضيح ما تحتويه حقيبة المطبخ، فهذه الخلطات والشيشة (والجراك) مواد قد تشكّل خطراً، أو تدرج تحت قائمة المخدّرات، كاد "عبّاس" أن يفقد رباطة جأشه ويطلب من الموظّف مصادرة الحقيبة بالكامل، لكنّ إصرار زينب ومحاولتها الجادّة والصّادقة لإنقاذ محتويات الحقيبة من زباله المطار أدّى إلى نتيجة ناجعة بعد أن تدخل مترجم عربيّ متعاون لتوضيح محتويات الحقيبة للموظّف الأمريكيّ الجاهل الذي لا يفرّق بين علبة ملوحيّة ناشفة وأوراق الماريجوانا الجافّة إذا سحقتا، وكذلك تأشيرتهم النّصف دبلوماسيّة، وهكذا وضع عبّاس الحقائق على العربة واستقلّ سيّارة أجرة، وفي السيّارة بدأت زوجته تكيل الشّتم على رجل الجمارك الأمريكيّ الجاهل واتّهمته بكراهية العرب، وموالاته لإسرائيل، إذا لم يكن من الموساد الذين يعملون لحساب الصّهيونيّة العالميّة لمضايقة عبّاس وزينب، وزرع بذور النّكد الأسريّة في بدايات شهر العسل، واستخدام سياسة فرّق تسد، ولكنّ هذا لن يمرّ طالما أنّ زينب هي طرف هذه المعادلة، وتعي كلّ هذه السياسات، كلّ هذا وعبّاس الذي عادت إليه ابتسامته الغامضة، يستمع دون أن يكلف نفسه تعليقاً ولو سخيّاً على ثورة عروسه التي بدأت تهدأ شيئاً فشيئاً عندما لم تجد تأييداً أو معارضة من قبل هذا العريس الذي يغرق في صمته ويتركها في أمواج الكلام تهدر مع نفسها التي ترفعها تارة وتخفضها أخرى؛ لكي تعطي نفسها فرصة لملاحقة الرّئة للتّنفس وأخذ بعض من الرّاحة.

توقفت سيارة الأجرة عند أحد الفنادق القريبة من مكتب الملحق الثقافي السعودي، سمع عباس من بعض معارفه عن مدينة نيويورك وخطورة السير في بعض الأماكن، ونقل هذا الخوف بكل أمانة لزينب التي لا تحتاج لمزيد من الخوف والقلق من هذه المدينة المخيفة والحذر من هؤلاء البشر.

في صبيحة اليوم التالي كان عباس وزوجته في مكتب الملحق الثقافي، وتم إكمال الإجراءات بسرعة وسلاسة عجيبة، رغم أن المكتب الثقافي هذا سعودي إلا أن تقليص الإجراءات ووضوحها وتنظيم العمل جعلت المراجع لا يشعر بالروتين أو نظام (مر علينا باكر) وباكر يتواصل مع اليوم الثاني، وهكذا وجد أن الأمر لم يستغرق أكثر من ساعتين ليحصل على الأوراق والشيك والتعليقات والتذاكر والحجز إلى مدينة جامعية هي مدينة جامعة (إلينيوي) الواقعة في مدينة (شامبين أوربانا) لدراسة اللغة الإنجليزية، وبعد ذلك الاتصال بالجامعات لطلب القبول، خرجا من المكتب ولم يصدقا أنهما سيغادران هذه المدينة الكبيرة المخيفة في اليوم نفسه إلى المدينة الجامعية الصغيرة والهادئة.

كان في استقبالهما امرأة عجوز في العقد السادس من عمرها هي مندوبة من معهد اللغة الإنجليزية التي رافقتها حتى السكن الخاص بالطلبة المتزوجين.

عام كامل قضياه في هذه المدينة، عباس يدرس اللغة في المعهد، وزينب تنتظره بعد أن أعدت طعام الغذاء وقامت بتنظيف الشقة الصغيرة، وتتسوق مع بعض العربيات والسعوديات بالذات أو التجمع للحديث والتعليم الذي جذب زينب بالرغم من أنها لم تكمل سوى الصف السادس الابتدائي؛ فطلبت من سارة التي سبقتها بالعديد من السنوات تعليمها بعضا من الكلمات باللغة الإنجليزية التي تساعدها في إنجاز بعض الأعمال البسيطة،

ومنها كيف تطلب من الطَّعام السَّريع بالأرقام، وكانت سارة تقول بعد نهاية الطَّلَب كلمة (To go) أي سفري لتأخذ الأكل وتذهب مع زينب إلى منزلها ليأكلًا، أمَّا زينب التي تذهب في بعض الأوقات بمفردها فكانت تطلب الطَّلَب من اللوحة التي أمامها بالأرقام وتلحقها بكلمة (توقو)، وبعد أن تحصل على الطَّعام تجلس على أقرب كرسي، وتتناول طعامها مع استغراب مقدَّم الطَّعام، ولكن بعد أن جلس بجوارها شابٌّ أمريكيٌّ في أحد الأيام أخذ يتحدَّث معها وهي تبسم وتلتهم الطَّعام الذي هو عبارة عن شطيرة لحم محشورة في قطعة من الخبز (سندوتش همبرجر)، وهي تنظر إليه ببلاهة، حتَّى طلب منها أن ترافقه إلى منزله، وعندما قالت (Yes) أي نعم، مدَّ يده للمس يدها فإذا بها تصرخ مما أخرجَ الشَّاب وتجمَّع مَن في المطعم لمعرفة ما يجري، وعندما قامت أحد الناطقات باللغة العربيَّة بالترجمة وأوضحت الأمر وهدأت النفوس، اعتذرَ الشَّاب واعتذرت زينب لسوء الفهم الذي حصل.

بعد هذه الحادثة طالبت "زينب" "عبَّاس" أن تدرس في معهد اللغة، وهكذا كان بعد أن أتت الموافقة وبسرعة من قبل الملحق الثَّقافي، وهكذا حصلت "زينب" على إعانة لمصاريف المعهد، عام كامل كان كفيلاً بتغيير الكثير من عادات الزَّوجين، في التَّعامل، في الحوار، في السَّلوكة الاجتماعيَّة، حصلَ "عبَّاس" على رخصة في القيادة، وتعلَّمت زينب قيادة السَّيَّارة، وحصلت هي الأخرى على رخصة لقيادة المركبات، اشترى "عبَّاس" سيارَة مستخدمة بالتَّقسيط، وكانت تقوم زينب بتوصيله إلى الجامعة، ثمَّ الذَّهاب للقيام ببعض الأمور المنزليَّة والجامعيَّة، وبعد ذلك يعودان سوياً إلى المنزل.

أمَّا الحادث الآخر الذي لن يغيبَ عن ذاكرتهم في تلك السَّنة وذلك المكان، سماعهم ضجَّة في الشَّارع في أحد الليالي التي كان الثلج يتساقط فيها

على شكل نتف رقيقة يتجمّع بعد ذلك على غصن شجرة أو على رصيف أو حتى على عمود نور أو كتفي رجل يسير في هذا الوقت وفي هذا الطّقس، أسرع "عبّاس" إلى النّافذة بعد أن أطفأ نور الغرفة وبعد أن حمى جسده بالجدار كما يفعل جواسيس الأفلام الأجنبية، أزاح جزءاً من ستارة الشّباك بهدوء وبما يكفي للسّماح بنظرة تسيطر على مساحة لا بأس بها من مسرح العمليّات في الشّارع المضاء، صعقَ عندما رأى امرأة شقراء عارية تماماً تتسلّق عامود النّور وخلفها أمريكيٌّ من أصل أفريقيّ عارٍ أيضاً تماماً وهو يحاول اللحاق بها، والشّارع مليء بالجمهور الذي تخلص مما يستر عوراتهم عراة كما خلقهم الله! تبرّءوا من حضارتهم وأخلاقهم، لاحظت "زينب" امتعاض زوجها من المنظر، حاولت أن تقترب لترى، نهرّها بطريقة فظة، شعرت بالحرج ثمّ بالإهانة، كيف يسمح لنفسه بعمل شيءٍ يمنعها عنه، وأين هي نظراته الحضاريّة التي يتباهى بها أمام الآخرين خاصّة النّساء الغريبات، لماذا لا يكون واقعياً ويقول نعم أنا شرقيّ والرّجل رجل والمرأة جنس آخر أقلّ درجة، أخذ الغيظ من "زينب" كلّ مأخذ ولكن هل تنتظر حتى يتنازل الرّجل الشرقيّ لها عن مساحة من الحرّيّة، أم يجب عليها أن تنتزع حرّيّتها بقوة دون التّفكير في عواقب المغامرة؟

انطلقت نحو النّافذة بقوة ورفعت السّتارة وأطلّت في الشّارع، وعلى العامود رأت منظرًا أسفت على عصيان أمر زوجها طول حياتها، فهؤلاء الأشبه بالقردة الذين يعتدون على حرّيّة الآخرين، بما يدّعون أنّه حرّيّة شخصيّة. هل هذه هي الحرّيّة؟ أم تراها حيوانيّة؟ هل يتقدّم الإنسان إلى درجة من الرّقّي؟ ويتنكس بعدها إلى رجل الغاب؟ ليبدأ من الصّفر حتى رجل الغاب كان يضع على عورته بعضاً من ورق الشّجر أو جلد حيوان! ومنذ ذلك اليوم عاهدت نفسها أن لا تعصى لـ "عبّاس" أمراً.

وعندما تأخر الحمل لأكثر من عام، وبعد أن ترك معهد اللغة في ولاية إلينوي توجَّها إلى مدينة أتلانتا في ولاية جورجيا، حيث أكملت زينب تعليمها للحصول على الثانوية الأمريكية، قاما بمراجعة الدكتور "سمر فيلد" بنصيحة من المشرف على دراسته الدكتور "جوزيف تيلور" أو "يوسف الخياط" كما يحلو لعباس تسميته، وبناء على تعليمات من زينب التي لم ترغب في الحجز عند الطبيب، ولما أبلغتها أنَّ الحمل يمكن أن يحدث في أي وقت إذا قاما بالعملية أثناء وجود البويضة، وحددت لهم الأيام التي يمكن أن تكون "زينب" جاهزة فيها للحمل... في اليوم الثاني عشر من بداية الدورة تكوني مستعدة ولو حدث حمل في هذا اليوم يكون الطفل أنثى في الأغلب، أمَّا في الخامس عشر الأغلب يكون الجنين ذكرًا وعرفت الطبيبة أنَّ الزَّوجين لا يتمتَّعان بأي ثقافة جنسية إلا القليل جدًّا فخافت أن يتم الحمل ويتحمَّل هذان الجاهلان مسؤولية نفس بشرية؛ لذا أعدت لهما (برنامج خاص) لتعليم "زينب" عن المرأة في وقت الحمل. كيف تراعي نفسها وجنينها وزوجها؟ كيف تتمّ المعاشرة؟

كيف يتعامل "عبّاس" معها في فترة الحمل؟ حتّى الولادة!

لم يمض سوى ستون يومًا حتّى غابت الدورة عن زينب، وبعد اختبار أوّلي أثبت وقوع الحمل أتبعه اختبار آخر يؤكّد ذلك، وهكذا زرعّت بذرة إنسان من إنسان في ظلمات رحم إنسان، خلق لم يكن موجودًا فوجد، ومعنى أن يتشبّه بما يُسمّى بالمشيمة هو ما يجعله مستقبلًا يتشبّه بالحياة.

هذه النطفة الغامضة التي دفنت سرًّا في امتداد الزمن، تلك المضغّة التي لا يمكن أن يدركها أحدٌ، أو حتّى يحسّ بوجودها أو يتعرّف على جنسها ذكرًا كانت أم أنثى، أعلنت تلك العَلَقَة بصراحة عن حقّها في الحياة، لتصرخ في وجوهنا وتلطمنا بقولها (في ليل العتمة تضيء فجأة شمعة) تشعلها يدٌ غير

مرثية... هل هذا ما نطلق عليه الأمل عندما يلوح لنا لهيب تلك الشمعة وهي تنثر ضوءها؟ نحسّ بدفء الأمان الذي ينتشلنا من برودة خوف جمد ظروف وأحداث المستقبل في حناياه. لا جديد في أنّ هذه العلقه هي نواة إنسان، والسؤال هل يعلم ما مصيره؟

حتماً إذا كُتِبَتْ له الحياة فسيمرّ بمراحل الزّمن المتقلّب تجذبه الأحداث التي لا حول لها ولا قوّة، ولا يمكن أن يوقفها إلّا إرادة عصيّة تحارب علّها تحقق طموحات يعتبرها البعض مغامرات لمحدوديّة قراءة المستقبل والهجاء الحقيقيّ لحروفه المبعثرة.

الفرحة بخبر ثبوت الرّؤية أنّ الجنين قد أخذ مكانه الطّبيعيّ، في ظلام الرّحم كانت ظاهرة في وجه "زينب" وعيني "عبّاس" الذي كَتَبَ رسالة لخاله ليبشّر والدته في الهفوف و يبلغهم فيه الخبر السّعيد.

الرّيّارات لعيادة الدّكتورة للمتابعة مستمرة بانتظام، وحضور المحاضرات والدّنّوات وكذلك التّسوّق لمعرفة أحدث الرّضعات والملابس وأثاث القادم الصّغير، الأحلام تتحوّل إلى أفكار معلّنة بصوت عالٍ بين الرّوجين بترتيب برنامج الضّيف الجديد تؤدّي إلى توضّحات لوقت يجب أن يستقطع من راحتهم لكي يصرف من الرّوجين لرعاية المقبل.

مرّت الأشهر المحدّدة، وفي الثّانية صباحاً من يوم الخميس الخامس من الشّهر الخامس تمّ نقل الأمّ إلى المستشفى المقرّر لها الولادة فيها، ونقلت بسرعة إلى غرفة المخاض؛ حيث بقت هناك حوالي تسع ساعات وهي تتألّم بينما "عبّاس" يقرأ سورة (يس)، ويعيد قراءتها ويكرّر الأدعية نفسها التي أوصته عليها والدته، عندما طلبت منه الطّبيبة أن يدخل غرفة الولادة ليرى بعينه كيف تتمّ الولادة، لم يصدّق إلّا وهو في رداء الفريق الطّبي وقد وضعوا الكمامة على وجهه، صراخ "زينب" يمزّق قلبه، وهي تحسّ بأحشائها

تتمزّق، كاد أن يغمى عليه عندما شاهد الدّماء وآلة لشفط الجنين، وما هي إلا لحظات حتّى تمّ سحب الجسم الصّغير وفصله عن جسد أمّه لآخر مرّة، أمّا فرحته الأكبر عندما صاحت الطّبيبة ولد ذكر بصحّة جيّدة، وألقت بجسد الرّضيع بين يديه قبل تنظيفه، ضمّه إلى صدره، أحسّ بلهب الشّمعَة ودفّنها الحبيب يسري في جسده، شعور غريب، تبدّل في الإحساس فجأة يتابه، وأخذ يحدث نفسه: أب... أنا أب... أنا أبو عاصم... شعور جميل نزل كالبرد سلامًا على قلبه.

اجتمعت بعض العائلات العربيّة والسّعوديّة على وجه الخصوص في نزل "عبّاس" و"زينب" لمشاهدة الطّفل العربيّ الجديد الذي من حقّه بموجب القانون أن يحصل على الجنسيّة الأمريكيّة ليزداد العرب الأمريكيّون رقمًا آخر، هذا البعض والبعض الآخر لتقديم التّهانّي، أمّا صديقتها سارة فقد أصرّت على مساعدتهم في الاعتناء بالخدمات المنزليّة وكذلك الاعتناء وغسل الرّضيع وتعليم زينب كيف تعتني بنظافته وشدّه في الكافولة، ورعاية الرّضيع سواء كان من ثدي أمّه أو من الرّضاعة الصّناعيّة، كانت تذهب معها عند الحاجة لمراجعة الطّبيب الخاص بالأطفال، أو بخصوص جرعات التّطعيم التي كانت تُعطى بانتظام وحسب جدول محدّد ومواعيد معيّنة.

مرّت سنوات ستّ وهم في عراك مع الحياة المجدولة في أجندة الوقت بانتظام، ويراقبان نموّ عاصم الصّغير وتعليمه بعض الكلمات باللغة الإنجليزيّة، ويتركونه مع مربية أطفال أمريكيّة معظم الوقت الذي يكونان فيه مشغولان عنه بالدراسة أو حضور بعض الحفلات أو المناسبات؛ ممّا أكسب الصّغير اللكنة الأمريكيّة في نطق بعض الكلمات التي تعلّمها.

عاد "عبّاس" إلى الوطن ومعه الشّهادة، وطفل في الرّابعة من عمره و"زينب" حامل للمرّة الثّانية.

تمّ تعيينه مدرّساً للفيزياء في إحدى المدارس الثانويّة، استأجر شقّة صغيرة في عمارة صادف أنّها حديثة وقريبة من مدرسته، وبدأ مع "زينب" بتجهيزها بأثاث بسيط وضروريّ فقط، واشترى سيارة صغيرة مستخدمة من أحد الوافدين الذين انتهت عقودهم، في اليوم السّابع لولادة ابنته "زهرة" خرج من الصّباح الباكر لشراء العقيقة والتّرتيب للحفل، انتظرت زوجته عودته حتّى المساء، ولما لم يعد اتّصلت بأخيها "عبد الرّب" الذي حضر مسرعاً ليعرف تفاصيل الحديث، خرج بعد ذلك لأقسام الشرطة ثمّ المستشفى العام، حيثُ "عبّاس" يلفظ أنفاسه الأخيرة من جرّاء حادث مروريّ.

"عبّاس" وهو يصارع الموت تتسارع أمامه صورّ من أيّام صباه وكأنّ أحداثها كانت بالأمس القريب، يتذكّر مدرسته الابتدائيّة وزملاءه، وعندما عاقبه والده عندما وجده وزميليّه "عبد الرّحيم" و"محمود" وهم يدخّنون سيجارة مقلّدين الكبار.

وعندما تعلّم قيادة الدّراجة الهوائيّة، وكيف صدم أحد النّسوة في الشّارع، وسقطت عباءتها وهي تلعنه، وكيف حمل درّاجته التي كانت تحمله وهرب.

شريط الذّكريات يمرّ على كلّ محطات حياته... القبيح منها والجميل، يتذكّر عندما أحسّ أنّ جسمه أخذ ينمو بسرعة وهو في الصّف الأوّل الإعدادي، وحديث خاله مع والدته أنّه أصبح رجلاً ويجب أن ينام في غرفة بمفرده في الدّور الأرضي بجوار غرفة والده، وتمّ ترتيب الغرفة بأثاث بسيط أحسّ بشعور غريب في أوّل ليلة ينام بمفرده في تلك الغرفة، أحسّ بالحرّيّة والخصوصيّة التي يتطلّبها ذلك السنّ أو تلك الفترة من مراحل الحياة، وعندما التقت عيناه بـ "عبلة" تلك الطّفلة التي لعبت معه كانت نظرتها لها

تختلف في هذه المرة، فشعرها الذهبي المنسدل على أكتافها العاريتين يداعبها ويطير بعيداً عنها قليلاً ويحطّ مرّة أخرى عندما يتعب أو يحسّ برغبة في مداعبة الذراعين الأبيضين الناعمين، حسّ بنشوة لطيفة، حاول أن يطفئها بللمسة رقيقة من يديها الصّغيرتين الدافئتين، كان لا يراها من قبل بهذه الصّورة، أمّا اليوم فهو يرى نموّها وحلاوة حمرة خديها وعينيها الزرقاوين الواسعتين كمحيط في صفوة سماء في وضوح النّهار، وشفتيها المرسوميتين على يد نحاتّ محترف، سبحان الخالق خلّق الإنسان في أحسن تقويم، وفي الشّارع الثّاني كانت "نجلاء"، والتي كانت في سنّه تقريباً لعباً معاً، ولكنّها اختفت عنه خلف حجاب كان دائماً يحاول أن يجد ثقباً ما فيه لكي يراها ولكن هيهات.

يتذكّر ذلك اليوم الذي سكنت فيه عائلة قادمة من مدينة جدّة أو ما يطلق عليه الحجاز في الشّارع نفسه عندما التقيا بنظراتهما، فإذا كانت الأذن تعشق قبل العين أحياناً فلا شكّ أنّ العينَ تعشق في معظم الحالات، وقد شاهدها بأمّ رأسه... هي تحاول أن تضع حاوية الزّباله عند الباب، كانت عيناه كصقر يبحث عن فريسة قد صوّرت شعرها الأسود وجزعها الممتلئ وهي تنحني لتضع الحاوية الصّغيرة على الأرض، ولون بشرتها الأسمر وعيناها الحادثان البرّاقتان التي أرسلت ذبذبات سرعان ما احتواها قلبه برجفة هزّت كيانه، لم تكن تتوقّع أن يكون هناك مَنْ يراقبها، ولكنّها تنبّهت عندما اقترب من الحاوية فجفلت كغزال أحسّ بغريزته أنّ الصّيّاد قد اقترب بخطرته أكثر من الحدّ المسموح، وعليها أن تفرّ من أمامه بأسرع وقت ممكن، وهكذا كان، أخذ الحاوية وألقى محتوياتها في مكان تجمع الزّباله، ثمّ أعاد الحاوية إلى مكانها وذهب دون أن يلتفت وكأنّه صائدٌ محترفٌ يريد أن يطمئنّ الفريسة، وكان له ما أراد... الموعد في الوقت نفسه من كلّ يوم، وكذلك المكان عند الباب،

وَالسَّبَبُ التَّخْلُصُ مِنَ الزَّبَالَةِ، وَالثَّمَنُ ابْتِسَامَةُ رِضَا مِنْ ذَلِكَ الثَّغْرِ الْمَكْتَنَزِ وَحَدِيثُ غَامُضٍ مِنْ تِلْكَ الْعَيُونِ الْجَرِيئَةِ الصَّاحِكَةِ، لَمْ تَكُنْ "مَنِى" جَمِيلَةً مِثْلَ "عَبَلَةٍ" أَوْ فِي رِشَاقَةٍ وَجْهَالٍ "نَجْلَاءٍ"، وَلَكِنَّهَا بِكُلِّ تَأْكِيدٍ كَانَتْ أَشْهَى الْجَمِيعِ وَأَجْرَأُ مِنْهُنَّ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا تَحِبُّهُ، كَيْفَ لَا وَهِيَ تَنْتَظِرُهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ، وَتَظْهَرُ لَهُ مِنْ مِفَاتِنِهَا مَا تَسْتَطِيعُ عَيْنَاهُ أَنْ تَسْرِقَهُ فِي تِلْكَ الثَّوَانِي، وَعِنْدَمَا أَلْقَتْ بِمَنْدِيلٍ مَعْطَّرٍ بَدَلًا مِنْ حَاوِيَةِ الزَّبَالَةِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَانَ يَحْسُ أَنَّ أَهْلَ الْمُنْطَقَةِ كُلَّهُمْ رِجَالًا وَنِسَاءً، شِوَحًا وَأَطْفَالًا قَدْ عَلِمُوا بِقِصَّةِ جَمِيلٍ بَشِينَةٍ أَوْ كَثِيرِ عِزَّةٍ أَوْ مَجْنُونٍ مَنِى، كَانَتْ ضَرْبَاتُ قَلْبِهِ تَتَسَارَعُ حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَصِلَ إِلَى ذَلِكَ الْمَنْدِيلِ، وَالْعَرَقُ يَنْهَمِرُ مِنْهُ؛ مِمَّا أَرْبَكُهُ أَكْثَرَ، وَجَفَّ رِيقُهُ وَهُوَ يَلْهَثُ لِيَصِلَ لِذَلِكَ الْبَابِ اللَّعِينِ وَيَخْطِفَ الْمَنْدِيلَ، وَعِنْدَمَا وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَرَّ هَارِبًا لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، وَكَأَنَّ الْعَالَمَ كُلَّ الْعَالَمِ يَجْرِي خَلْفَهُ لِيَأْخُذَ ذَلِكَ الصَّبِيدَ الثَّمِينِ مِنْهُ، دَخَلَ إِلَى غُرْفَتِهِ وَأَغْلَقَ الْبَابَ وَأَلْقَى بِجَسَدِهِ عَلَى السَّرِيرِ وَوَضَعَ الْمَنْدِيلَ عَلَى وَجْهِهِ، وَأَخَذَ يَسْتَنْشِقُ عَطَرَ أَنْثَى لَا يَعْرِفُ مَا هُوَ شَعُورُهُ الْحَقِيقِيُّ نَحْوَهَا، وَبَعْدَ سَاعَاتٍ قَامَ وَوَضَعَ الْمَنْدِيلَ فِي الْمَخْبَأِ السَّرِيِّ مِنْ مَكْتَبِهِ، وَأَخْرَجَ وَرْقَةً وَقَلَمَ وَكَتَبَ:

طِفْلَتِي السَّمَرَاءُ رَفَقًا وَابْدِئِي أَنْتِ التَّحِيَّةَ

إِنْ طَلَبْتُ الْوَصَلَ مِنْكَ أَنْ تَزُورِي عَشِيَّةَ

لَا تَقُولِي لِي تَعَالِ بَلْ تَعَالِي أَنْتِ لِيْهِ

فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ نَسْهَرُ نَرَشِفُ الْكَأْسَ سَوِيًّا

فِي عَنَاقٍ وَوِثَامٍ وَغِرَامٍ يَا بَنِيَّةَ

إِنْ سَكِرْتَ مِنْ يَدِيكَ حَلَلَهُ لِيْهِ

وَإِنْ طَرِبْتَ مِنْ سَوَالِكِ حَرَمِهِ دِينِي عَلَيْهِ

عَانَقْنِي قَبْلِيْنِي أَحْرِقْنِي قَدْ خَلَقْتَ لِلْأَذْيَةِ

وأخرجني ثوبك عنك كي أرى جسداً طرياً

وأخرجيني من لباسي كي أتم ما علياً

كان يمَنِّي النَّفْسَ بقاء عاصف مع "منى"، ويراها من خلال نافذة السيارة، وهي تنطلق متَّجهة في طريق العودة إلى الهفوف تاركة الأودية والأشجار والحجار خلفها، وكأنَّها رسوم متحرَّكة تظهر من خلالها "منى" بشفتيها الممتلئتين وخديها النَّاعمين وشعرها الغجريَّ المجنون، يتخيَّلها تضمُّه إلى صدرها ويدوب في رَمَانيتها يعصرها وتعصره حتَّى دمعت عيناه وهو يتخيَّل ويشمُّ حَبَّات العرَق التي أخذت تسيل من نحرها، وعندما عاد من الدَّمَام بعد وفاة جدِّته ولم يجدها بعد أن غادرت مع أهلها الهفوف، وذلك بعد وفاة والدها بالمرض الخبيث كما قال الجيران، صدمته الأخبار وحزن حزناً شديداً على والد حبيبته... ذلك الرَّجل الطَّيِّب، وأحسَّ بطعم المرارة من الفراق؛ فأخذت سرعة نبضات القلب الصَّغير تزيد من رشح العرَق في جسده، وكذلك ارتفاع درجة حرارته أدَّت إلى جفاف الحلق مثلها مثل تلك التي داهمته عندما شاهدها أوَّل مرَّة، ولكن في هذه المرَّة شعر بقشعريرة، ومن ثمَّ نقل على إثرها إلى المستشفى وأصابته الحمى، مكث في المستشفى سبعة أيَّام وغادرها بعد أن تلقَّى العديد من الهدايا وإن كان أهماها هديَّة والده.

صور ومشاهد تتحرَّك بسرعة في خيال رجل يصارع الموت لا يحسُّ بألم عضويٍّ ولا يتأوَّه، ولكنَّ النَّزيف لا يزال يطغى على محاولات الفريق الطَّبيِّ التي تسابق مسافات الزَّمن المتبقي لإيقافه، و"عبَّاس" يحسُّ بالألم نفسه والطَّعم نفسه في داخله، وخيط الذِّكريات طويلاً والأيَّام حبلً بالأحداث الخاصَّة منها والعامَّة، خاصَّة تلك التي تركت في نفسه مورثات سياسيَّة، كانت إذاعة صوت العرب تبثُّ شعارات الوحدة، الحرِّيَّة، العدالة، المساواة؛ ممَّا أغرى "عبَّاس" أن يردِّد هذه الشُّعارات التي لم يعرف أنَّها جوفاء إلَّا

مؤخراً عندما التقى بـ "سعيد محمد" القادم من نجران الجنوب، الذي كان يكبره في السنّ والقراءة والخبرة الحياتيّة، وإن كان زميله في المرحلة نفسها، وأعطى له أوّل دروس في (السياسة)، الوحدة العربيّة، التّقديميّة، كلمات كان يردّها ولم يكن يعي ما تعنيه، مصطلحات كان يحاول أن يسوقها ولا يعرف عن أهدافها إلّا أنّها كانت تدغدغ في نفسه مشاعر يحسّ أنّها قد تجعل من الأُمّة الإسلاميّة دولة كبيرة قويّة كما كانت. لم يكن يعرف أنّ (التّقديميّة) تعني ترك ما هو موروث، حتّى ذلك الذي جاء على لسان محمّد عليه الصّلاة والسّلام، بل المقصود هو ترك الإسلام والانصياع واللهث خلف حضارة غربيّة علمانيّة ملحدة لا تمتّ لنا بصلّة، أمّا عندما وصل إلى الصّفّ الأوّل الثانوي فقد أعطاه صديقه الجديد، الذي تعرّف عليه عن طريق معركة كلاميّة كادت تؤدّي إلى تشابك بالأيدي بين الاثنين. قرأ "وضّاح الليثي" بعضاً من كتب "عبد الله القصيمي" وقصصاً لنجيب محفوظ، وأعجب بنجيب محفوظ في ذلك الوقت حتّى أنّه لم يصدّق ما قيل عن رمزيّته في قصّة (أولاد حارتنا)، ولكن عندما قال أحد الشعراء السّعوديين الكبار في حديث له إنّ الغرق في رمزيّة مثل هذه يؤدّي إلى انحطاط أخلاقيّ في الأدب، عندما قرأ القصّة مرّات ومرّات مع صديقه "وضّاح" الذي أعطاه أسماء وضعها بدل الشّخوص في الرّواية، عندها فقط عرف أنّ الأعماق الإنسانيّة بعيدة عن الرّؤية السّطحيّة السّاذجة، وأنّ البحث في أغوارها يحتاج إلى عناء وصبر وخيال. قرأ ليوسف السّباعي وإن كانت قصص "إحسان عبد القدّوس" مثل الوسادة الخالية ولا أنام تثير فيه بعض الغرائز الأخرى، وهو يعاني من المراهقة في ذلك الوقت إلّا أنّها كانت بمثابة الحديقة الجميلة الغنّاء بالنّسبة له هرباً من أفكار "عبد الله القصيمي" أو أسلوب "العقّاد" أو فلسفة "المنفلوطي" وجديّة الدّكتور "طه حسين"، وغيرهم من المفكّرين

والأدباء، ومعظمهم بطبيعة الحال من (مصر).

صور وأحداث بعيدة وقريبة تتراقص أمام عينيه، تتداخل في بعض الأوقات، فلا تعني شيئاً وتظهر بوضوح في أوقات، "زينب" في ثوب العرس، ابتسامته الغامضة، وجوه، البعض يعرفها والآخر يتعد عن الذاكرة، وجه عاصم الصَّغير يبكي بعد أن سقط من فوق الأريكة، ها هو يضحك، رضيعة تحاول أن تحرَّك يدها أهي تودّعه؟ أم تحيه؟ هل هي زهرة ابنته التي لم يتمتّع برؤيتها؟ ما هذا الدَّم الأسود الذي يسيل على الجميع؟ الصُّور مهزوزة تختفي في ظلام وتعود صوراً رماديّة، وفجأة اختفت وأسلم الرّوح إلى بارئها.

نزل الخبر كالصّاعقة على زينب، فها هي الآن في ريعان شبابها ومعها طفلان لا عائل لهما إلّا الله، وكأنّ الأقدار تشاء أن تلعب دوراً في لحظات اليأس القاتلة إذ تقدّم لها رجلٌ تزوّج عدّة مرّات علّه أن يرزق بطفل ولكن! فقد حمد الله أن يكون لهذه صبي وصبيّة يكسب أجر تربيتهم، وهكذا كان، مرّت السّنوات على وتيرة الحياة العاديّة يستيقظ من نومه، ويذهب إلى العمل، ويتناول طعام الغداء، ويرتاح ويقضي بعض الوقت مع الأصدقاء ويعود لينام وهكذا، كبر عاصم والتحق بالمدسة القريبة من المنزل، لا ينقصه شيء ولا يعكّر حياته إلّا حزن أمّه الذي لا يعرف له سبباً، ولكن يحسّ أنّ الحزن يملأ قلبها، ينعكس ذلك على وجهها ويظهر في عينيها وهي تحتضنه بين الفينة والفينة وبجواره ترعرعت زهرة التي يخاف عليها من أيّ شيء وكلّ شيء، فقد وجد في شقيقته سلوته، وإحساساً غريباً أنّه المسئول عنها، حتّى مع وجود هذا الغريب الذي أقحمته الظّروف بينهم، عندما بدأ في الصّف الأوّل الثّانوي أحسّ أنّ زوج أمّه يكثر من السّهر مع أصدقاء جدد، وكثر سفره للدّول المجاورة وغيباه فيها، وتذرّره من المصاريف، وحاول أن

يخلق شجاراً معه ولكن بلباقة اعتذر وانسحب من الموقف إكراماً لوالدته، وتحدّث مع خاله عبد الرّب عدّة مرّات أنّ "جميل" زوج أمّه يسكّر وهو يخاف على أخته فاطمة، يصبح أكثر حذرًا لدى عودة عمّه جميل، وفي إحدى الليالي وبعد أن أغلق الباب على أخته، ذهب إلى غرفته للنّوم فسمع صراخ والدته، توقّف قليلاً، وعندما شعر أنّ هناك عراقًا غير متكافئ لم يجد نفسه إلا وقد فتح الباب واندفع نحو زوج أمّه يبعده، وكانت معركة بالأيدي انتهت بكارثة طلاق الأمّ.

الحادث خلق في "عاصم" شخصاً آخر؛ فهو طالب ملتزم في الفترة الصّباحيّة، يعمل سمساراً في (جراج المستخدم من الأثاث المنزلي منه والمكتبي) في فترة العصر حتّى العشاء، أمّا زينب فقد كانت مع ابنتها تحاولان خياطة بعض الفساتين للأقارب والجيران، شعر الجميع بسعادة غامرة، وعادت البسمة لزينب بالرّغم من قسوتها إلا أنّ طعم الحرّيّة والكرامة والتّعاون بين الجميع له مذاق وأيّ مذاق، عاصم الذي بدأت هوايته بالشّعر الحرّ أو الحديث كما يسمّيه البعض يدرس وأخته زهرة تدرس في الصّباح، وتساعد في أعمال المنزل والحياكة مع والدتها.

في الصّف الثّالث الثّانوي وقبل امتحان الثّانوية العامّة ببضعة أسابيع، كان عقد قران ابنة خاله عبد الرّب، النّساء في منزل خاله أحمد والرّجال في منزل أبو العروس، وإن كان المنزلان في فناء واحد يجمعهما سورٌ واحدٌ إلا أنّ لهما بابان منفصلان، نام الرّجال وبقي الشّباب يتسامرون، والنّساء في المنزل الآخر يتغنّين ويرقصن، فوجئ الشّباب بـ "حمودي" الصّغير الذي وضعوه عند باب النّساء؛ كي لا يعكر صفوهم متطّفل بطلب النّجدة وصراخه المتواصل لاقتحام شاّبين الممرّ المؤدّي للنّساء، وراحوا يتلصصون عليهنّ من خلف النّافذة، هُرِعَ الجميع بما فيهم "عاصم"، عندما سمع المتطفّلان

أصوات الشَّباب حاولا الهربَ، ولكن "عبد الرَّبِّ" ابن خاله أحمد الذي يكبرهم سنًّا مسك بأحدهم وأخذ يكيل له اللكمات وهرب الآخر، حاول عاصم أن يفصل بينهما لفارق السَّنَّ والبنية بين الاثنين، وفي هذه اللحظة حضرت للموقع سيَّارات الدَّوريَّة، ولسوء الحظَّ كان الشَّاب المتطفَّل ملقيًّا على الأرض و"كاظم" يركله بقدمه مبعَّدًا "عاصم" بيديه عن طريقه، ألقت الشُّرطة القبض عليهما، وفي القسم علما أنَّ المضرَّوب في المستشفى يعاني من كدمات وهو ابن أحد الطَّبقة الرَّاقية في المجتمع وذات نفوذ وأيَّ نفوذ، اعترف "كاظم" في المحضر بأنَّه مَن قام بالضَّرب وحده، ولكنَّ الأوامر أتت ببقاء الشَّابَّين في الحجز حتَّى مثولهم أمام القضاء، وأمام القاضي برًّا "كاظم" ابن عمِّه "عاصم" من الاشتراك كما جاء في محضر الشُّرطة إلَّا أنَّ الحكم صدرَ بسجنهما معًا لمُدَّة ثلاثة أشهر في السَّجن العام، عاصم الذي حاول أن يشرح موقفه من محاولته منع ابن خاله من ضرب الشَّاب وجد نفسه في مكان كان أخشى ما يخشاه أن يقترب منه لا أن يدخله.

ثلاث أشهر قضاها البريء مع ابن خاله، وهما لم يبلغا الثامنة عشر من عمرهما في السَّجن العام، تعرَّضا خلالها للضَّرب والاعتصاب والابتزاز من المساجين الآخرين وبعض من ضعاف النَّفوس من المسؤولين عن السَّجن، أو تحت نظرهم، ومارسا التَّدخين والمخدَّرات، عندما يأوي إلى الفراش يفكِّر في الانتقام... سوف أعمل على شراء سلاح، هل أنتقم من الشَّاب صاحب النَّفوذ؟ من رجال الشُّرطة؟ من زوج أمِّه؟ من القاضي؟ من هؤلاء السَّفلة... من سقط متاع المجتمع؟ أم من ضعاف النَّفوس المشرفين على السَّجن؟ كيف أشتري السِّلَاح؟ كيف أبحث عنهم واحدًا تلو الآخر دون أن يلقي بي في السَّجن مرَّة أخرى ليحكم عليَّ بالإعدام قبل أن أشفي غليلي منهم؟

سوف أنتظر الشاب عند المدرسة، ومع زحمة الطلبة أقترّب مثلثًا منه وأطلق عليه رصاصة واحدة في رأسه لا يستحق أكثر منها وهي كافية.

أمّا رجال الشرطة فمن الأفضل أن أبحث عن قبلة موقوتة عند تجمعهم في الدائرة السّاعة العاشرة صباحًا، سوف أضع القبلة في حقيبة يدويّة وأدّعي أنني محام أريد أن أقابل أحد الموقوفين، وبعد ذلك أضعها أو أسلمها لأحد الجنود وأطلب منه بحدّة أن يسلمها وبسرعة لرئيس القسم فهي تحتوي على أوراق مهمّة من الإدارة العامّة في العاصمة، وأترك المكان وتنفجر الحقيبة في محاولة فتحها أو مرور الزّمن أيّهما أقرب!

أمّا القاضي فيجب أن يعرف العذاب... سوف أقوم بخطفه وسجنه في مكانٍ ما... وأتلذّد وأنا أنظر إليه وهو يعرق خوفًا من السّلاح أو يتوسّل لقطرة ماء، سوف أمنع عنه الأكل والماء، ونكاية فيه أحضر ما لذّ وطاب من الماء والشّراب وألتهمه أمام ناظره، ألاحظه يضعف حتّى الموت، عذاب يشبه ما وصفه الكسندر توماس في رواية مونت خريستو التي قرأتها في مكتبة المدرسة.

أنظر إلى وجهه وأصرخ: تتذكّرني أيّها القدر؟ سأعيد على مسمعه الكلمات نفسها التي وصمني بها أنا "عاصم"، "عاصم عبّاس" البريء الذي حكمت عليه ظلمًا بالسّجن، بالرّغم من أنّ الفاعل اعترف بالجريمة، ويش تقول ها... ما سمعت... ارفع صوتك... أنت بريء كمان. أجل تتهم العدالة... تقول إنّ العدالة تقتض من الأبرياء فقط، هذه جريمة... كيف تسبّ العدالة؟ كيف تتجرّأ وتشتّم العدالة في البلد؟ لا. لا بدّ من عقابك أنت وأمثالك... هذي جريمة عقابها السّجن والجلد مع الحرمان من الماء والطّعام، اغلط كمان اغلط أكثر عشان نعاقبك، ويش استفدت من سجنني ظلمًا ها... قل لي، علّمتني كيف أعامل أصحاب الثّفوذ، خلقت منّي

مجرماً... أنت هذا أنت تتوسَّل تبى ماء، الولد تذكره... صاحب النفوذ اللي سجتني ظلمًا عشانه... ذبحته بدم بارد وبرصاصة واحدة قدام زملائه، ورجال الشرطة فجَّرت عليهم المركز، وأنا متعاطٍ للمخدرات لوطني... هذا علاجك، هذا تعليمك... وأنت كما الكلب الأجرَب تلهث تبى عظمة محروم منها. شوف القَدْر... هذه صناعتك كيف تصنع مجرماً... والله اسم حلو لفيلم ولا مسلسل تليفزيوني ولا وشو رأيك قرار يصنع مجرماً أو قاضٍ يصنع مجرماً، وأضحك وأنا أعذِّبه وين الشريعة اللي تعلَّمتها؟ وين القسم اللي أقسمته؟ ولا هذي شريعة أبدعتها من فساد المجتمع جديدة النِّظم... هذي بس نظام الانتقام واحد ما يتغيَّر. تسعة وثمانون ليلة وهو يحلم في الانتقام يُغيَّر ويبدِّل... يحدف ويعدِّل حتَّى خلط بين الواقع والخيال الدَّامي.

خرج عاصم بعدها شخصاً آخر جريح الكبرياء، يبحث في زوايا الأمكنة المظلمة البعيدة عن أعين رجال الأمن لممارسة المحرِّمات، المحميَّة من البعض، ترك الدِّراسة وانتقل إلى عالم آخر، عالم اهلوسة والانحراف لا يعود إلى والدته وأخته إلَّا لسلب أو لنقل السَّطو على ما يتبقَّى لديهم من نقد وإن كان قليلاً لا يكفي... يأخذ ما تيسَّر من قطع المنزل لبيعها وصرف كلِّ ما يحصل عليه على المخدَّرات.

زهرة التي كانت تبكي في صمت على شكوى أمِّها وهي تسمعها تستجير بالله بصوتها الباكي الشَّاكي: يا الله... أنا أحبُّك ولم أعصك قط... إن كنتَ تختبر حبِّي لك والإيمان بك وأنَّ هذه المصائب التي تنهال علينا أنا وهذه الطُّفلة البريئة، أعرف أنَّ منذ يوم ولادتها ونحن في رحمتك لن أتبع طريق الشَّيطان وأنا مؤمنة بعزِّك وجلالك، ولن أقول إنَّها ولادة شؤم، امتحن ما شئت فلن أكفر بقدرتك على أن تلتطف بنا؛ فأنا أمتك بنت أمتك وعبدك، وقد وعدت ووعدك حقَّ وقلت وقولك حقَّ... ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

فها أنا أمتك زينب أنضرَّع لك بأن تهدي ولدي "عاصم" وتسامحه فيما اقترف من ذنب، وتحمنا من شرور أنفسنا ومن سلطة مَنْ لا يخافك ولا يرحمنا يا أرحم الرَّاحمين، زهرة وهي تسمع دعاء أمِّها وهي تبكي تردّد خلفها بصوت مليء بالبكاء ودموع تجري بغزارة:

- آمين... آمين.

في أمسية كان الوقت فيها يقترب من منتصف الليل دخل "عاصم" إلى المنزل، فثَّشَّ عن نقد، ولما لم يجد انهال على أمِّه بالضَّرب وهرب... لا يعرف إلى أين؟

كان في حالة من الهستريا يترنَّح في الطَّرقات، تضايقه أنوار السَّيَّارات التي كانت تبتعد عنه كي لا تصدمه، وعلى أحد الأرصفة وفي جوٍّ قارص البرودة من شتاء لا يرحم، سقط على أحد الأرصفة وعند صلاة الفجر وجده أحدهم وهو في طريقه لأداء الفريضة في الجامع، حاول أن يساعده على النهوض، نجح معه بعد عدَّة محاولات، وضع يده حول رقبة الرَّجل ومسك الرَّجل بخصره النَّحيل ليساعده على المسير، أخذه إلى منزله، قدَّم له بعض الطَّعام والشراب.

الرَّجل: وش اسمك؟

عاصم: عاصم.

الرَّجل: كم عمرك؟

عاصم: تسعة عشر سنة.

الرَّجل: وين أبوك؟

عاصم: ميّت.

الرَّجل: رحمه الله وش اسمه؟

عاصم: "عباس الباقر جاسم"... "جاسم عبد ربِّ الرِّسول".

الرَّجُل: ونعم.
 عاصم: نعم حالك.
 الرَّجُل: وش صابك؟... بك مرض؟... تشكي من شيء؟
 عاصم (مستغلاً جهل الرَّجُل): الظاهر.
 الرَّجُل: وين أهلك؟
 عاصم: تقصد مين؟
 الرَّجُل: عمين... خيلان... أمك!
 عاصم: ما عندي... والدي وحيد.
 الرَّجُل: وأمك وين أمك ما لها إخوان؟
 عاصم: أمي تزوجت برجال ثاني طردني من البيت.
 الرَّجُل: وخالك؟
 عاصم: ما ييغاني أعيش معاه عشان البنات والبيت ضيق.
 الرَّجُل: هذي مشكلة العزوبة في ها الدّيره... منبوزين... أنت تدرس؟... تشتغل؟!
 عاصم: لا.
 الرَّجُل: عاطل وجاهل!
 عاصم: عاطل بس متعلّم.
 الرَّجُل: وش الشّهادة الي معك؟
 عاصم: الثّانويّة قسم علمي.
 الرَّجُل: ما شاء الله، وليش ما كمّلت الجامعة؟
 عاصم: الطّروف.
 الرَّجُل: طيّب ليه ما اشتغلت.
 عاصم: وين العمل؟... الجامعيين ما هم محصّلين وظائف.

الرَّجل: العمل فقط للجامعيين ما في أشغال أخرى مساندة؟!
عاصم: على يدك.

الرَّجل: هناك ناس تبيك تصبح داعية ولازم تحفظ القرآن تكسب الدنيا والآخرة ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

عاصم: كيف؟

الرَّجل: تحفظ القرآن وتأخذ راتباً آخر كل شهر ويؤمن لك سكن في ملحق المسجد، والطعام مجّاناً، بس توقّف مع مجموعتك عند المساجد بعد صلاة الجمعة لجمع تبرّعات لمساندة فلسطين وأفغانستان والصّومال والشّيشان.

عاصم: والمجاعة في كلّ مكان! (ضحك الرَّجل من سرعة بديهته وحرصه على السّجع) يعني شحاتة بالقانون.

الرَّجل: كلنا فقراء، ووحده الغني (قالها بشيءٍ من إعادة الوضع إلى الالتزام).

عاصم: لا بأس.

وهكذا خطى صاحبنا أوّل خطوة في رحلة الطّريق الشّاق بعد أن ختن عقله دون أن يعي إلى أين تأخذه هذه الخطوة، قال في نفسه: (ريشة في مهبّ الرّيح ما تعرف في أيّ أرض تقع أو إيش مصيرها)، وجد نفسه في عالم لا يمت للعالمين الآخرين اللذين عاشهما بصلة، لا عالم حياته العاديّة التي عاشها بخيرها وشرّها مع أسرته، ولا عالم المخدّرات الذي دفع إليه دون إرادة منه، فأصبح ما هو عليه الآن عالم من الشّباب لا يعرف عن أيّ واحد منهم شيئاً غير كنية يدعوه بها فيجيب، أمّا كنيته فقد رفض أن يختار من مجموعة قدّمت إليه لم يعجبه أيّ منها فأطلق على نفسه (الجريح)، أمّا اسمه

الحقيقي فلا يعلم ذلك غيره وغير مَنْ زَجَّ به في هذه السَّكك وهذه المجموعة،
وسأل بشيء من الخبث: هل هناك مجاميع أخرى؟

ولم يلقَ جوابًا، ولكن من قراءة بعض العيون استشفَّ أنَّ هذا سؤالَ
خطير، ومن أخرى لا نعلم، ومن ثالثة قد، ومن القليل نعم.

ثلاثون شهرًا بالتَّمام والكمال مرَّت حفظ فيها القرآن، يستلم شهرًا ألفين
وأربعمائة ريال، يزور والدته وأخته شهرًا يسلمهما مبلغ ألفي ريال شهرًا
ويحتفظ بالباقي.

بعد أن انتهى من حفظ القرآن بدأت دروس التَّوعية والاستعداد
للاتِّشار للدَّعوة، لاحظ ذلك الشَّاب، بلهجته المكيَّة، وشخصيَّته الجذَّابة،
وصوته الذي لا يخلو من نبرة الخطباء، وتمكَّنه من الاسترسال في الحديث
والإقناع، كان ذلك الشَّاب بالرَّغم من صغر سنِّه يبدو أنَّه من عائلة لها وزنها
في المجتمع، ليس هذا فحسب بل إنَّه هو المسئول عن هذه المجموعة، ويحاضر
نيابة عن بعض المشايخ في حالة غياب أحدهم، لم يندفع للتَّقَرُّب منه، بل كان
مجتهدًا في التَّحصيل من هذا العلم الوفير، لم يختلط بأحد حسب نصيحة
الرَّجل الذي قاده إلى هذا المنعطف من الحياة، ولكن عرف كنية ذلك الشَّاب
وهي (المكي).

شغله هذا الشَّاب الذي كان يسحره بحديثه، يفكِّر فيه، يسأل عنه في
حالات غيابه، وهو يعرف الإجابة مسبقًا، قد يكون له عذر في الغياب ولكنَّ
الغياب يتكرَّر ويزداد فترات عن الأخرى، وأحسَّ في داخله أنَّ هذا الشَّاب
مهم في شخصه أيضًا، لا يعرف لماذا يشعر بهذا، ولكن يستطيع أن يؤكِّد أن
تجاهل المشرف وهو عمل الشَّاب يعني الإعجاب، وقد صرَّح بذلك عدَّة
مرَّات عندما كان يجيب على بعض المسائل بطريقة عجز عنها قرناؤه في
المجموعة؛ فكان يقرأ في عين السَّائل ووجهه الكثير من الارتياح والتَّشجيع،

بالإضافة إلى كلمات الحثِّ والدَّعاء بأن يزيد الله من العلم ويلحقه بالصَّالحين، هذه الدَّعوة التي لم يعرف مغزاها بالرَّغم من تكرار المشرف (المكِّي) لها عندما يهتته على حلِّ لمسألة ما.

في إحدى الأمسيات طلب المشرف المكِّي من الجميع حضور تناول العشاء مع مجموعة من المشايخ وأنَّ شخصيَّة مهمَّة ستكون حاضرة وستكون الوليمة على شرف هذه الشَّخصيَّة المرموقة والمعروفة (بالشيخ) فقط دون ذكر أسماء عرف أنَّ الشيخ لا ييغض أكثر من شخص يعارضه الرأى؛ فهو يُعْتَبَر مرجعاً بل من أهم مراجع الجماعة، وأكَّد المشرف على الجميع الحضور ولن يقبل لأحد عذراً.

حضرَ الجميع بما فيهم صاحبنا... قام الأفراد وهو ما يطلق عليهم في هذه المرحلة التي تسبق مرحلة المريدين التي هي أعلى درجة من تلك التي يرتقي إليها البعض دون الآخر بالسلام على جبهة الشيخ، وجلسوا في المجلس، الشيخ الذي طلب من أحد المشايخ أن يحكي لهم بعضاً مما يعلم قال الشيخ: هناك رجل أعمى قبيح (وخلق الله زين) قصير بدين أسود السَّحنة جاهل عاطل بلغ عمره السَّادسة والثلاثين ولم تقبل امرأة أن تتزوَّجه، فشكا ذلك لأحد معارفه الذي كان يداوم على زيارة أحد الأقطار العربيَّة المجاورة في فترات متكرَّرة؛ فاقترح الصَّدِيق على صديقه أنَّه يستطيع أن يزوَّجه من شابة جميلة متعلَّمة، وما على صاحبنا إلَّا أن يأخذ أمراً بالزَّواج من أجنبيَّة من السُّلطات المختصَّة، قام الرَّجل وقَدَّم طلباً بهذا الخصوص، وعندما شرح موقفه للمسؤولين وافقوا على طلبه، فطلب منه صاحبه أن يعطيه وكالة بكتابة عقد النِّكاح بالإنابة عنه وأن يصدِّق هذه الوثيقة من وزارة الخارجيّة وسفارة تلك الدَّولة، وقام هو بتصديقها من وزارة خارجيّة ذلك القطر، وبحث عن فتاة بكر من أجمل ما رأت عين وسمعت عنها أذن أو يتخيَّلها فنَّان، قد أنهت

دراستها الجامعيّة ومن أسرة محافظة، فصيحة اللسان، لها من بساتين العلوم أزهار وأفكار، عذبة الكلام، فتقدّم لأهلها وقدّم لهم صورة شاب من أوسم الشّباب لم يتجاوز عمره الرّابعة والعشرين ربيعاً، وذكر أنّ هذا الشّاب الذي في الصّورة هو من أبناء أحد الأسر الثّريّة وهو الوارث الوحيد لأموال والده الذي توفي ولا ينافسه في هذه الثّروة أحد، حافظ للقرآن، ملتزم، لا يترك صلاة في مسجد مع الجماعة، ويرغب في الزّواج من فتاة لها مواصفات هذه الفتاة، وافقت الفتاة على أن يأتي الشّاب ليتمّ إجراءات الزّواج، فاعتذر صديقنا لأنّ الشاب لا يستطيع أن يأتي أو يترك عمله، وقد كلّفه بهذه المهمّة نظراً لثقة الشّاب به، لم تطلب العروس مهراً عاليّاً، طمعاً في عيشة رغدة مع هذا الفارس، وعندما تمّ إتمام عقد النّكاح وتمّ تصديقه من الدّوائر الإداريّة المختصّة والجهات الرّسميّة، لم يطلب صاحبنا من العروس إلّا أن تحضر بفستان زفافها فقط، وعندما وصلت إلى البلاد ووجدت أنّها متزوّجة من ذلك الدّميم الفقير الجاهل رفضت أن تجعله يمسّها، وذهبت مع أخيها الذي حضر معها كمحرم إلى القاضي، وشرحو له القصة، وطلب حضور الزّوج فحضر وقال القاضي موجّهاً كلامه إلى الزّوجة: ماذا تريدان من رجلك؟ الفتاة: أريد أن يطلّقني ويعيدني إلى ديارى.

القاضي (موجّهاً كلامه للزّوج): هل ترغب في طلاق زوجتك؟ قال الدّميم: يا سباحة القاضي لن أطلّق فهي زوجتي على شرع الله! فأمر القاضي الفتاة أن تعود لبيت الزّوجيّة وأن تطيع زوجها فيما يرضي الله.

وسكت الرّاوي، عاصم يستمع للقصة غير مصدّق لما سمعته أذناه، فقال شيخ المجلس: أحسن القاضي صنعاً (وأكمل) ما هو رأيك يا شيخ فلان، وأجاب الشيخ بموافقته على قرار القاضي، وأخذ يسأل من في المجلس واحداً

تلو الآخر حتّى وصل الدّور عند جريح الزّمن، قال "عاصم" بأدب: اعفني يا شيخ من الإجابة.

ردّ الشّيخ بشيءٍ من الحزم: لو أردت إعفاءك من الإجابة لما سألتك (وبلهجة أمرة) أجب.

عاصم: حسب الرواية التي ذكرها الشّيخ فالزّواج باطل.

الشّيخ وقد رسم الغضب على وجهه مما أربك المجلس: كيف... على أيّ أساس بنيت حكمك هذا؟

عاصم: ما بُني على باطل فهو باطل، وهذا الزّواج كما ذكره صاحبنا في روايته بُنيّ على تدليس وغشّ، ومَن غشَّنَا فليس منّا.

اكفهرّ وجه الشّيخ، ومما زاد من توتر الموقف أن طلب أحد المشايخ من "عاصم" أن يعتذر ويغيّر فتواه؛ فرفض عاصم وأصرّ على أن قاضيًا في الجنّة وقاضيان في النّار.

أذن الشّيخ للجميع بالقيام لتناول طعام العشاء، قام "عاصم" بكلّ ثبات، والنّظرات تراقبه من جميع الاتجاهات، ولم يعرها أيّ اهتمام، جلس على سفرة الطّعام بهدوء وبرود غريبيين، وأخذ يتناول طعامه بشهية بالغة، ولا يعنيه أحد من أولئك الذين لم يكتفوا بالتّغامز بالعيون، بل بالهمس أيضًا، وعندما انتهى من طعامه انتظر حتّى انتهى الشّيخ فحمد الله "عاصم" على نعمه بصوت مسموع وأكمل بصوت أكثر هدوءًا ووضوحًا، وفيه من التّذكير بالعمل والتّأمّل في معاني كلام الله الكثير وشيء من الجرأة ورباطة الجأش والاعتداد بالنّفس ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ﴿١﴾ ﴿صدق الله العظيم﴾.

ترك الجميع المجلس بعد أن ودّعوا الشّيخ، وعندما تقدّم عاصم لوداع الشّيخ ضغط الشّيخ على يده فردّ على ذلك بالمثل دون أن ترتجف شعرة في

رمش عينيه، وفي الشَّارع سمع صوت المشرف وهو ينادي عليه: يا أخ جريح.

الجريح: لبيه.

المكِّي: لن تحضر بعد اليوم في الجماعة.

الجريح: يعني فصلي!

المكِّي: من هذي المجموعة نعم، ولكن هناك مجموعة دعاة أفضل وتقدر مواهبك وإعانتها أفضل.

الجريح: وفيها شيخ مثل صاحبنا؟

المكِّي وهو يتبسم: أقسى من ذا شوي.

الجريح وقد انفرجت أساريره: يضرب يعني ما عنده غير يده إذا لقي واحد مشاكس مثلي.

المكِّي: وأنت مشاكس.

جريح الوقت: لا والله بس السَّاكت عن الحقَّ شيطان أخرس.

المكِّي: لا ترجعنا للشَّياطين الأخرس.

الجريح: الله لا يكتبنا منهم، زمن ولَّى وراح، حسب ما علمنا.

المكِّي: على كلِّ حال أشوفك بكرة عند باب المسجد ونروح للجماعة.

الجريح: وأنت تعرفهم؟

المكِّي: تمام المعرفة.

الجريح: إيَّي والله أحبَّك في الله، وقد قال نبراسنا رسول الله ﷺ: "إِذَا

أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُبْلِغْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ فِي اللَّهِ"، وها أنا أفعل، وراح أسمع كلامك وأقسم على كتاب الله بذلك، وأخرج مصحفًا صغير الحجم من جيبه ووضعه في يده ووضعه ناحية القلب، وأقسم سوف أطيع أوامرك في غير معصية الله لأني أعلم أنك معجب، ولا أقول بأنك وصلت إلى درجة الحب مثلي.

المكي: والله إنني أحبك في الله، وأقسم بذلك على كتاب الله (وخطف المصحف منه وفعل كما فعل الجريح)، على شرط أن لا تطلب مني معرفة اسمي أو عنوان سكني وكذلك أفعل أنا.

انصرف من في الشارع جميعًا ولم يبق غير الاثنين، تعانقا عناقًا حارًا حتى دمت عيناها وانصرف كلُّ منهما في طريق.

المجموعة الثانية التي التحق بها لم تكن إلا تابعة لنفس المجموعة، ولكن هنا بدرجة مريد أي أن صاحبنا قد ارتفع درجة بعد تلك المقابلة دون أن يعلم، اختلف الوضع، كمية الدروس، التدريب، المهام، المعلومات، تجميعها، تبويبها، التأكد من مصادرها، تدقيقها، تحليلها، كيفية التعامل مع المعلومة، متى؟ أين؟ كيف؟

فالمعلومة كالرصاصه إذا أطلقتها لن تعود إلا بجريح أو قتيل، وكلاهما يحتاج علاجًا! موقف يمكن الاستغناء عنه، والمعلومة مادة حيّة، لا تُرى، ولا رائحة لها إلا ما نتخيّل أو نشيعه عنها لنحرقها، ولا طعم... إلا من يتذوق التعامل معها... يبحث عنها... يجمعها كمن يجمع الفراشات ويحفظها ويصنّفها، لها بنك خاص يُسمّى بنك المعلومات تحفظ فيه مثلها مثل غيرها من المواد التي يجب أن تحفظ، وكلما كانت المعلومة مهمّة وخطيرة كانت خزائن حفظها أكثر أمنًا؛ فهي مثل الدّم الذي يحفظ في بنك الدّم ويحتاج لعناية فائقة، ومثل المخدرات التي تُستخدم في العلاج، يعتمد كلّ ذلك على

حساسية وقيمة المعلومة، تاريخها، تصنيفها، مدى أهميتها كيفية الاستفادة منها!

التقرير السري الذي كُتِبَ عن الجريح، وأطلع عليه المكّي يدلّ على أنّ صاحبنا لديه ميول لدراسة الطبوغرافيا، ولديه موهبة وضع الخطط والاستراتيجية العسكرية، كما أنه يتمتع بمعرفة ممتازة بأنواع الأسلحة الخفيفة والمتوسطة، وله علم في التكتيك والمناورات التي تعلّمها من مراوغة رجال الأمن، ورجال مكافحة المخدرات، وكيفية تغييرها، وتضليل المراقب إذا كان هناك من يراقب، ويستطيع أن يرفع من الروح المعنوية والقتالية وهو قائد ميدانيّ من طراز نادر، أمّا المناطق التي يمكن أن ينجح فيها فهي أن يعمل في مجموعة لحرب عصابات أو ما شابه ذلك، ويحتاج لبعض التدريبات الخاصّة؛ فالموهبة ليست كافية، بل تحتاج إلى علم ومعرفة.

تمّ تعيين مدرّب على أعلى مستوى بأن يكون مسئولاً عن تجهيز الجريح لمدة سنتين، منها بعض الوقت من العمل في الميدان، سواء كان في أفغانستان أو الشيشان أو الاستفادة من حرب العراق وإيران.

درجة الحرارة تقترب من الصّفر المئويّ، الأمطار الغزيرة، والرياح، وصوت الرّعد وضوء البرق الخاطف، الذي يدلّ ولا يفضح أولئك الذين كُتِبَ عليهم السّر في معصيته يختفي ليظهر في لحظات، ونحن نترقّب لومضه الزائر المغادر.

الطائف تغرق في ليلاها ومياه أمطارها التي ارتفع منسوبها عن السّنوات الأربعين السّابقة حسب معلومات إخبارية بثتها الهيئة العامّة للأرصاد لا يستطيع أحد أن يؤكّدها وبالتالي لن تُنْفَى من أحد، فهي خبر يتحمّل الصّدق في ثنائه كما يتحمّل المبالغة، وليس الكذب الأبيض. غرقت الطائف كما غرقت في همومها وأحزانها بعد أن خطفت (جدة) لقب عاصمة الصّيف أو

العاصمة الثالثة في الترتيب؛ فهناك الرياض العاصمة الرسمية، ومكة العاصمة المقدسة، والطائف التي أُسْقِطَ في يدها بعد سحب البساط من تحت قدميها لتستولي عليه مدينة الرطوبة والحر والافتتاح والبحر (جدّة) لتحظى بلقب عاصمة الصيف، وبالتالي خسرت اقتصادياً، وحضارياً، وثقافياً فُنِقَتْ بعض الأموال من العاصمة الرياض، ومن مكة وجدّة وبقية المدن إلى الطائف كان كافياً لتطوير هذه القرية الكبيرة لتصبح من أهم مدن المملكة، ليس هذا فحسب بل نافستها مدينة أبها البهيّة على جبال عسير الباردة، خاصّة بعد أن فتحت خطوط التّواصل والاتصال، بين الجنوب والشمال.

فتحوّلت الهموم إلى طاقة فكريّة لتحرير الوضع، ما لبث أن صدم بجدار النّار ولا الحوار؛ فتحوّلت الطّاقة الفكريّة إلى غضب صامتٍ، ونارٍ تتأجج تحت رماد دافئ، لا تحسّ بوجودها إلّا بعد أن تحرق أصابعك فتعلم أنّ هناك بركاناً من الحمم نائر في قلوب قاطنيها من أبناء القبائل الذين لا تستطيع أن تقرأ في سحنة وجوههم السّمراء القاسية ما يدلّ على شيء أي شيء فتحتار في هذا الغموض الخادع، أمّا تلك الابتسامة التي تذكرك بأنك إذا رأيت أنياب الليث بارزة، فلا تظنّ بأنّ الليث يتسم ولا يغرنك مظهر الثوب الذي يرتديه أحدهم؛ فقد لا يكون ثوبه أصلاً، فالصّخور الملساء، التي تغري بنعومتها للاستلقاء عليها قد تكتب لك قصّة نهاية لقاء، وتلقي بك في هاوية أحد أوديتها السّحيقة.

منطقة (الرّدف) بضمّ الرّاء كي لا ينحرف معنى المكان لمن يعرفونها، بجبالها النّاريّة الرّسوبيّة المختلطة، وكهوفها السّاترة الفاضحة، تحوّلت أوديتها إلى جداول تجري فرحة متلوية حسب أوامر المجرى الذي يتحكّم في مثل هذه الأمور من نواميس الحياة وطبيعة الأمور، تتراقص قطرات المياه المنحدرة والمنسابة، تراها عندما يضيء لك البرق بعض من مساحة الرّؤية في

عتمة ليل أعمى، فتلاحظها تجري كلؤلؤ منشور، أو بريق ماسة هرولت
حبّاتها من عقد فرط حبله فتحرّرت حبّاته هاربة من قيد جيد صاحبتة.

في أحد تلك الكهوف كان أبو سفيان المكي يتوارى ويظهر ليطمئن على
موعد القادم في هذا المكان والزّمان الغريبيين، يتوارى ليرتشف قليلاً من
القهوة العربيّة وبعض التمر ويظهر تحاول عيناه أن تصيد أملاً من بصيص
ضوء لا يظهر، فيلقي ببعض النوى الذي تجمع في راحة يده يتحدّى قوّة
الطّبيعة وطاقته التي بدأت تظهر قلقها على القادم.

الوقت يمرّ ببطء، ملل الانتظار ووحشة الوحدة، وسوء الأحوال الجويّة،
وفجأة تقفز فرحة اللقاء ومفاجأة الوصول دون ضجّة:

المكي: حيّاك... تأخّرت... وين وقفت السيّارة؟

عاصم: سلام لي له الخافق يهلّ... الصّراحة (الكاديلاك) داخل الكهف
هناك ما يمشي غير على سرعة ثلاثة كيلو في السّاعة، بالذّات في هذه الأجواء.

المكي: يا حبيبي لو ركبت بهيمة؟

عاصم: أجل أنا راكب سيّارة... راكب حمار... حمار.

المكي: صدق!

عاصم: صدّقني أفضل وسيلة في هذا الجو، وبعدين ما حد يشك مجرّد

شك إنّني راح أستخدم بهيمة في مواصلاتي لو كان هناك واحد يراقب!

المكي: صدقت، بس كيف لقيت الحمار.

عاصم: أنا نزلت عند مستور في البستان وأخذت منه الحمار، خير.

المكي: خير... تحب تشرب قهوة وتمرّ تراه سكري القصيم جديد.

عاصم: (يمدّ يده لتناول فتجان القهوة من يد المكي وينتظر الأخبار)،

عساك تسلم هات العلوم.

المكي: أبشرك... الرّجال وصل هناك.

عاصم: عاود من لندن؟

المكي: إيه.

عاصم: حسب الخطّة؟

المكي: تغيّرات بسيطة، لكن كلّ شيء مشي سموث آن إيزي.

عاصم: وها الحين؟

المكي: أنا قابلته هناك... بس منّي مطمّن... أبغى واحد مثلك معاه دايم.

عاصم: يراقبه؟!

المكي: يرهاه.

عاصم: دادة... يعني بيبي ستر شايفني مربية أطفال أنا؟!

المكي (وهو يضحك): لا... مو لهذي الدرّجة... أنت يا الله خادمة وتنتبه

للولد.

عاصم: الحقيقة العمل معك متعة... متى ودّك أسافر؟

المكي: بأسرع وقت... أنا خايف على (ماهر) أكثر من أيّ شيء صدّقني

تعبننا، والشّيخ تعب معنا على ما حقّقنا مرادنا.

عاصم: وكيف تبيني أتعامل معه؟

المكي: دلّعه على الآخر خليه يحسّ إنّه بدونك ولا شيء.

عاصم وهو يضحك: حتّى لو.

المكي: لا... لا تخف... طريقه زراعي.

عاصم: متأكّد؟

المكي: راح نسلمك صورة من ملفّه لدراسته، وبعدين تعرف تتخلّص

من الملف، وراح تتأكّد بنفسك من كلامي.

عاصم: على بركة الله... أوامر أخرى؟

المكي: ما يأمر عليك ظالم... لا أوصيك على نفسك وعلى الرّجال،

واكتب كلّ اللي تحسّ بيه زي العادة، وأشوفكم إن شاء الله بعدين.
عاصم: قلت إنك تعرّفت على الذّيب.
المكّي: إي بالله قابلته كذا مرّة بس لازم نتأكّد من مشاعره ومبدئه،
الطّريق اللي إحنا فيه يخوّف وما يبغاله تسرع.
عاصم: وما يبغي سرحان لو عدو كان مكاني كان زمانك في الجنّة.
المكّي: ما توقّعت إن (...) راكب حمار.
عاصم: أحلى ما فيك كفشاتك بس برضها حلوة لكنّي ضحكت عليك
يا أبله.
المكّي: مع السّلامة.
عاصم: حبيبي أنت مع السّلامة... أنا راح أنام هنا وبعدين آخذ حماري
وأتحرك.
المكّي: بدل حمار الحكيم راح أسميك حكيم الحمار... تصبح على خير
عندك مضير وتمر وقهوة.

ماهر

وجهي وسط عينك يقول عني الضياع
منديل ورق ساعة وداع
حزن وألم غربة شراع
هذا أنا حالي أنا وقت الوداع
أبي أمشي وماني على الخطى قادر
أبي أعبر جبال مالها أول تلال مالها آخر
وأنت يا بعد عمري مسافر

استيقظ متعباً على رنين الهاتف، تحرّك بثقل يبحث عن الهاتف بعينين
نصف مفتوحتين منتفختين من التعب والإرهاق، وعندما صدم بقدمه
الهاتف رفع السّاعة بثناؤٍ وبصوتٍ غارقٍ في النّوم، خرجت الحروف من
حلقة متضخّمة:

- الو.

الصّوت: الو.

ماهر: خير؟!

الصّوت: لسه نايم؟

ماهر: خير؟!

الصّوت: ما سمعت الخير؟

ماهر: خبر!

الصّوت: بالله ما سمعت الأخبار؟ وتقول صحفي بعد.

ماهر: يا حبيبي ترى ما نمت غير حوالي عشرة الصّبح وتعبان، هات اللي عندك.

الصّوت: البس ورح على الجريدة.

ماهر: خير إيش عندك؟

الصّوت: الملك (بصوت خافت).

ماهر: عسى ما شر؟

الصّوت: انتقل إلى رحمة ربّه.

ماهر: كيف؟ (صدمه الخبر) متى؟

الصّوت: الآن تو الديوان يعلن الخبر.

ماهر: إنّ الله وإنّا إليه راجعون... أنا ألبس وألحقك.

الصّوت: لا تتأخّر.

ماهر: إن شاء الله.

الاسم: ماهر بن شاهر فيصل (حسب بطاقة الأحوال الرّسميّة).

مكان الميلاد: قرية (س).

المنطقة: الرّياض.

اسم الأم: لطيفة.

تأريخ الميلاد: ٨ / ٧ / ١٣٧٨ هـ.

الاسم الحركي: أبو نائر.

في الطّريق وضع مؤشر المذياع على قناة البرنامج الثّاني، وعندما سمع القرآن في هذا الوقت تأكّد أنّ الخبر صحيح، المقالة... جاهزة زي خطب الجمعة... فك أيّ ملف قديم والطش كم كلمة منّا وكم جملة رنّانة منّا وبيت شعر، ومين يقرأ... المهم هو العنوان الأنسب (موت ملك) لا... لا... لا...

وداعًا يا حبيب الشعب... لا... لا مات الملك عاش الملك... أكيد راح
يودوني السجن، الحقيقة إنَّ الملك المرحوم محبوب ورزقه واسع والخير هلَّ في
عهده، وكلَّ النَّاسِ تدعي ليل نهار إن الله يطوِّل عمره بس من خمس وسبعين
لثنين وثمانين... سبع سنوات فقط، سبع سنوات صح سبع سنوات سمان، يا
خوفي تنفهم غلط وتجي سبع عجاف وهات... لها والله يدوسوا في كبدي
وهده قلبه (الملك الصَّالح إلى جنَّة الخلد).

دخل المبنى... سلَّم على مدير التحرير رئيس التحرير موجود في مكتبه مع
كبار الكُتَّاب والمؤرِّخين... كلَّ جهابذة الجريدة قال في نفسه: الأستاذ
الفيلسوف موجود لو أقول آية من القرآن الآن ما يعرف إنَّها آية... راح
يصلحها ويقول لو تقول كذا وتغيِّر هذه بهذه صاح: سلام وألف رحمة تنزل
عليه وتعازي للجميع، فقد كان بصدق محبوب الجميع.
أصوات مختلطة - الله يرحمه.

مدير التحرير: ها... عسى فكَّرت في عنوان رئيسي.

ماهر: الحقيقة إيش رأيك في (الملك الصَّالح إلى جنَّة الخلد).

الفيلسوف: إلى جنَّة الخلد أيُّها الملك الصَّالح.

كاد ماهر أن ينفجر ضاحكًا لولا مهابة الموقف، خاصَّة عندما غمره
"سمير" بإشارة من عينه.

ماهر: جميل... طال عمرك (وهو يوجِّه كلامه لمدير التحرير) إلى جنَّة
الخلد أيُّها الملك الصَّالح... نكتبها في المانشيت في الصَّفحة الأولى... نكتب ما
قاله الأستاذ أيمن... أمَّا مقال التعزية للجريدة نكتب جملة الملك الصَّالح إلى
جنَّة الخلد.

مدير التحرير: ومقالتك يا شاطر.

ماهر: جاهزة طال عمرك.

المدير: العنوان.

ماهر: خالد... في الفردوس خالد.

المدير: رائع كَمَل... كَمَل المقالة وتعال لمكتبي.

انشغل... يبحث في ملف الانجازات التي تَمَّت، اختار أهمّها لمقالته ومنها القضاء على الفتنة الكبرى في الحرم المكي الشريف... شغلته الفتنة، أعضاء التنظيم خلايا... مال... سلاح، مال... التمويل أين باقي المبلغ؟

مهنة الصحافة مهنة المصاعب والمخاطر الصحفي الجيد، مثل رجل المباحث الجيد يجمعهم الحسّ أو البعد الصّعب وسمع مرهف وعين كعدسة آلة التصوير، أنهى المقالة ولم يترك مبنى الجريدة حتّى تأكّد من تصحيح المقالة والعنوان وحجم العنوان وصورته ومكانها البارز، صحيح أنّه صغير في السنّ؛ إذ لم يتجاوز عمره أربعاً وعشرين ربيعاً، وجديد في الجريدة، ولكنه من القلائل الذين يحملون شهادة متخصصة في الإعلام ومن الولايات المتحدة الأمريكية، وقد ولد صحفياً فهو يعيش القلم.

ألقي بنفسه على السرير ولم يستيقظ إلّا في صبيحة اليوم التالي... نام وهو يفكر في التمويل، واستيقظ من نومه وهو يحلم، وكم هائل من الأسئلة يتحاور في ذهنه في صمت: هل تمّ القبض على جميع الأعمدة؟ احتمال...! هل وضعت الجهات الأمنية يدها على المبالغ التمويلية كاملة؟ احتمال...!

هل هناك مبالغ أصلاً؟ بالتأكيد، فالمجموعة التي دخلت الحرم لا بدّ أن تنتظر النّجاح؛ لذا فلا بدّ من بعض المال للأيام الأولى على الأقلّ، ولعمري إنّهُ مال كثير...! أين هو؟ في الدّاخل؟ جائز في أحد البنوك؟ جائز في خزانة في مكانٍ ما؟ احتمال...! كيف يبدأ؟ ومن أين؟

أوقف سيارته في موقف الجريدة، وتمشّى إلى المطعم القريب على قدميه، طلب ساندويتش كبدة ضاني وآخر بيض وكأس شاي، الشكّ يؤدّي إلى اليقين، والسؤال الصحيح يؤدّي إلى الإجابة الصحيحة، قواعد ثابتة.

اليقين: احتمالان فقط يوجد... لا يوجد.

يوجد: احتمالان فقط في الدّاخل أم في الخارج.

الدّاخل: احتمالان فقط... البنك أو خزانة في مكان ما وكذلك الخارج.

يجب أن يعود إلى اليقين ليلغي أحد الاحتمالين، ملف الجريدة ملف الحدث، دفع الحساب وتوجّه مسرعاً إلى مكتبه في الجريدة طَلَبَ من مساعديه جميع ما لديهم في الأرشيف عن الحادث، أخرج قلمًا من الرّصاص، أسماء القيادات، شكّل فريقَ عمل من المراسلين في المدينة التي يعمل فيها أو في المدن والقرى في المناطق الأخرى الذين وجدوا فيه فرصتهم للتّرقّي، وشكّل معهم فريق عمل يعتمد على الثقة والاحترام والتّفاني والسريّة، المطلوب بسيط وواضح وبدون ضجّة معلومات عن مساكنهم... أسماء الجيران... الأقارب... تقارير عن المستوى المعيشي لكلّ واحد منهم، وهل هناك تغيير ملحوظ خلال السّنوات التّالية لحادثة الحرم سواء للأعلى أم للأسفل، أخذت التّقارير تنساب ولكن دون فائدة تُرجى، لا بدّ من إشراك شخصٍ ما صاحب نفوذ، (سين) هو الشّخص المطلوب الذي تربطه علاقة صداقة وقبيلة، اتّصل بسين... لم يحدثه عن الموضوع في الهاتف، طلب اللقاء، تحدّد الموعد والمكان.

ماهر: الموضوع غريب سوي.

سين: هات.

ماهر: تذكر جماعة الحرم.

سين: إيه!

ماهر: قبض عليهم كلهم؟
 سين: الي جا ذكره في التحقيق... نعم.
 ماهر: كلهم في السجن؟
 سين: خير... هات من الآخر.
 ماهر: لا أسأل!
 سين: تدور أحد!
 ماهر: لا... أعوذ بالله.
 سين: أجل؟
 ماهر: الكلام الي راح أقوله أبيك تنساه ولا تضحك على أخيك...
 اتَّفَقْنَا.
 سين: هات الي عندك... أنا الي أحقق مهوب أنت.
 ماهر: أي جماعة مثل الي بالي بالك تحتاج لتمويل صح؟
 سين: بالطبع.
 ماهر: تعتقد أن الجهات الأمنية وضعت يدها على كل المبالغ!
 سين: سؤال ولا استنتاج!
 ماهر: لا... سؤال.
 سين: شخصيًا ما أعتقد.
 ماهر: ورسميًا.
 سين: أعتقد.
 ماهر: والصحيح؟
 سين: المطلوب.
 ماهر: معلومة.
 سين: والمقابل؟

ماهر: تعجبني ... ما عندك وقت ... شريك.

سين: ففتيتي ففتيتي.

ماهر: بعد خصم التكاليف سبعين ثلاثين.

سين: ستين أربعين آخر كلام.

ماهر: اتفقنا.

سين: المطلوب؟!

ماهر: تتأكد.

سين: أنا متأكد بس مركزي ما يسمح لي.

ماهر: أنا أنت بس وين في الدّاخل ولا الخارج؟

سين: ما أعرف!

ماهر: أجل؟

سين: أعطيك اسمًا وعنوانًا، وهو بداية الخيط، وإذا استجدّ عندي شيء

أبلغك بس أنا أبغى أبعد... فاهمني، واستمرّ عن طريقك على تقارير المراسلين.

ماهر: أفا تتجسّس علي!

سين: على المراسلين.

أن تكون محظوظًا... هذا لا يأتي أكثر من مرّة، فالفرصة لا تطرق الباب

أكثر من مرّة مثل إنجليزي، ولكن أن تكون محبوبًا وصاحب علاقات ومن

المنطقة والجماعة كمان فالخط يطرق أبوابك كلّما أردت أنت وليس الخط، أخذ

الاسم والعنوان والهاتف وبدأ رحلة فيها من الأمل الكثير، استعان بالمراسلين

للرقابة وتشيتت ذهن الفريسة حتّى تزلّ قدمها فيلتهمها، جاء تقرير من أحد

المراسلين استوقفه كثيرًا، لم يكن يتوقّع أن الفريسة على علاقة بشخصيّة

المكتوبة في التقرير ولأهميتها فقد حرص المراسل على أن يكتب الاسم وبعض أجزاء من التقرير بالشفرة لخطورة الموقف.

الآمال والطموحات الكبيرة مثلها مثل القرارات الكبيرة، واللعب مع الكبار يحتاج إلى قرار وشجاعة متهورة أو أن تكون نداءً كبيراً، لم ينم... هل يكلم "سين"؟

الشخصية أكبر من سين وصاد مجتمعين، هل يعرف "سين" أن الفريسة على علاقة بهذه الشخصية... ما هي العلاقة؟ يجب أن يتأكد أولاً من وجود علاقة.

ثانياً مدى هذه العلاقة، وبعد ذلك لكل حادث حديث، البحث في ملفّات وأسرار الكبار يجب أن يكون بذكاء خارق (خذوا أسرارهم من صغارهم) قاعدة بحثية، جند مراسلين للتعرّف على العمالة التي تعمل عند (الشخص)، بدأت المعلومات عن العلاقة تتبلور، الحاسة السادسة تؤكد أن الخطوط الحمراء في القضية تحت قدميه، وأن خطوة واحدة فقط أو خطوتين... قد يجد نفسه أمام الشخص في مواجهة معه، وهناك إمّا أن يغيب بعد الشمس أو ينسحب وينسى ما أقدم عليه، ولكن وجد أن هناك طرف ثالث خارج الحدود، وبالتحديد في لندن، ويعمل في مكتب للمحاماة، قدم لإجازة شهر من العمل.

في المقعد A1 على الخطوط البريطانية والمتجهة إلى لندن كان "ماهر" بقميصه، وبنطلونه، وجوربه، وحذائه من اللون نفسه، الذي يتماشى بألوانه مع معطفه الأسود الذي سلّمه للمضيفة مع الجاكت السُكري، وضع حقيبة يده الجلدية في الخزانة العليا، بطوله الفارع ونحول جسمه ووسامة وجهه كأنه ممثّل من مشاهير الممثلين الهنود للونه الحنطي وأتساع عينيه وكثافة رمشيهما، وكأنه قد تمّ وضع الكحل فيها الآن بواسطة محترف في الزينة، وحاجباه

المقرونان المرسومان رسماً فوق عينيه، أخذ يقرأ مجلّة **News Week** لهذا الأسبوع، لم يشرب أكثر من كأسين من النّبذ الأحمر أثناء تناوله لوجبة خفيفة من الطّعام التي قدّمتها له المضيفة... ألقى ما تبقى من كأسه الأخير في حلقه وأسلم نفسه لنوم عميق، حتّى أيقظته المضيفة لتبلغه بالالتزام بالتّعليمات وربط حزام الأمان؛ لأنّ الطّائرة في طريقها للهبوط في مطار هيثرو.

في الفندق المطلّ على الهايد بارك القريب من شارع أكسفورد التّجاري وطريق إدجووير، حيثُ المطاعم العربيّة والوناسة الليليّة، ومن النّاحية الموازية لشارع أكسفورد يقع مكتب المحامي المطلوب، وبعد أن استقرّ توجّهه إلى موقع المكتب، وتجوّل في المنطقة، وفي صباح اليوم التّالي كان يتناول إفطاره في مطعم قريب من مبنى مكتب المحاماة، لاحظ من يشتهبه أنّه يبحث عنه يدخل المبنى في حوالي السّاعة التاسعة وثلاثة وثلاثين دقيقة صباحاً، ويتحدّث مع امرأة في العقد الثّالث من عمرها قصيرة، سمراء وكأنّها من جزر الباهاما، ولكن بعد أن تعرّف عليها وجد أنّها من الحبشة، وتعرف بعضاً من اللغة العربيّة، أمّا لغتها الإنجليزيّة فهي مولودة في لندن، فوالدها لديه الجنسيّة البريطانيّة ويعمل في أحد سفارات دول الخليج لكونه مسلماً ويتحدّث اللغة العربيّة بطلاقة أكثر من مريم أو ماريّا، وهذا هو اسمها، أعجبها في هذا القادم من الصّحراء أناقته، بساطته، مهارته في التّعامل مع النّساء، وجّه للضحك ووسامته وكرمه الحاتميّ، مضى على علاقتها أكثر من عشرة أيّام ولم يطلب منها حتّى ولو موعداً، بل كانا يلتقيان في كافيتريا سلف رجز عند الغداء، أحسّ بإعجابها خاصّة مديحها المتواصل حتّى على عطره الـ (Tea rose) تحدّثت عن سينما أودين والأفلام الجديدة، قال لها: تحبّي الشّعْر؟

ماريا: أنت شاعر؟

ماهر (بخبث): شاعر بالسّعادة وأنا معك.

الخجل في بعض الأحيان لا يعني التوقُّف، بل طلب المزيد من نار المديح الهادي التي تنضج على حرارتها اللذيذة عجينة كيك غرور النَّفس فتختمر وتتفش بعامل الهواء الساخن الذي يبعد بين مسامها، ولكن لا تغفل عن الوقت ودرجة حرارة المديح فكلاهما يؤدِّيان إلى نتائج سيئة، فإمَّا أن تحرق أو تجفَّ أو تتلبَّد.

ماهر: البارحة زارني شيطان الشعر.

ماريا: سمّعي.

ماهر: بس لا تفهميني غلط.

ماريا: اسمع أولاً واحكم أخيراً.

ماهر: أنا وأنت كتاب مقفول ويمكن نبقي كدا على طول

لحد ما حد يلاقينا ويقرانا ويفهمنا ويفهمنا لبعضينا

ساعتها نقول ونطول يا ريت ذا كان من الأوّل

يا ريت كنّا تواعدنا... تقابلنا... تكلمنا

كلام في الحب... كلام من القلب

ونكتب حبنا في سطرين

حكاية عشقنا الاثنين

نحكيها لناس تانيين

نعلمهم نفهمهم نذوقهم حلاوة الحب وطعم الحب.

ضحكت بحياء الراغب المتمنع، أوليس بنات حواء يتمنّعن وهنّ

الراغبات؟! جملة من أحد أفلام فريد شوقي القديمة.

طلب منها مرافقته لفيلم.

ماهر: ويش رأيك عرض الثالثة عصرًا؟

ماريا: نو العمل.

ماهر: السادسة (قالها بتردد) أخاف أن يكون الوقت متأخرًا بالنسبة...

ماريا: ألا تحبّ السّهر في نهاية الأسبوع؟

ماهر: أنا أسهر كلّ يوم... أنا في إجازة.

ماريا: إذاً نقضي سهرة السّبت مع بعض.

ماهر: Are u thinking of dating me?

ماريا: (ضحكت لخبثه الذي يرضي غرورها) Saturday night

ماهر: وصديقك؟

ماريا: أي صديق؟

ماهر: Do not you have one?

ماريا: No.

ماهر: واللبناني!

ماريا: مايك.

ماهر: ما أعرف اسمه!

ماريا: مايكل كنعان زميل عمل فقط.

ماهر: Ok Saturday night then.

ماريا: نتقابل في الكفترية.

ماهر: After noon tea diner & cinema is it not much?

ماريا: (ضحكت وهي تودّعه) باي.

ماهر: باي.

يوم السّبت من السّاعة الثّانية بعد الظّهر التقيا في كافيتريا السلف رجز كالعادة، وفي المكان نفسه، وبعد أن تناولا وجبة خفيفة وتظاهر بقراءة جريدة الصن وهما يحتسيان قهوتها، وعندما انتهيا من ذلك وانتهى هو من قراءة الموضوع الذي كان قد بدأ به ركبا الحافلة إلى البيكاديلي، وفي ليستر سكوير

دخلوا السّينما، وفي حي مي فير، وفي مطعم (سيليه إيه بيبه) الإيطالي الشّهير تناولوا وجبة العشاء المكوّنة من فاتح شهية وسلطة وحساء وطبق رئيسيّ، وبالنّسبة لماهر فهو يفضّل فروت دي ليميري، أمّا ماريا ففضّلت صحن بنيه مع سكلوبيني ميلانيلوي والحلو تراما سو مع قنينة من النّبذ، بالرّغم من أنّها من مواليد لندن، ولكنّها لم تدخل هذا المطعم من قبل... صحيح أنّها زارت (هارودز) في القليل من المرّات، ولكنّها لم تحاول أن تسير في الشّوارع الخلفيّة أو القريّة منه، المطعم مزدحم كالعادة وبالرّغم من أنّه أكّد حجزه إلّا أنّها انتظرا في البار حوالي أربعين دقيقة شرب خلالها بعض الكئوس من الفودكا وشربت هي كأسين من (البلدي ميري)، لم يضغط عليها لتحدّثه عن مايك أو مايكل، بل تركها تتحدّث عن العمل وعلاقاتها الاجتماعيّة العائليّة. بعد ذلك ذهبوا لتمضية بقيّة السّهرة في نادي ليلي في أحد فنادق الخمس نجوم، بعد ذلك اصطحبها إلى غرفته في الفندق، وقد أخذت الخمر تلعب برأسيهما.

ماهر والوقت في صراع، أكثر من نصف الإجازة مضى ولم يعرف الكثير، في صباح ذلك اليوم وهو متّجه ليتناول فطوره كالمعتاد بجوار مبنى المحامي وقف كالعادة لشراء بعض الصّحف، وجد جريدة عربيّة خضراء الرّداء مهاجرة من تسلّط الرّقيب في موطن مالكيها، وجدت عند الإنجليز نوعاً من هواء حرّيّة تستنشقه؛ لذا فقد أخذت تصدر من لندن، ابتاع نسخة منها، تصفّحها... بحث عن الهاتف والعنوان... استقلّ سيّارة أجرة، أملى على السّائق العنوان، وفي لحظات كان داخل مقرّ الجريدة، سأل عن مكتب المدير العام أو رئيس التّحرير الذي كان يقرأ كتابته في جريدة من جرائد العاصمة بعد أن عرف نفسه: ماهر شاهر. رئيس التّحرير: وهل يخفى القمر؟

ماهر: الغيم القاتم.

رئيس التحرير: عسى ما شر.

ماهر: خير.

رئيس التحرير: عمل ولا متعة.

ماهر: إجازة.

رئيس التحرير: يعني متعة... مطوّل؟

ماهر: ودّي أطول الدّيره هذي زينة.

رئيس التحرير: أنت مكسب لأيّ جريدة ما ودّك تشتغل معنا؟

ماهر: أفكّر.

رئيس التحرير: رئيس قسم؟

ماهر: والبكج.

رئيس التحرير: رواتبنا هنا ممتازة أكثر من ممتازة.

ماهر: على بركة الله.

رئيس التحرير: اطلب الاستشارة.

ماهر: توكلّنا على الله.

في شارع (بريد) المتفرّع من شارع إدجوير، والممتدّ مع كارفن والقريب من محطة قطار بادنقتون ومن مستشفى (سانت ماري) وجد شقّة عبارة عن صالة واسعة نوعاً ما وغرفة نوم ومطبخ في عمارة حديثة نسبة لعمر الشارع وعلى بُعد خطوتين من فرع بنك (ميدلاند) الذي فتح فيه حسابه البنكي، اختياره للمكان لم يأت عن طريق الصدفة، بل ليخدم عدّة أغراض خاصّة لا تتعلّق بالعمل الجديد بعد أن قدّم استقالته من عمله السّابق، وتوطّدت علاقته بباري، وعن طريقها توصّل لميشيل الياس كنعان أو مايك أو مايكل، كان يسهر معهم دائماً وخاصّة في نهاية الأسبوع، وكان حريصاً على أن لا

يظهر لميشيل أيّ اهتمام خاص بموضوع خاص، جئد ماريا لتعمل في جمع معلومات عن مايك، خاصّة الأشخاص الذين يقابلهم خارج نطاق الأصدقاء العاديين... الرسائل البريدية تفتح وتصور وتُعاد في البريد، كشف الحساب يصوّر، كشف حساب بطاقة الائتمان، اتّصالاته وذلك عن طريق فاتورة الهاتف، وجد عدّة اتصالات مع الشّخص في السّعودية وعدّة اتّصالات مماثلة مع رقم هاتف في فيينا النمسا، كانت اتّصالات مايك بالنمسا تأتي مباشرة بعد مكالمة الشّخص في الرّياض، وإن كانت مكالمات الرّياض تستغرق وقتاً أقلّ من تلك التي مع النمسا، سجّل هاتف النمسا، وعن طريق أحد الذين يعملون في السّفارة هناك عرف أنّ الرّجل تاجرٌ من إيران، ويدّعي أنّه موالٍ للشّاة، وترك طهران إبّان ثورة الخميني، ونقل أمواله إلى فيينا، واستقرّ فيها منذ قيام الثّورة في إيران، متزوّج... أب لصبي وبنت، ويدّعي "علي أكبر حميدي" يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا.

في إجازة عيد الفصح كان يستقلّ الخطوط البريطانيّة المتّجهة إلى فيينا وبجواره فتاة، تحدّثا حديث الغرباء.

جاكي: هل محطّتك الأخيرة فيينا؟

ماهر: نعم وأنت؟

جاكي: نعم... أريد أن أمضي الإجازة في فيينا؛ لأنّ الماما والبابا يقضون الإجازة في باريس.

ماهر: ما تفضلي باريس؟

جاكي: أفضلها... بس أفضل أقضي الإجازة مع صوفيا.

ماهر: صوفيا في فيينا!

جاكي: لا... معنا في الطّائرة تجلس في الكرسي الخلفي... أوّل مرّة تزور

فيينا؟

ماهر: نعم.

جاكي: طالب؟

ماهر: لا... أعمل.

جاكي: شكلك صغير على العمل.

ماهر: عمري أربعة وعشرين سنة.

جاكي: بيبي فيس تعمل إيه؟

ماهر: صحفي.

جاكي: تمزح.

ماهر: أبداً... أعمل وأكتب في جريدة عربيّة تصدر من لندن (أخرج أحد

أعداد الجريدة... أراها المقال وصورته)، نظرت في الصّورة ثمّ نظرت في وجهه مرّة أخرى، صاحت محدّثة الفتاة التي تحتلّ المقعد خلفه: صوفيا انظري... صحفي يكتب في جريدة عربيّة.

صوفيا أخذت الجريدة، نظرت في الصّورة قالت: جميل (بالفرنسيّة)

وضحكتا.

ماهر: ماذا قالت؟ (قام من مقعده ونظر ناحية صوفيا... هي حلوة

وجذّابة، قال ذلك في نفسه) وأكمل موجّهاً كلامه لصوفيا: ماذا قلت لها؟ (وهو يتسم) تكلمّي بالإنجليزيّة.

صوفيا: هل تكتب عن الحبّ؟

ماهر: الحبّ لا يحتاج كتابة، الحبّ يحتاج اثنين يفهموه عشان يمتّعهم.

قدّم لها هديّة من مبيعات الطّائرة عبارة عن عطر نسائي كلّفه عشرين

جنيهاً استرلينياً، ودفع ثمنها عن طريق بطاقة الائتمان.

- أنا ماهر من السّعوديّة.

- جاكليين من السويد... أدرس في لندن وصديقتي صوفيا من يوغوسلافيا تدرس معي في الجامعة نفسها، متخصصة في التجارة.

تحوّل الحديث إلى تعليقات مرحة، عرف أنّهما يريدان أن يقضيا الإجازة في فيينا لأنّ "جاكي" تعشق الموسيقى، كانت أوّل زيارة لفيينا بالنسبة لهما، أمّا بالنسبة لجاكليين فقد زارت المدينة عشرات المرّات، وتحفظ شوارعها وفنادقها عن ظهر قلب تتحدّث الإنجليزيّة والألمانيّة والفرنسيّة، غادر ثلاثتهم المطار، أمضى معهما أسبوع الإجازة بالكامل، وإن كان ينام مع صديقتها "صوفيا" المرحّة العاشقة للحياة من يوغسلافيا، إلّا أنّه لا يخفي إعجابه برشاقتها وثقافتها، ويحترم جدّيّتها في علاقاتها فهي تبحث عن علاقة تنتهي بزواج، وليست مثل صديقتها المتحرّرة التي تريد أن تستمتع بملذّات الحياة دون أن تترك أيّ فرصة تهدر مع الوقت دون أيّ سبب!

تعرّف عن طريقها على بعض الأماكن والأشخاص الذين أصرّ على أخذ أرقام هواتفهم حتّى لو كان عاملاً في مطعم، زاروا الحدائق والقصور وصالات الموسيقى حتّى صالة للتعرّي، أصرّت صوفيا على دخولها، تعرّف على بائع الصّحف في كشك أحد الأرصفة (محمّد عبد الجوّاد) المصري الأصل النّمساوي الجنسيّة، وهو يداوم على شراء الصّحف والجرائد يوميّاً، ولكن عبد الجوّاد قد يكون عينه إذا أحسن التّصرّف والعلاقة معه في فيينا؛ لأنّ ليالي الأّنس في فيينا، ولكن ليل أنسه قد يكون هنا وقد لا يكون، ولكن بالتأكيد هو ضلع من أضلاع العلاقة وهو الإيرانيّ موجود هنا.

عادوا إلى لندن، استمرّت علاقته مع صوفيا فهو يلتقي معها في شقّتها بعيداً عن أعين ماريّا التي كان يقضي معها معظم الوقت، وكأّنهما زوجان تشاركه إيجار الشّقة وتتقاسم معه تكاليف المعيشة والسّرير، أمّا صوفيا فكانت كطعم الفاكهة الذي يتلذّد بطعمها بين الحين والآخر ليس فقط من

النّاحية الجنسيّة، بل إنّ صوفيا مفعمة بالحياة وحبّ الحياة والتّفاؤل فهي ونيس حتّى من وحشة الغربة.

في إجازة بنكيّة مرتبطة بنهاية الأسبوع قرّر أن يسافر وحيداً؛ ولذا لم يبلغ صوفيا أو جاكى إلى فيينا لينسّق عن قرب كيفة الوصول إلى الضّلح الجديد في اللعبة، لم ينزل في الفندق السّابق نفسه، بل اختار فندقاً صغيراً في أطراف المدينة، تلك التي تشبه سريراً وإفطاراً Bed & Breakfast في لندن اتّصل برقم هاتف ردّ عليه صوت آلة تسجيل من الطّرف الآخر (أنت تتّصل بأحمد... الرّجاء ترك رسالة ورقم الهاتف وسوف اتّصل بكم لاحقاً باللغة العربيّة) عندما سمع إشارة الإذن بترك الرّسالة ترك الرّسالة التّالية... أنا ماهر شاهر موجود في فيينا، الرّجاء الاتصال على الهاتف رقم... تحويلة رقم...

بعد عشر دقائق كان أحمد يعاود الاتصال:

أحمد: الأخ ماهر.

ماهر: أحمد.

أحمد: نعم... وينك؟

ماهر: فندق (سا) في الشّمال الغربي من فيينا.

أحمد: أعرفه... أشوفك باكراً على وقت الغداء.

ماهر: يكون خير على واحده.

كان الجو سيّئاً جدّاً... درجة الحرارة تعدّت العشر درجات تحت الصّفر، ومن المحتمل أن تصل ما بين الخمسة عشر أو السّتة عشر درجة تحت الصّفر، وما الفرق؟ قال في نفسه التّجمّد صفر وما دون الصّفر واحد ولا ألف كلّ واحد، الثّلج يتساقط لدرجة أنّ النّمساويين أنفسهم تضجّروا من مثل هذا الجو، ما بالك بيدوي من الصّحراء، نزل إلى بهو الفندق، كان ينظر

من خلف الزّجاج ناحية الثّلج وهو يتساقط ويلتصق بعضه ببعض مكوّنًا
ركامًا أبيض يسدّ الطّرقات، الطّريق في هذه النّاحية من فيينا شبه خالٍ، أمّا
الآن فهو خالٍ تمامًا، طلبت منه عاملة الاستقبال أن لا يغامر ويخرج
(بالفرنسيّة)... شعر في صوتها بعض الدّفء، عاد إلى مكتب الاستقبال،
وعندما نظَرَ في أمواج عينيها الزّرقاء الواسعة عَضَّ على شفته العليا بأسنانه
وبفرنسيّة غير مفهومة حاول أن يقول كيف وأين أقضي هذه الأمسيّة؟
وبالطّبع لم تفهم فاعتذرت، قالت: هل تتحدّث الإنجليزيّة؟
ماهر: وي مدام جي بار ليه لانجليز.

فتاة الاستقبال: ماد موزيل.

ماهر: ماد موزيل.

فتاة الاستقبال: وتحدّث الفرنسيّة أيضًا؟!

ماهر: نو جي نيه بار ليه بالو فرنسيه ماد موزيل.

فتاة الاستقبال: ولكن ما تقولينه فرنسي.

ماهر: فقط بعض كلمات (قالها بالإنجليزيّة).

فتاة الاستقبال: هناك بار في آخر الممرّ وبعض الموسيقى لباخ على اليمين،
وإذا تحبّ موزارت فهناك لاونج ناحية اليسار، ويمكن أن تقدّم لك الخدمة
هناك أيضًا، كذلك هناك صالة للعظيم بيتهوفن.

ماهر: ومَن سيشرب ويستمتع معي؟

فتاة الاستقبال: قد تجد هناك أحدًا ما.

ماهر: ألا تشاركوني وحدتي؟!

فتاة الاستقبال: أنا في أوقات العمل.

ماهر: وبعد العمل؟

فتاة الاستقبال: تكون السّاعة الثّامنة صباحًا.

ماهر: أوه ماما ميه قودا نيخته (قالها بالألمانية).

كلّما سار خطوتين وهو متّجه إلى مكان البار وينظر خلفه ويحرّك يديه حركة الوداع لطفل مدلّل، ويتبسّم لها وهي تلاحقه بعينها ويديها تقلد حركة يديه، دخل البار على الجانب الأيمن، كانت الإضاءة خافته، لم يلاحظ سوى ثنائيّ في الزاوية اليمنى وثلاثة رجال، اثنان بجوار البار والآخر بجانب طاولة في وسط المكان، تقدّمت له مرّحة... فتاة لم تغطّ من جسدها إلّا كفيها حتّى الكوعين وعورتها وحلمتيها في هذا الجو القارص، شعر أنّ أبواب جهنّم قد فتحت فالعرق بدأ ينضح من أرنبة أنفه... أي نعم يعيش في لندن، وزار (أندية القمار) عدّة مرّات ونادي (التعرّي النسائي) في فيينا هنا، ولكنّه لا يعرف لماذا يرغب في أنثى هذه الليلة بالذات! هل للجوّ البارد تأثير؟! - هاللو (قالها بالإنجليزية).

فتاة البار: هل ترغب أن تجلس بجوار البار أم...؟

ماهر: أريد مكاناً هادئاً أتناول فيه شرابي.

فتاة البار: موزارت لاونج.

ماهر: وهل تخدميني هناك؟

فتاة البار: (تبتسم وبطريقة جعلت عينيه تشرق وبغمزة فيها كثيرٌ من الخبرة لأداء طقوس بطريقة روتينيّة مقصودة من عينها قالت بفرنسيّة بنات باريس وبما يشبه الهمس: (أفيك فو سيفيس مسيو) وهمس في أذنها وهو يشمّ رائحة عطرها: مغسي).

ردّت وهي تبتسم وتشجّع على المزيد، وقد شعرت برغبته الجارفة: دوغيا (قالتها بكثير من الغنج).

طلب كاساً من الفودكا واتّجه نحو اللاونج، الأضواء هنا لا تفسر ملامح الحضور، والجميع في استرخاء لسماع إحدى سيمفونيات موزارت

العظيم، كانت النادلة تسبقه وهو ينظر إلى جسدها الرّشيق وشعرها الذي يدغدغ سلسلة الظهر ويلقي باستهتار على النّاحية اليمنى تارة والنّاحية اليسرى تارة أخرى حسب تمايل الجسم الذي يتحرّك على نغم حذاء بكعب عالٍ يزيد من شموخها واتّجاه ثقل أحد الرّدفين، وجدت له مكاناً قبل أن يجلس بجانب الطّاولَة التي سبقتها إليها فتاتان، استأذن بالجلوس معهم بطريقة اللوردات الإنجليز، ولكنّه صدم عندما فاجأه عطر وصوت جاكى ترحب وتطلب منه الجلوس بهدوء، نظر إلى الفتاة الثّانية وإذا هي صوفيا، أخذ موضعه بهدوء بجوار صوفيا التي أحسّت من خلال تجربتها بالرّجال بأنّ الليلة هو الوقت المناسب لسبر غور هذا الأعراي المتعطّش فهي لن تمكّنه من نفسها حتّى تأخذ منه ما تريد.

عندما استيقظ في السّاعة الحادية عشر والتّصف صباحاً من اليوم الثّالي كان التّعب وبعض من بقايا صداع هم السّمّتان المميّزتان لهذا الصّباح عن غيرهما، ألقي بنفسه تحت الدّش وترك الماء البارد يوقظ بهدوء خلايا جسده المرهق وهو يحاول أن يتذكّر ماذا حدث ليلة البارحة مع جاكى وصوفي...! ولكن أين صوفي لماذا لم تنم معه كعادتها؟ هل نامت مع رجل آخر؟ النّادلة! سحب قدميه... رفع سّاعة الهاتف وطلب خدمة الغرف: إفطار أمريكيّ لو سمحت وقهوة أمريكيّ أيضاً... لا... لا... لا إذاً بعض القهوة مع سلّة باس تري... مِري.

في الوقت الذي كان يرتدي فيه ملابسه ليستعدّ لملاقاة أحمد، كان أحدهم يطرق الباب وجرس الهاتف يرن، طلب من الطّارق أن ينتظر رفع السّاعة، وعندما سمع صوت أحمد يعتذر لعدم تمكّنه من الحضور في الوقت المحدّد، وقد يتأخّر عن الموعد لأكثر من ساعتين لسوء الأحوال الجويّة، قال ماهر على عجلة: لا يهّمك أنا طول النّهار في الفندق... على أقلّ من مهلك باي.

فتح الباب، كان يتوقَّع خدمة الغرف، ولكن "جاكي" و"صوفيا"
كانتا هما اللتين خلف الباب، تبسَّم وأفسح لهما المجال للدخول.

جاكي: بون جور يا ولدي يا كسول.

صوفيا: متى تركت السرير؟

ماهر: بون جور! بون سوار، جست ناو وين نمتي؟

صوفي: مع جاكي.

ماهر: ليش ما نمتي هنا؟

صوفي: اسأل روحك؟

ماهر: ويش فيها روحي؟

صوفي: أنت طلبت مني أنام مع جاكي لأنك في موعد غرام مع النادلة.

ماهر: أنا! (قالها باستغراب).

جاكي: I am the witness

ماهر: وكانت معي؟

صوفي: Yes sir

ماهر: متأكدين؟

فتح الخزانة، تأكَّد أنَّ ساعته الرّولكس المذهّبة والنّقْد سليمين، وكذلك
الأوراق الخاصّة... فتح الحقيبة وتأكَّد من الجواز والأوراق، يحاول أن يتذكَّر،
طرق على الباب، فتحت صوفيا وهو منهمك يرتّب الأوراق ويكمل لبسه،
شرب كوبًا من القهوة مع بعض الخبز والمربّى... لا يذكر شيئًا بعد أن وضع
يده في يد صوفيا وشرب كأس الفودكا ليلة البارحة.

ماهر: متى صعدنا هنا؟

صوفي: الثّانية صباحًا... هل سُرّق منك شيء؟

ماهر: لا.

صوفيا بخبث مصطنع: (بالتأكيد سرقت منك أشياء).

نظر إليها متحسّساً ما بين فخذه، وقال وهو يبادلها نظرات الخبث: لا موجود.

تناولوا طعام الغداء حوالي السّاعة الثالثة بعد الظّهر، عندما ظهر أحمد وبإشارة منه فهمها القادم اتّخذ من طاولة في ركن المطعم مكاناً تناول فيه طعام الغداء بمفرده، قام "ماهر" ودخل حمّام الرّجال، وبعد دقائق خرج وعاد للطّاولة وهو في طريقه قال كلمة مرآة وخرج مع جاكوي وصوفي.

دخل أحمد وبحث خلف المرآة فوجد مفتاح الغرفة ورسالة طلب منه أن ينتظره هناك بعد سبعة وأربعين دقيقة كان مع أحمد الذي يعمل في السّفارة في غرفته.

ماهر: هلا والله.

أحمد: حيّاك.

ماهر: كلّك (سين)؟

أحمد: طلب منّي أقابلك.

ماهر: في واحد إيراني هنا يُدعى "علي أكبر حميدي"... هذا رقم هاتفه ودي أعرف عنه كلّ شيء.

أحمد: سبق إن واحد أخذ معلومات عن هذا الشّخص.

ماهر: سعودي؟

أحمد: نعم.

ماهر: تعرف الشّخص؟

أحمد: يعمل في السّفارة.

ماهر: اسمه؟

أحمد: فيصل.

ماهر: فيصل با...

أحمد: تعرف الرجال؟

ماهر: أنا طلبت منه المعلومات... الآن ودنا نراقب الرجال أكثر.

أحمد: أنت في الجهاز؟

ماهر: الخارجي.

أحمد: استخبارات عامة؟

ماهر: دفاع.

أحمد: ما عندكم عمل هنا؟

ماهر: العملية هذي خاصّة وسريّة وبعيدة عن العملاء نبي نرتّب لها رجال، ويش رأيك في المصري محمّد عبد الجوّاد بائع الصّحف.

أحمد: يشتغل مع السّوريين وأيّ معلومة تلاقىها في دمشق في أقلّ من ساعة.

ماهر: عندك ناس يمكن تجنيدهم؟

أحمد: عطني فرصة أبحث.

ماهر: هاك تليفوني في لندن وهذي خمسمية دولار للاتصالات، لو احتجت شي كلّمني.

أحمد: تبي منّي شي؟

ماهر: سلامتك واسمع منك كلّ خير.

في المساء وهو يرقص مع صوفيا في النّادي الليلي همست في أذنه بكلمة "حميدي"، أحسّ بدوّار غثيان، اتّجه نحو البار، طلب كأساً من الكونياك، ألّقاءه في جوفه دفعة واحدة، أحسّ بالنّار تخرج من آذانه وأنفه وجميع مسامات جسده الذي بلّله العرق، مَن هذه؟ الشّيطان في جسد امرأة، هل ما سمعه حقيقي أم تحيّلات، اقتربت منه، حضنته من خلفه وقالت:

صوفيا: أوه ماي شوقر ماي شوكلت تخبي على صوفي؟

ماهر: ويش أخبي؟

صوفيا: موضوع "علي حميدي".

ماهر: مين "علي حميدي".

صوفيا: التاجر الإيراني.

ماهر: تعرفي "علي حميدي"؟

صوفيا: أنا أبويا يوغسلافي، بس أمي إيرانية شيعية مسلمة.

ماهر: و"علي حميدي"؟

صوفيا: قريب أم.

ماهر: دنيا صغيرة.

صوفيا: المقصد أنا راح أزوره غدا... تقدر تروح معي على أساس زميل

في الكلية وأعرفك عليه وأختصر طريقك، بس لابد تقول لصوفي ماذا تريد

منه؟

ماهر: موضوع قديم.

صوفيا: آثار للبيع... آثار سعودية؟!

ماهر: قريب من كذا.

صوفيا: والعمولة.

ماهر: خذي عمري.

صوفيا: أنا أدور على عمولة مالية ما أدور السّجن (ضحك من قلبه

لسرعة ردّها وحضور ذهنها وجوابها غير المتوقع والصّريح).

ماهر: Two percent of what I get.

صوفيا: Five.

ماهر: ثنين وإلا أجييه عن طريق غيرك يكلفني أقل.

صوفيا: أربعة.

ماهر: انسي الموضوع.

(من هاتف صالة الفندق اتّصلت تكلمت بالفارسي مع الطّرف الآخر
سمع اسمه، وعندما سمعها تقول قودا حافظ عرف أنّ المكالمة مع الطّرف
الآخر... انتهت أو على وشك، أغلقت الهاتف) وقالت:

- نتقابل بكرة، سوف نتناول الغذاء معه في منزله، سوف يرسل لنا
السّيّارة السّاعة الثّانية عشر ظهرًا.

ماهر: وجاكي؟

صوفيا: هل هي على علاقة بالموضوع؟

ماهر: لا.

صوفيا: إذن لا علاقة لها بنا.

ماهر: وكيف تبرّرين لها غيابك؟

صوفيا: أنا لا أبرّر لأحد ما أعمل؛ فأنا لي خصوصيّاتي كما أحترم
خصوصيّات الآخرين.

ماهر: ولكن!

صوفيا: صدّقني إنّ جاكي لن تسأل وأنا لن أبوح لأحد عن السّرّ، وأنت
صديقي وسوف أحفظ بسرّك للأبد طالما وفّيت بوعدك ودفعت العمولة،
مصلحتنا مشتركة... هل يكفي هذا؟

في اليوم التّالي التقى بـ "علي حميدي"، تاجر ولكن قارئ جيّد للتّاريخ،
يحتفظ بأدقّ التفاصيل عن معارك لا يعرف البعض حتّى اسم المعركة،
ويحتفظ هو ببعض الوثائق الدّقيقة في ماكروفيتش، يستطيع عرضها فقط لمن
هم على مستواه من الثّقافة والعلم وأهل الخبرة، بل يستطيع أن يزودك بنسخة
تصويريّة في حالة الرّغبة والثّمن يحدّد حسب نوع الوثيقة وأهميّتها، يحتفظ

ببعض السَّجَّاد الإيرانيّ من مدينة (قم) الإيرانيّة، وكذلك بعض القطع تكتسب قيمتها من قيمتها التَّاريخيّة، فهذه كانت قد أهديت للشَّاة عام ١٩١٥م من آية من آيات الله، وتلك خاصّة بزوجة لروح من أرواح الله التي تمشي على الأرض، أمّا هذه المجموعة للباب الأكبر وهكذا، وبعض الآثار الإسلاميّة التي أحضرها بعض التُّجَّار الأتراك من اسطنبول أو من اليمن تجار الآثار... مخزن مستودع التَّاريخ... يلاحقون القطعة ويدوّنون ذلك في كراريسهم ويتبادلون المعلومات فيما بينهم وكأنَّهم مافيا، بل هم مافيا ولكن من نوع آخر، وتحت مظلة هذه التَّجارة قد تغسل الأموال التي تحتاج إلى تنظيف، بعد الغذاء خرجت صوفي مع فرح بنت "علي حميدي" للتَّسوّق وتركتها ليناقشا ما يريدان في خصوصيّة تامّة، وبالقرب من المدفئة العتيقة تناولا الشَّاي، نظر "علي حميدي" في عيني ضيفه وقال: سمعت أنّك تبحث عني؟

ماهر: الحقيقة أنا أبح...

حميدي: عن معلومة؟ (قاطعته "علي" بشيء من الحدة).

ارتبك ماهر... كيف يبدأ وأين ينتهي... لم يكن يريد أن تكون المقابلة بهذه الطَّريقة، يريد أن يعرف نقاط ضعف الفريسة أو على الأقلّ ملفّاً كاملاً عنها حتّى يستطيع أن يناور على أساس، أما وقد أصبح أمام الخصم وبهذه الطَّريقة فعليه أن يفكّر بسرعة، لا يعرف كيف جمع شتات تفكيره وقال: هل تعرف الشَّيخ فالح...؟

حميدي: هل هو صديقك؟

ماهر: هو صديق لصديقي.

حميدي: وماذا في ذلك؟

ماهر: الرّجل في خطر.

حميدي: كيف؟

ماهر: موضوع الحرم.

تجهّم وجه "علي حميدي" وقال: ألم يغلق الملف؟

ماهر: وهل توجد ملفات مغلقة للأبد؟ وأنت خير من يعرف ذلك فأنت تحتفظ بملفات لمئات من السنين.

حميدي: هذا صحيح!

ماهر: تعرف مقدار الرجل، ونحن نريد أن نساعدك من غير أن يعلم.

حميدي: لا أفهم.

ماهر: نحن مجموعة شباب متعاطفون مع ما قام به الشيخ مع غيره بإنجازهم، وإن أخطئوا التقدير فهذا لا يعني أن طلب التغيير قد توقّف بل هو أمانة يتوارثها الأجيال حتّى يتمّ التصحيح.

حميدي: هذا الكلام خطير.

ماهر: ولذلك أنا هنا ومعك بالذات ولا يسمعنا إلا الله.

حميدي: وهل صوفي تعلم؟

ماهر: صوفي تعتقد أنّي مهزّب آثار أو بعض الوثائق التاريخية القديمة من السعودية وأتيت إلى هنا لعرضها عليك.

حميدي: وماذا تريد أن تعرف؟!

ماهر: بالقدر الذي تعرف أنت وما يخدم الشيخ إذا كان أمره يعينك

بشيء؟

حميدي: بالتأكيد... بالتأكيد أمر الشيخ وسلامته لا تعنيني وحدي بل تعني الكثير.

ماهر: صدّقني أنا من أكثر القلائل حرصاً على سلامة الشيخ وكذلك ما تبقى من أموال الجماعة (قال "ماهر" الكلمات الأخيرة وركّز نظره صوب

وجه وعيني مضيفه الذي لم يتوقع كل هذه الجرأة من شاب بالكاد تجاوز الرابعة والعشرين من عمره، لاحظ احمرار وجنتي الرجل وكأنه عذراء طلبت للخطوبة، وكاد يتلعثم في حديثه من الموقف، ولكنه فضّل الصمت حتى يسمع من مضيفه شيئاً).

قال "علي حميدي" وهو يحاول أن يتمالك نفسه: يجب أن تذهب إلى منزل الجمعية، ولكن لوحذك حتى صوفي لن تعرف مكان المنزل أو أي شيء عنه، وتبقى هناك تقرأ الملفات وبعدها نتحدث.

ماهر: وأين يقع بيت الجمعية؟

حميدي: سوف أقوم بترتيب كل شيء بنفسي.

ماهر: متى؟

حميدي: غداً سوف أبعث سائقي بعد الظهر ليأخذك إلى محطة القطار وسوف أكون في انتظارك. محطة القطار الرئيسية مكتظة بالمسافرين، لا يكاد يظهر من "ماهر" شيء فقد ارتدى المعطف الكشمير الأسود والقفاز وغطى معظم وجهه بالملحفة مع النظارات السوداء، لاحظ "علي حميدي" ينتظره ويده تذكرتان تصافحا وركبا القطار المتجه إلى سالزبرج وفي قرية (ي) نزلا من القطار وركبا سيارة أجرة... تحدث السيد "حميدي" مع سائقها بالألمانية وأملى عليه العنوان، وبعد حوالي ستة عشر دقيقة انحرفت السيارة ودخلت في طريق ضيق ملتو بين غابات، أحس أن هذه اللحظات قد تكتب نهاية القصة، ولكن قال مشجعاً نفسه أن تموت وتدفن هنا فأنت على الأقل تموت في الجنة، أما البعث فستبعث على الجنة مباشرة أيضاً بإذن الله، بالرغم من أن الطريق ضيق ومظلم والثلج يتساقط بين فينة وأخرى، إلا أن شفاه "علي حميدي" لم تنفصلا عن بعضهما، وبعد أن أوقف السائق السيارة عند أحد الأبواب رقم ٩ شارع (Zen) ترجل من السيارة ودخل مسرعاً، حيث

رَحَّبَتْ بِهِمْ سَيِّدَةٌ فِي الْخَمْسِينَاتِ مِنْ عَمْرِهَا إِيطَالِيَّةٌ تُدْعَى بِيرْ جِيْتْ قَارُوتِي، أَمَّا السَّيِّدُ "حَمِيدِي" فَقَدْ وَقَفَ يَحَاسِبُ سَائِقَ الْأَجْرَةِ وَلَحَقَ بِهِمْ، بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ بِالْإِيطَالِيَّةِ: مَا هَرِ شَاهِرْ مِنَ السَّعُودِيَّةِ صَدِيقِ الشَّيْخِ.

مَدَامْ قَارُوتِي: بُونَا سِيرَا سِينِيُورِي.

مَاهَر: بُونَا سِيرَا سِينِيُورِيَتَا.

ذَهَبَ مَبَاشَرَةً إِلَى الْبَارِ، وَسَكَبَ كَأْسِينَ مِنَ الْفُودُكَا، قَدَّمَ أَحَدَهُمَا لـ "عَلِي" وَرَشَفَ مِنَ الْآخَرِ وَهُوَ يَقْتَرِبُ مِنَ الْمَدْفَنَةِ، قَالَ بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ: الْجُو بَارِدٌ جَدًّا.

لَحَقَ بِهِ "عَلِيٌّ" وَقَالَ: نَرِيدُكَ أَنْ تَقْرَأَ الْأُورَاقَ بِتَمَعْنٍ، وَإِذَا وَجَدْتَ مَا يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ اتَّصَلْ، جَمِيعَ الْأُورَاقِ فِي الْخَزْنَةِ، وَهَذَا هُوَ الْمِفْتَاحُ وَالرَّقْمُ السَّرِّي.

مَاهَر: هَلْ...؟

قَاطَعُهُ حَمِيدِي: نَعَمْ سَتَبْقَى هُنَا، وَيُمْكِنُ أَنْ تَتَّصَلَ بِالْعَمَلِ وَتَطْلُبَ إِجَازَةً اضْطِرَاطِيَّةً إِذَا اقْتَضَى الْأَمْرُ، أَمَّا أَنَا فَسَوْفَ أَغَادِرُ فِي قِطَارِ الْمَسَاءِ.

بَعْدَ أَنْ تَنَاوَلَا طَعَامَ الْعِشَاءِ وَدَّعَ "مَاهَر" "عَلِي حَمِيدِي" مِنْ دَاخِلِ الْمَنْزِلِ، أَمَّا "عَلِي" فَقَدْ اَنْدَفَعَ خَارِجًا وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي الْمَقْعَدِ الْخَلْفِيِّ لِسَيَّارَةِ الْأَجْرَةِ الَّتِي طَلَبَهَا هَرَبًا مِنَ الثَّلَجِ الَّذِي لَا زَالَ يَتَسَاقَطُ، اتَّجَهَ "مَاهَر" نَحْوَ الْخَزْنَةِ وَفَتَحَهَا، وَمِنْ ثَمَّ أَخْرَجَ الْأُورَاقَ الْمَوْجُودَةَ فِي دَاخِلِهَا وَوَضَعَهَا عَلَى الْمَكْتَبِ وَبَدَأَ عَمَلِيَّةَ التَّصْنِيفِ.

أُورَاقٌ مَالِيَّةٌ وَحِسَابَاتٌ وَضَعَهَا فِي مَلْفٍ وَكَتَبَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَارِجِ وَرَقَةً صَغِيرَةً مَالِيَّةً، وَأُورَاقٌ فِيهَا كَشُوفُ أَسْمَاءٍ تَحْتَ عُنْوَانِ قَاعِدَةِ الْبَيِّنَاتِ، وَأُورَاقٌ تَتَحَدَّثُ عَنْ مَذْكُرَاتِ الشَّيْخِ، جَمَعَ مَذْكُرَاتِ الشَّيْخِ فِي مَلْفٍ وَاحِدٍ، أَمَّا بَقِيَّةُ الْأُورَاقِ فَكَتَبَ عَلَى الْمَلْفِ مِنَ الْخَارِجِ مَتَفَرِّقَاتٍ، تَنَاوَلَ مَلْفَ الشَّيْخِ

وأخذ كأساً من البكاردي مع كوكاكولا وقطعة من الليمون وقطعتين من
الثَّلج وبالقرب من المدفئة أخذ يقرأ...

اسمي: فالح ناثر.

ولدت في قرية مهد الذَّهب عام ١٣٦٨ هجرية، وإن كان مولدي في
الخامس والعشرين حسب ما كتبه عمِّي في مذكرة خاصَّة فيها أسماء العائلة
وتأريخ مولدهم، إلَّا أنَّ والدتي تقول إنَّه اليوم السَّابع والعشرين من شهر
ذي الحجة، إلَّا أنَّ سَجَلات الدَّولة أَصَرَّت على أنَّ ولادتي في
١ / ٧ / ١٣٦٨ للهجرة مثلي مثل كلِّ المواطنين الذين ولدوا قبل استخراج
شهادات الميلاد من قبل الحكومة.

يُقال إنَّ ولادتي متعسِّرة، عانت والدتي الكثير أثناءها، فقد كنت
معرَّضاً كما قالت المتخصِّصة في القرية في ولادات كلِّ مَنْ كان يولد في تلك
القرية، هل أثر ذلك على شخصيَّتي بعد ذلك؟ فأنا أَعترض على كلِّ ما هو
غير طبيعي من وجهة نظري، برغم أنَّني من برج الميزان إلَّا أنَّ اعتراضاتي
طالت حتَّى الحكومة والحكومات العربيَّة بعد ذلك وكأنيَّ أُنْتقل من المحليَّة
إلى القوميَّة.

طفولتي مرَّت بمراحل صعبة نوعاً ما، فقد كان والدي أجيراً لرعي الغنم
عند شيخ القرية، وعندما بلغت الخامسة من عمري، ذهبت العائلة إلى مكَّة
المكرَّمة لأداء فريضة الحجِّ واستقرَّ المقام بوالدي هناك، وفَضَّل أن يعمل في
(حلقة الخضار) وأن يسكن في أحد سفوح جبال مكَّة الكثيرة، ما بين القرارة
والشَّبيكة في منزل أشبه ما يكون بالخربة والصَّناديق منه إلى منزل، وعندما
بلغت السَّادسة من عمري التحقت بمدرسة الفلاح الابتدائيَّة في حي
(الشَّبيكة).

كنتُ أذهب إلى المدرسة حافي القدمين وسخ الثياب حتّى نهزني أحد أساتذتي، أحسستُ بآلام من تلك الكلمات ليست كآلام الجسد، بل تنذوق مرارتها داخل الحنجرة، الدّمة غادرت العين ساخنة وانحدرت على خدّي مختلطة مع بعض الأتربة لتظهر الفرق بين أن يغسل المرء وجهه وبين العكس، فالمنطقة التي عبر منها الدّم كانت تنظف أفضل من المناطق الأخرى في الوجه التي لم يمرّ عليها سيل الدّموع، وطلبَ منّي أن أشتري حذاءً وأن أغسل ثيابي وأنظّف وجهي وجسدي، وعندما علم المدرّس بوضعنا المعيشيّ، حاول إعطائي بعض المال لأتمكّن من شراء حذاء وملابس، عزّة النّفس... هل هي طبيعيّة في النّفس أم مكتسبة؟ لماذا يقبل البعض المساعدات دون حرج ويرفضها البعض بتأفّف؟ لا أعرف... كلّما أعرفه أنني وبالرّغم من حاجتي ومن صغر سنّي فقد رفضت بإباء بل وتركت المدرسة، وتحجّرت الدّمة في عيني وأنا هائم على وجهي في شوارع مكّة القريبة من الحرم، قررتُ أن أترك المدرسة.

ولكن عندما اشتري والدي الحذاء الجديد والثياب النّظيفة الجديدة كانت الفرحة تقلقني؛ فأنا لم أنم في تلك الليلة إلّا والحذاء تحت رأسي، محتضناً بعض ملابسي الجديدة، من أين حصل والدي على النقود؟! صدّقوني لا أعلم.

تعلمنا أن نقبل يد السيّد (علوي المالكي) فقيه وعالم في الحرم قبل أن يسمح لنا بالدخول إلى الفصل، مثلي مثل معظم النّاس من أهل مكّة، تعرّفت على أبناء وجهاء مكّة المكرّمة فقد كان وجهي الأسمر وعيناوي الواسعتان وابتسامتي الرّقيقة وضحكتي البريئة وشخصيّتي التي اعتقد أنّها جذّابة، وقوّتي البدنيّة التي ساعدتني في الدّفاع عن نفسي وعن المستضعفين الآخرين من أترابي في مجتمع غاب منظم! هذه الميزات جعلتني مسار إعجاب الأكثرية

منهم واحترام البقية الباقية لشخصي المتواضع، أمّا ذكائي فهو فطري... أعيّد الأمور إلى طبيعتها ونظامها، وبالتالي تنجلي حقائق الطرق أمامي، أمّا حرصي على العلم فقد جعل حتّى أساتذتي يفخرون بما ألتهم منه، حرصت على حضور الدّروس في الحرم المكيّ لحفظ القرآن وللمراجعة ولزيد من التّحصيل حرصي على حضور المدرسة في أوقاتها، بل مبكّرًا في معظم الأوقات.

مرّت السّنوات وأنا أتقدّم في العمر وفي الدّراسة، تكبر معي أحلامي أن أصبح طبيبًا يُشار له بالبنان، ولكن عندما طَلَبَ مِنّي والدي بعد حصولي على شهادة الكفاءة المتوسّطة أن ألتحق في الخدمة العسكريّة، أحسست بمرارة الحياة، وأنّ والدي يطلب مِنّي ذلك لا لشيء سوى لقلّة ما في اليد، خاصّة أنّ شقيقي (هاني) قد ولد وهو الطّفل رقم ثمانية لوالدي، ولكنّي وقفت في وجه هذا الطّلب موقف الرّافض، والتّحقت بالمدرسة العزيزيّة في حيّ العزيزيّة أو (حوض البقر) كما كان يطلق عليه، وأعمل كمساعد لسائق حافلة (كمساري) بعد الدّراسة وأبيع في رمضان خاصّة عندما يأتي المعتمرون لأداء العمرة أو الحجّ لكي أساعد والدي قدر المستطاع، وأطّلع بشكل متواصل على كلّ ما تستطيع يدي أن تحصل عليه من الكتب وما أستطيع أن أسرق من أوقات راحتي ونومي، ممّا يزيد من نهمي على الاطّلاع والقراءة، وتزيد من توسيع تفكيري ومداركي وآفاقي، وجعلت مِنّي متحدّثًا لبقًا، مستمعًا جيّدًا، مثلي مثل الآخرين من أبناء جيلي في العالم العربيّ أستمع لأخبار العرب، والعروبة، وعبد النّاصر؛ ولذا فقد انخرطتُ من حيث أعلم أو لا أعلم في تنظيم سرّيّ يهدف إلى وحدة عربيّة كاملة في مظهره، وإلى قلب الحكم في الجزيرة من حكم ملكيّ أو أميريّ فرديّ إلى حكم جمهوريّ يقوم على الدّيمقراطيّة والعدالة والحرّيّة، شعارات جميلة، تدغدغ أحاسيس شاب مثلي

طحنته ظروف شغف العيش، وقهرته سياسة الوفرة في العطاء من جهة وسوء التوزيع من جهة أخرى فأصبحت أنام ثائرًا، وأستيقظ ثائرًا، وغيّرت اسمي الحقيقي إلى فالح نسبة لمدرسة الفلاح بن ثائر وهو وصف لذلك البركان في نفسي؛ ممّا أثر على تحصيلي العلمي، فلم أستطع أن أحصل على المعدّل الذي يؤهّلني إلى البعثة أو حتّى دخول كليّة الطبّ في جامعة (الملك سعود) في الرياض، فقرّرت دخول كليّة التجارة في الرياض.

السّفر من مكّة إلى الطّائف، ومن ثمّ الرياض عن طريق البرّ، وفي الظروف المتوفّرة في ذلك الوقت بالنّسبة لشاب مثلي عليه أن يبحث عن وسيلة مجانيّة أو على الأقل منخفضة تمامًا... متعب ومحرج؛ لذا فقد استطعت أن أجد مقعدًا مجانيًّا إلى الطّائف، ومن الطّائف ركبت مع إحدى النّافلات مقابل مبلغ زهيد، مقابل أن أشارك كمعاون للسائق في بعض أعماله، الرحلة من الطّائف بواسطة شاحنة بطيئة لثقل حملها ورداءة الطّريق، وصحبة ممّلة تشعرك بالغناء، إلّا أنّ الفائدة التي جنيتهما منها الاعتماد على النّفس، والطّبخ، والنّوم في الخلاء مفترشًا رمال الوطن الغالي تغطيني السّماء وأضع تحت رأسي حجرًا ألف عليه (شماغي) لأنام، والتّكيّف مع الظروف والصّحبة السيّئة والتّعامل معها كتعاملي مع مرض مؤقّت، ويجب التّعايش معه لفترة حتّى يتمّ العلاج، استغرقت الرّحلة قرابة اليومين قبل أن أصل إلى العاصمة.

الوقت يقترب من صلاة الظّهر عندما توقّفت النّاقلة في حي الغرابي، وترجّلت منها واتّجهت إلى أقرب مسجد للوضوء والصّلاة، بعد ذلك تناولت طعام الغداء في أحد المطاعم الشّعبية في البطحاء، وكان مطعمًا قذرًا مقرّرًا مقارنة بمطاعم مكّة المكرّمة، سألت عن شارع العطاييف في حي الشميسي، وبعد أن أخذت الوصف كاملاً حملت حقيتي الصّغيرة، وأخذت

أسير في شوارع الرياض الخالية تمامًا في هذا الوقت من أوقات الصيف الحارة إلا من بعض الكلاب السائبة، والققط، وكذلك بعض الماشية.

وبعد مجهود دام أكثر من ساعة من الزمن وقفتُ أمام باب منزل أحد أصدقائي وهو "عمر البخاري" الذي يدرس في كلية العلوم من العام السابق، لم يفاجأ "عمر" بالطارق فهو يتوقعني في أي لحظة كما كان يتوقع غيري من الطلبة فهذا هو موسم التسجيل، تعرّفت في المساء على بعض الشباب من المنطقة الشرقية وآخرين من المنطقة الغربية، من مناطق المملكة المختلفة، في اليوم التالي ذهبت مع "عمر" لكي أقدم أوراقى لكلية التجارة لم يستغرق تسجيلي وقتًا طويلاً وعدنا إلى المنزل، وبعد الغذاء نمت نومًا عميقًا، أيقظني "عمر" بعد صلاة المغرب، عندما أفقت عاتبت صديقي كيف يتركني نائمًا طوال هذه الفترة، ولكن صديقي اعتذر قائلاً: لقد كنت متعبًا، وتحتاج إلى قسط كبير من الراحة، ولولا أن الأصدقاء يرغبون في السهر في طريق خريص هذه الليلة لما تجرأت وأيقظتك.

استيقظت عند سماعي طريق خريص؛ فقد سمعت بروعة جو الصحراء في المساء، وأنّ مقاهي خريص تستقبل روادها من الطلبة والمثقفين وبعض الآخرين من المواطنين والمستوطنين.

بعد أربعة أيام وبعد أن اطمئنت نفسي بأنني مقبول في كلية التجارة، وصلتني رسالة من والدي مع أحد القادمين من الحجاز، يقول فيها أن جامعة جديدة سوف تفتح أبوابها لتسجيل الدفعة الأولى من الطلبة في مدينة جدة وهي قريبة من مكة؛ حيث إن والدتك ترغب أن تكون قريبًا منها، والحقيقة أنّ والدي هو الذي يريدني بجواره لكي أساعده، سحبت أوراقى واتجهت إلى موقف الحجاز بعد أن شكرت صديقي "عمر" على كرمه وضيافته، ألقيت بجسدي في المقعد الخلفي في أحد السيارات الصغيرة المتجهة إلى مكة،

كانت الأحلام الصغيرة تكبر وأنا أنظر من خلال زجاج السيّارة وهي منطلقة بعد أن تركت نزلة (ديراب) الخطيرة خلفها لو أنّ الطريق مبني على أسس سليمة، وهناك جزيرة فاصلة بين الطريق الذّاهب إلى الحجاز والعائد إلى نجد لما كانت هذه الحوادث البشعة والشنيعة، وبعد ثلاثة أيّام كنت أقف أمام لجنة القبول والتّسجيل أوّديّ المواجهة الشّخصيّة، كانت اللجنة مكوّنة من الأستاذ محسن الباروم، تلك الشّخصيّة التي سمعت عنها الكثير في مجال التّربية والتّعليم، ولكن لم أشاهده عن هذا القرب، اقتربت لمصافحته، أخذت أشدّ على يده شاكرًا الله عزّ وجلّ أن رأيته أخيرًا، فأنا قد سمعت عن الرّجل كلّ ذكر طيّب وإخلاص للوطن ملحقات ثقافيّات في إحدى الدّول الأوروبيّة وهو من المثقّفين المفكرين الذين كان يسمع عن أفكارهم الوطنيّة.

أمّا الآخر فقد كان بريطانيّ يُدعى السيّد "هول" أي صالة أو فتحة، أمّا الاثنان الآخران فقد شاهدتهما في الجامعة بعد ذلك، أحدهما يُدعى "محمود"، ويعمل موظفًا مؤقتًا في الصّيف فقط في مكتب التّسجيل، أمّا الآخر ويُدعى "محمّد علي" فقد أصبح سكرتيرًا للعميد في كليّة الاقتصاد والإدارة، عندما سألني السيّد "هول" باللغة الإنجليزيّة: ماذا تفعل لو أنّك تملك عشرة ملايين ريال؟

كان ذلك في العام ١٣٨٧ هـ الموافق ١٩٦٧ م، وبعد الحرب الغادرة (النكسة) أو النكبة العربيّة الإسلاميّة وسقوط (القدس) أجبت دون خوف أو تردّد: أشترى سلاحًا لمحاربة اليهود وطردهم من الأراضي العربيّة وأحرّر فلسطين (قلتها بلغة إنجليزيّة فيها كثيرٌ من الثّقّة والجودة وإن كانت اللكنة عربيّة متأثرة باللكنة المكيّة نوعًا ما).

أحسست أنَّ الفخر دبَّ في أطراف السيّد محسن وكذلك محمود، أمّا (السيّد هول) فقد تغيّر لون وجهه نحو الأحمر، ثمّ مال ناحية السّواد، أراد السيّد محسن تلطيف الجو نوعاً ما فقال: طيّب خرّج الزّكاة أوّلاً.

ضحك الجميع ولكنّي أحبته بشبات باللغة العربيّة هذه المرّة: يا سيّد... الزّكاة عندما يحول عليها الحول، وأنا راح أصرفها للجهد في سبيل الله، وتحرير القدس الشّريف ثالث الحرمين الشّريفيّن، وأوّل قبلة للمسلمين، ومسرى المصطفى ﷺ، فيها قبة الصّخرة المقدّسة، وسكنها أو زارها كلّ الأنبياء تقريباً.

سأل السيّد "هول" وهو يحاول أن يربط جأش غضبه منه: لماذا لا تبرّع بمبلغ من العشرة ملايين للجامعة، وأنت تعلم أنّها جامعة أهليّة قائمة على التبرّعات؟ أحبته وقد أحسست بفطرتي أنّ هذا الخواجة سوف يحقد عليّ؛ لذا يجب أن أرفع ضغطه قبل أن أستلم خطاب الاعتذار بعدم قبولي وأجبت: عندما تتحرّر فلسطين وأحصل على عشرة ملايين ثانية سوف أتبرّع للجامعة والتعليم، أعتقد أنّ هناك أولويّات يا سيّد "هول".

كان جوابي بالنّسبة لوجهة نظري شافياً ويؤهلّني أن أخطّي اختبار اللغة الإنجليزيّة؛ لأنّ الدّراسة سوف تعتمد على اللغة الإنجليزيّة في الجامعة كما فهمت من حديث السيّد محسن عندما أشار إلى بعض الكتب وهي عبارة عن مقرّرات السنّة التّمهيدية وهي سنة تؤهّل الطّالب بعد دراسة الثّانوية العامّة لدخول الجامعة، والتي علّق عليها مؤخّراً أحد الشّخصيّات الاجتماعيّة أنّ نائب رئيس الجامعة في ذلك الوقت حفظ القرآن وزاد عليه سورة من عنده ملمحاً أنّ الجامعات الأخرى هي أربع سنوات، ولا توجد سنة تمهيدية أو تحضيريّة كما ترجمها البعض الآخر عن كلمة (ORIENTATION) وأنّ الاختبارات سوف تأتي من جامعة أمريكيّة، وقد قمت بإلقاء بعض الأسئلة

عن عدد سنوات الدراسة؟ وهل هناك محاضرات في السياسة مع الاقتصاد؟ أم أنَّ ظروف الجامعة الاجتماعية تمنع تدريس السياسة كما هو ممنوع الحديث في السياسة أصلاً، دون تعريف ما هي السياسة؟ وما هي حدود الممنوع والمسموح في النقاش؟ هل إذا اعترضت على سرعة سيارَة أحدهم تعتبر تدخُّلاً في السياسة؟ ولا بأس أن أعترض على البعض الآخر، ولا تعتبر سياسة... هل السياسة هي الحديث عن أشخاص معيَّنين وعدم التَّعرُّض بالحديث أو النِّقد لأشخاص معيَّنين.

كان الصَّيف رائعاً عندما اشترى "فيحان" سيارَة جيب تايبوتا شاصيه قصير وطلب من أنور وبدر ومحاس وابن ثائر (أنا) مشاركته في رحلة إلى قرى ومدن الوطن الغالي... تبدأ بعمرَة من مكَّة المكرَّمة ثمَّ الاتجاه إلى طريق الجنوب مروراً ببيشة وأبها والخميس وجيزان ونجران حتَّى حدودنا مع اليمن، ثمَّ الاتجاه شمال شرق إلى المنطقة الوسطى ثمَّ الإحساء ثمَّ القصيم ومن ثمَّ المدينة المنورة والعودة إلى مكَّة المكرَّمة معتمرين لأداء العمرة مرَّة أخرى إذا كتب الله لنا الحياة.

التَّرتيبات للرحلة تبدو عاديَّة في ظاهرها، خاصَّة بوجود "أبو نجر" "محاس" و"بدر"، وإن كانت الجهة المنظَّمة التي قامت بتمويل مصاريف الرحلة لـ "فيحان" و"أنور" أصرَّت أن تظهر الرحلة على أنَّها لشباب عن طريق (الباي) أو القطعة (وهي أن توزَّع التكاليف بين الجميع بالتساوي).

مهمَّتي و"أنور" توصيل بعض المعلومات والاجتماع مع بعض القيادات الموجودة في بعض القرى، كانت الاجتماعات تتمَّ بطريقة طبيعيَّة وعاديَّة مثل الحديث الذي تمَّ بيني وأحد القيادات في سوق الخميس أمام بائعة البرسيم، وكانت تشترك معنا في الحديث للتَّضليل ولنقل المعلومات إلى مَنْ يهتمهم الأمر، ومثل ما حدث في القصيم مع "أنور" وصاحب البستان الذي أصرَّ

علينا أن نتناول بعض الفاكهة في بستانه واختلى بـ "أنور" وهما يسيران بين أشجار البستان، وكان دوري في ذلك الوقت شغل الآخرين بالوضوء لصلاة الظهر والغسيل وتنظيف الفاكهة استعدادًا لحملها معنا في السيّارة حسب أوامر صاحب البستان.

استغرقت الرّحلة خمسة وأربعين يومًا فيها من الأحداث الكثير، أخطرها عندما سقطت السيّارة بالكامل في حفرة وسط الطريق، كانت مغطاة بطبقة رقيقة من الرمل الناعم، وعندما ضلّ الدليل الطريق بعد سباق دام أكثر من ساعة خلف أرنب بريّ ومحاولة صيده ليكون وجبة الإفطار لليوم الثّاني، كاد طاقم الرّحلة والمكوّن من خمسة شباب أن يدفنوا أحياء بسبب أرنب أو وجبة إفطار بريّة، ولكنّ الله كتب لنا الحياة وأرسل لنا شاحنة كانت تتهادى، ولولا رحمة الله ومحاولتنا إشعال النّار لطلب النّجدة لما عرف أحد بوجودنا في هذه البقعة من العالم، وقد لا يعرف أحد قبرنا أو قبورنا.

وقد سجّلت هذه الأحداث وغيرها من أحداث بواسطة الكاميرا الصّغيرة التي أهداني إياها شقيقي كنت الوحيد الذي يدوّن مذكراته في كرّاسة، ويعشق أن يسجّل الأحداث وتوثيقها بالصّور الفوتوغرافيّة، اقتربت الشّاحنة المجهّزة لمثل هذه الحوادث وعرف سائق الشّاحنة أنّ الشّباب من الهواة للمغامرة، وطلب منّا عدم ترك الطّريق العام، الوقت قد تعدّى منتصف الليل عندما أخذنا طرف الطّريق مرّة أخرى.

انتهت الرّحلة وعدنا أدراجنا، وصلنا مكّة قرب صلاة الفجر، غادرنا السيّارة متّجهين إلى بيت الله العتيق لأداء مناسك العمرة وصلاة الفجر مع الجماعة في الوقت الذي كانت هناك يد تمتدّ بهدوء داخل السيّارة الجيب تبحث عن الأمانة وهي عبارة عن صور وتقارير.

ابتسمت عندما عدت ولم أجد التفارير، بل وجدت العلامة التي تشير إلى أنَّ الأمانة قد وصلت إلى الأيدي الأمانة، ها هي كلمة السرّ قد كتبت بورقة شكر لطيفة (الحمد لله على السّلامة يا بطل، شكرًا على الأمانة)، كانت عينا "أنور" تراقباني وعندما لاحظت الابتسامة تعلو ثغري، صاح فرحًا (سألمة يا سلامة رحنا وجينا بالسّلامة) ورددت عليه وأرسلت لك يا عزوتي كم مرسل، وضحكنا كأننا لم نضحك من قبل.

كما كنت متوقّعًا لم أقبل في الجامعة، لا أودّ أن أقول بسبب آرائي التي قد تتعارض مع مصلحة البعض أو قد تشوّش عليها، ولكن قد تكون لآرائي بعض التأثير الذي غيّر الكثير من مجرى حياتي خلال مراحلها المختلفة، ولكن عن طريق التّنظيم حصلت على وظيفة في شركة للتّجارة وقدّمت أوراقتي للانتساب في جامعة القاهرة.

تعرّفت على بعض الطّلبة في جامعة الملك عبد العزيز الأهليّة في جدّة؛ حيث مقرّ عمل الشّركة، وبذلك بنيت جسرًا للتّواصل داخل أروقة الجامعة، وبالذّات مع المغتربين منهم، أستمع لقصصهم وآرائهم عن المدرّسين، مستوى التّعليم، الحوادث، النّشاطات، مَن هم المرشّحون لانتخابات رئاسة اتّحاد الطّلبة؟ كيف تُدار؟ ومَن هم مفاتيح اللعبة؟ لا شكّ أنّ دخلي من العمل قد ساعد والدي كثيرًا؛ فقد بدأت مظاهر جديدة تظهر على عائلتي، منها أنّ كلّ فرد من العائلة أصبح له حذاء خاص، وكذلك الذّكور، لدى كلّ منهم ثلاث ثياب على الأقلّ منها ثوب جديد يحفظ للمناسبات، أمّا الإناث فبجانب فستان البيت أصبحت الواحدة منهنّ تمتلك فستانًا للخروج.

بدأت أوّل إجازة من العمل، ويتوجّب عليّ أن أعمل مع والدي في الصّيف في الطّائف مصيف المملكة، وتمّ استئجار المكان الذي سيضمّ

العائلة، وطلبت من زملائي في مكة وجدة أن يزوروني في الطائف لقضاء عطلة نهاية الأسبوع واتفقنا على موعد، وشاءت الأقدار أن يقوم بزيارة والدي بعض من أقاربنا من مهد الذهب، وتصادمت سيارتهم في حادث مروّع قرب الطائف، وتوفي منهم شخص يحمل اسمي، ونقل الباقون إلى مستشفى الملك فيصل بالطائف، وأقيمت مراسيم العزاء في اليوم الثاني في منزلنا، وعندما وصل أصدقائي "عادل" و"عابد" و"سمير" و"علوي" إلى المنزل بعد صلاة المغرب صعدوا بمراسم العزاء، وعندما سأل عادل عن صاحب العزاء قيل لهم إنه عزائي، كنت في الدّاخل أعدّ القهوة، وأناولها للمباشرين، وقد أنساني الحادث تمامًا الموعد ودعوة زملائي لزيارتي، أخذت الدّموع تجري من أعين أصدقائي الأربعة وهم يقدمون العزاء في صديقهم الذي لم يمت بعد، وبعد أن انتهت الإجازة عدت إلى جدة واتجهت إلى السّكن الدّاخلي للشركة، عندما ترجّلت من الحافلة تحدّثت مع العم حمود اليماني حارس البوّابة الرّئيسيّة، كانت الشّمس على وشك أن تغرق في مياه البحر الأحمر عندما فتحت باب السّكن الرّئيسيّ المؤدّي إلى صالة فيها برادة كبيرة، كان "عادل" واقفًا يشرب الماء عندما شاهدني بجسمي الرّياضيّ المشقوق وأشعة الشّمس الذّهبيّة تتلألأ بين كتفي، أشعث أغبر من جرّاء رحلة شاقّة من الطائف، مارًا بمكة المكرّمة إلى جدة ومنتظرًا الحافلة التي ستقلني بالقرب من السّكن، المفاجأة أكبر من أن يتحمّلها عادل؛ فسقط كوب الماء من يديه وتناثرت أجزاءه محدثة صوتًا رهيبًا في أذن إنسان مرهق مثلي، وصوت "عادل" يصرخ باسمي.

أخذت قدما "عادل" ترتعشان، وكذلك شفتاه وعيناه زائغتان، تسمّرت في مكاني وأنا أشاهده بهذه الحالة ويستقبلني مثل هذا الاستقبال، خرج الزّملاء -وعددهم قليل- من غرفهم على صوت ارتطام الكأس بالأرض

وصريخ صديقهم، لم أفهم من غمغمتهم شيئاً سوى صوت "عابد الحربي" وهو يقول بس... بس... بسم الله... انصرفوا... انصرفوا، عندها قال "سمير" موجّهاً كلامه لشخصي المذهول من الموقف: أنت لسه عايش؟! أجبت ببرود: ومن قال إنني مت؟!

صاح "عابد": ها لحين أنت حي؟ أجبت بسخرية: لا... ميت يمشي ويتكلّم... يا "عثمان" (منادياً عامل النظافة)... تعال لم الزّجاج من الأرض ونظّف الصّالة قبل ما ينجرح أحد ويحيب لنا مشكلة.

تأكّد الجميع أنّي حيّ أرزق، وبعد صلاة المغرب أصابتنا نوبة من الضّحك ونحن نتذكّر كيف أنهم عزوا في صديقهم الذي يضحك معهم، علّق "خالد" إنّ عمرك طويل يا...!

بدأت الدّراسة في العام الثّاني ٦٨ / ٦٩ م، وفي الأسبوع الأوّل كانت معركة رئاسة اتحاد الطّلبة محسومة لصالح شاب من الطّائف، ولكن كانت هناك يد خفيّة وراء نجاحه هذه المرّة يهمّها أن يكون ذلك الشاب رئيساً للاتحاد، وخسر المرشّح الأقوى القادم مع مؤيّديه من المدارس الثّانويّة بعد أن حقّق نجاحاً كبيراً، ولكن تدخّلت أحد القوى مطالبة بأنّ الطّلبة الجدد لا يحقّ لهم التّرشّح، ولكن يحقّ لهم التّصويت فقط، كان الظّاهر أنّ يدًا أهلاويّة وراء المطالبة، ولكن الحقيقة أنّ شخصاً ما وزّع إشاعة عن طريق "زياد" بأنّ المرشّح الفائز اتّحادي أيّ يشجّع نادي الاتحاد من جدّة، ويعلم ذلك الشّخص مدى تهريب إشاعة من هذا القبيل على نتائج الانتخابات التي أحسست بفطرتي، بل راهنت على خسارة صديقي القادم من الطّائف بمنصب كهذا في جامعة أكثر طلبتها من أبناء جدّة، ولكن عندما وصلت الإشاعة إلى المرشّح الاتحادي الفائز في الجولة الأولى من الانتخابات بفارق كبير انقلبت الموازين

فجأة لصالح ذلك القروي، فقد طلب من مؤيديه أن يرشحوا القادم من الطائف صاحب الميول الوداوية ليس حبا في الوحدة، بل كرها في الأهلي، وهكذا بقي ذلك الشاب رئيسا لاتحاد الطلبة حتى تخرج من الجامعة، مستغلا العداء بين الأهلاويين والاتحاديين.

لم يكن هناك شيء غير عادي في الأسابيع الأولى، لا في العمل أو الجامعة التي كنت أمضي معظم وقتي في مكتبتها أو مع أصدقائي الذين حاولت تجنيد بعضهم لينخرطوا في التنظيم السري، كنت أقدم التقارير للجمعية بانتظام وأتحرك داخل وخارج الجمعية بحرية تامة حتى كان يوم الأربعاء في الأسبوع الخامس من بدء العمل، كنت في مكتبة الجامعة الساعة الثالثة بعد الظهر أذاكر وأراجع، حيث إنني قد نجحت منتسبا في جامعة القاهرة من السنة الأولى إلى السنة الثانية تجارة، واتجهت إلى البوابة متمنيا أن أجد حافلة أو أي شخص يقلني ولو بالقرب من الشارع الرئيسي الواقع في الكيلو الخامس في طريق جدة مكة، حيث سأجد بإذن الله من يقلني إلى حي الصحافة، ومنها أستطيع أن أكمل على قدمي إلى مسكني في النزهة اليمانية أو الجنوبية، لا أستطيع أن أصف فرحتي عندما رأيت الحافلة في انتظاري، أخذت أمد في خطاي خوفا أن يمل سائق الحافلة الانتظار ويتركني وحظي في هذا اليوم، لم يكن في الحافلة غير السائق الذي لم أتحقق من ملامحه سوى لحيته الكثيفة والكمساري الذي تناول مني القروش الأربعة دون أن يسألني وجهتي، وبعد عدة أمتار كان هناك شخص آخر ينتظر الحافلة على قارعة الطريق، ولكن السائق لم يتوقف له؛ مما أثار انتباهي، ولكنني في عجلة من أمري، والجوع الذي قد أخذ مني كل مأخذ يتطلب مني أن أسرع وأسرع نحو هدفي، فوقت الغذاء قد تعدى، ولكن لا بأس... قد أجد أي شيء عند زميلي في السكن "عبد العزيز"، ولكن وقبل أن نصل إلى الشارع الرئيسي توقفت الحافلة

ليركب شاب وسيم كأنه البدر، لم أر أجمل من هذا الوجه من قبل، وتقدّم الكمساري صاحب اللون الأسمر، تعلو وجهه فرحة باللقاء، وصافح الشاب، جلس الشاب في المقعد مقابل الشباك على يساري، وتعمّد أن يجلس في الصّف نفسه، لم أستطع أن أقاوم فضولي فالشاب يظهر عليه الثراء والنّعمة، فكيف ينتظر في زاوية الشارع حافلة عامّة، وفي مثل هذا الوقت تحت أشعة الشّمس الحارقة، فألقيت بظهري على النّافذة واستدرت بكامل جسدي مواجهًا كرسي ذلك الشاب، وأخذت أنظر في شيء من البلاهة والإعجاب في خلق الله، تبسّم الشاب بحياء زاد من حمرة خدّه جمالاً على جمال؛ ممّا شجعني أن أبدأ حواراً معه، وأنا أعلم تماماً أن هذا الوجه لم يدخل الجامعة، ولكن على رأي العامّة جرّ شكل: الأخ طالب في الجامعة؟

ردّ الشاب: لا.

لم أمهله، بل سألت: أجل من سكّان الحي.

هزّ الشاب رأسه بالنّفي، علّقت مظهرًا التّقرب والتّودّد: تزور أحدًا في الجامعة.

هزّ الشاب رأسه مرّة أخرى بالنّفي وهو يتبسّم ابتسامة خرجت من قلبه، ضحكة لم يستطع أن يكتمها، هزّت الضّحكة مشاعري حتّى أحسست أنّ قلبي كاد أن يحطّم القفص الصّدري المحبوس داخلي، وينطلق ويرفرف على هذا الجمال الرّبّاني وأتذكّر ولا أعرف لماذا ولكنني ردّدت قول الشّاعر "أبو نواس" بصوتٍ مسموع:

بَدُرٌ مِنَ الْأَنْسِ حَفَنَهُ كَوَاكِهُ قَدْ لَاحَ عَارِضُهُ وَأَخْضَرَ شَارِبُهُ
صفعت أذني رنة الضّحكات التي انفجرت من الشاب والسائق والكمساري دفعة واحدة، لم أشعر بالخرج.

قال الشاب: ماذا قلت؟ وهو يكمل ضحكه.

قلت:

يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءَ وَسَنَى رَحِمَ اللَّهُ زَمَانًا أَطْلَعَكَ
قال الشاب: الأخ شاعر... ألا تعرف أنّ (الشُّعراء يتبعهم الغاؤون،
وأَنَّهُمْ يقولون ما لا يفعلون)؟

قلت: أنا أعشق الجمال في كلِّ شيء حتّى في الكلمة شعراً كان أم نثراً، في
الجمال، في الحيوان، ألم يتغزّل الشُّعراء بعين المها وخيب الرّيم وجسد الغزال
وغصن البان والبدر والقمر والسُّمس والضُّحى، ومَن لا يعشق الجمال؟!
والله جميل يحبُّ الجمال.

تمنّيت أن تطول الرّحلة بهذه الحافلة وأن لا يعرّك أحد صفو هذا اللقاء،
الحافلة تسير في بطاء، لاحظتُ أنّ السَّائق يتجاهل متعمّداً طالبي هذه الخدمة
في هذا الوقت من النّهار، ولم أطلب توضيحاً لذلك، بل كنت بيني وبين
نفسي أشجّع على ذلك، وكأنّ الله والأقدار أرادت أن أمتّع نفسي بمحادثة
والتعرّف على هذا الشاب، الذي أنساني حتّى وجبة الغداء، لم يخطر في بالي أيّ
نية سوء، ولكنّي أريد فقط أن أتعرف على هذه الشّخصيّة من باب الفضول
من ناحية، ومن باب أنّي مسئول عن تجنيد أعضاء جدد للتنظيم.

قلت: أنا "فالح الثّائر" طالب في الجامعة.

ردّ الشاب (وهو يضحك ضحكة ساخرة): أهلاً وسهلاً... وصمت
بضع ثوانٍ كانت في حساباتي في ذلك الوقت دهرًا، واعتقدتُ أنّي لن أفلح في
التعرّف عليه، ولكنّ ظنّي خاب عندما قال الشاب: أنا محمّد بن عبد الله.
من المفروض أن تتّجه الحافلة إلى حي الصّحيفة، ومن ثمّ إلى البلد حيث
موقف الحافلات، ولكنّ السَّائق انحرف بالحافلة إلى اليسار متّجّهاً إلى الميناء
البحري، وبعد أن تعدّى قصر خزام وصل إلى محطة التّليفزيون، ثمّ انحرف

يسارًا مرّةً أخرى؛ مما أثار شكّي أنّ السائق يعرف منزلي؛ لذا لم أطلب من السائق أيّ شيء وانصرفت للحديث مع ابن عبد الله.

تعدّدت الحافلة حيّ النزلة وحيّ النزلة اليمانيّة، وخرجت متّجهة إلى الجنوب الغربي تاركة جدّة على يمين الحافلة التي كانت تعاني من رداءة الطريق، وبعد وقت قصير انحرفت مرّةً أخرى نحو اليمين مقتربة من أحد الأزقة، وبعد أن دخلت الزقاق توقّفت أمام الباب الثّاني من السّور على اليسار نزل الكمساري وفتح الباب، دخلت الحافلة وتوقّفت تحت شجرة وأقفل الكمساري الباب.

لم أتحرك من مقعدي، ولكنّ الشّاب قام وفتح لي الباب وهبط من الحافلة طالبًا منّي أن أتفضّل، هنا أحسست أنّ كمية من الأحماض التي لا أعرف لها اسمًا قد أخذت ترتفع في الدّم وبسبب الإرهاق والجوع شعرت بغشاوة في البصر، ولكن دون اكتراث تركت الحافلة وترجّلت وتبعث الشّاب الذي لم يسبقني بمسافة كبيرة، مدّ الشّاب يده اليمنى فاحتوتها يدي الشّمال الضّخمة، أحسست بدفء غريب يسري في جسدي، وكأني أعرف هذا الشّخص منذ أمّدي بعيد، فتح الباب واتّجهنا إلى الدّاخل، ولم ألحظ اختفاء السائق والكمساري.

أذان العصر ينساب إلى جسدي بروحانيّة عميقة وأنا في نشوة لقربي من مغامرة جديدة في حياتي المليئة بالعجائب والغرائب والمتناقضات، فقد كان صوت المؤذن جميلًا وقريبًا بالرّغم من أنّي لم ألحظ مسجدًا أو ما يدلّ على وجود مسجد، كان الشّاب يتابع الأذان في شيء من الوله... وعندما انتهى المؤذن من رفعه للأذان خرجت دعوة: اللهمّ آتِ محمّدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته.

لاحظت أن ابن عبد الله لم يقل سيدنا محمد، ولم يكمل إنك لا تخلف الميعاد، ولم أعلّق على ذلك وأنا أرى تدرج الدموع من عين ابن عبد الله في صمت وخشوع، وسألني الشاب إن كنت على وضوء؟ لا أعرف لماذا أجبته بنعم وأنا لم أكن على وضوء، واستدركت ولكن أريد أن أجدد (نور على نور). عندما هممت أن أترك المجلس لكي أتجه إلى مكان الوضوء دخل شخص حاد الملامح ذو عينين واسعتين سوداوين مثل حبر صيني، ورموش مكحلة، وشعر طويل مجدل أسود ومعتنى به أيّما اعتناء ومسدل على ثوبه الأبيض النظيف وله لحية كثيفة مهذّبة، وكأنّه أصل لتمثال المسيح عيسى ابن مريم كما تخيّل أحد الرّسّامين وصلبه على صليب خياله وصبّه على قراطيسه بفرشاته ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُمُ﴾، خرجت الكلمات من فمي بدون أن أتحكّم فيها، تقدّم الرّجل نحو ابن عبد الله وقبّل كتفه ورأسه، وحاول أن يقبّل يديه لولا أن سحبها الأخير بسرعة... هل هي تمثيلية؟

وقال الشاب معرّفًا بالقادم: "جهيمان"! وعرفه باسمي.

مددت يدي لأصافح القادم، وعندما التقت اليدين حاول "جهيمان" أن يضغط على يدي وهو ينظر في عيني، فوجد شابًا قويًا رياضيًا واثقًا من نفسه، والتقت العينان، وقرأ كلّ منّا ما قرأ في عين الآخر. ونحن على هذه الحال سمعنا صوت ابن عبد الله يسأل: هل عاد بلال؟

قال "جهيمان": نعم... ألم تسمع صوته!

ردّ ابن عبد الله: تعلم أن صوته دائمًا معي حتّى في منامي.

استعدّ الجميع للصلاة... "محمد بن عبد الله" و"جهيمان" و"فالح" و"الكمساري" وأنا. تقدّم ابن عبد الله يؤمّ المصلّين وبعد أن كبر وبدأ الصلاة دخل اثنان لم ألاحظهما ولكن خنّتا أن أحدهما بلال المؤدّن، ودخل عدد من الرّجال واكتمل الصّف الأوّل والثاني والثالث، أحسست بنوع من

الطمأنينة، ولكن وأنا في التَّشَهُّد الأخير دار في خلدي سؤال يتبع سؤالاً: مَنْ هؤلاء؟ وهل هم من التَّنْظِيم؟ ولكن لم يقولوا كلمة السرّ.

انتهت صلاة العصر، ولم أعرف كيف بدأت حتّى أعلم كيف انتهت فقد كنت شارد الذّهن، وعندما تجوّلت بعيني في وجوه الحضور وشفّتاي تتمتان بكلام محفوظ غير مفهوم للآخرين، لم أتعرف على أحد منهم، بعد الصّلاة قام "جهيمان" وسلّم على رأس "ابن عبد الله"، وكذلك فعل الكمساري وبقية المصلّين واحداً واحداً، هل من المفروض أن أفعل الشّيء نفسه؟ ولم لا؟! بعدها أخذت في ترديد الرّاتب (وهي مجموعة من الأدعية) محتثاً ذلك بقرأة (آية الكرسي) ملامساً على جميع أجزاء جسمه بيدي وأنا أتلو الآية محصّناً نفسي بالمعوذتين، وبعد أن فرغ الجميع من السّلام والتّسبيح والدّعاء، قام "جهيمان" يحدث بصوت عذب، قوي، وباللغة العربيّة الفصحى المتداولة، السّهلة الفهم، العميقة التأثير، فيها من أسلوب وطريقة "جمال عبد النّاصر" الكثير من الحماس، والكثير من الإقناع، والكثير من الوضوح والصّراحة، وإن كانت اللهجة والموضوع مختلفين ولكنّها والحق يُقال إنّهما يسحرانك فتستسلم لهما طوعاً لا كرهاً، وصدّق رسول الله ﷺ حيث قال: "إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لِسِحْرًا".

المواضيع التي يناقشها "جهيمان" مواضيع عاديّة جدّاً قد تسمع مثلها في أيّ مسجد من مساجد المملكة أو من محدّث ديني في أيّ بقعة من العالم، ولكن لا تصغي إليه مثلما تصغي إلى هذا الرّجل، فهو يسرق منك الوقت دون أن تشعر بذلك، كان يتحدّث عن الإسلام وسماحة الإسلام والمحبة في الإسلام، ولم أشعر إلّا وأذان المغرب قد رُفِع من قبل "بلال".

"بلال" رائع في ثوبه الأبيض وعمامته البيضاء؛ مما يدلّ على أنّه من الإخوة في السّودان أو من مسلمي سود العالم.

عندما تحققت من لبس الآخرين وجدتهم جميعاً يلبسون الثوب السوداني والعمامة أو الباكستاني ما عدا "ابن عبد الله" الذي يرتدي الثوب السعودي حتى "جهيمان" نفسه كان يلبس الثوب السعودي، ولكن لم يكن يغطي رأسه شيءٌ مفتخراً بشعره الغزير المجدول والملقى على متنه على شكل ضفيرتين غليظتين.

بعد صلاة المغرب كان دور "ابن عبد الله" في قراءة القرآن وتفسيره حتى أذان صلاة العشاء، وبعد النوافل حاولت أن أستأذن، ولكن الطعام قد وضع في المجلس المقابل، وطلب مني أن أتصدّر مع "ابن عبد الله" و"جهيمان" المائدة، وتحلّق الآخرون في حلقات يأكلون الأرز الأحمر مع اللحم.

كان لديّ الكثير من الأسئلة، ولكن "ابن عبد الله" قال: نحن جماعة آمنّا بالله واجتمعنا على المحبة في الله، ندعو إلى الدين بالتي هي أحسن، وندرب الدعاة على اللين وحسن الخلق وحسن الخلق أيضاً، وقد لاحظنا تمسكك بالصلاة وحرصك على أداء الشعائر، وأننا نتمنى أن تكون أحد أفراد الجماعة، تحفظ القرآن وتكون داعية للإسلام، نظرت في وجه "جهيمان" ظناً مني أن الشاب يوجّه له الحديث، ولكن أخرجت عندما عرفت أن الكلام موجه لي، فكيف يتهمني بهذه التهمة وأنا لا أصلي إلا في النوادر وليس النوافل، وسألت: هل لكم أي نشاط سياسي؟ أم نشاطكم ديني فقط؟

نزل السؤال المباشر والصريح والواضح والجريء على الجماعة كالصاعقة ردّ "ابن عبد الله": يا أخي المسلم ما لنا والسياسة؟ نحن ندعو للإسلام.

سألت في شيء من الوقاحة: تدعون من؟
قال: الضالين.

قلت: وما هو تعريفكم للضلال؟

قال: أولئك الذين لا يقيمون رسالة محمد كما أمرهم رب العباد.

قلت: هل تقصد الحكومة أم الشعب؟

قال: هذا متأثر بذلك.

قلت: هل أنتم من جماعة التكفير؟ بمعنى أنكم أصحاب الرسالة

الحقيقية، والباقون كفر أو مشركون.

ردّ "ابن عبد الله": معاذ الله يا أخي، ولكن تقرير الحفلة المأجنة الصّاحبة

التي أقامتها الجامعة في الحفل الختامي العام الماضي وتشبّه الرجال بالنساء

والغناء والسهر حتّى أذان الفجر، وعلمنا بأنك صديق لبعض الطلّبة، خاصّة

رئيس اتّحاد الطلّبة، ولك رأيك وتأثيرك المباشر عليهم، وقد فاز في انتخابات

هذا العام أيضًا صديقك.

قاطعته: وهل ضايقتكم فوزه في الانتخابات؟

ردّ "ابن عبد الله": لا... لا... العكس هو الصّحيح، فنشاط اللجنة

الدّينية العام الماضي نشاطٌ ملموس وبارز، ونريد منه في هذا العام تطوير هذا

النّشاط ودعمه، وسوف نقوم بتقديم إعانة مباشرة عن طريقك لصرفها على

هذا النّشاط بناءً على الخطة التي سوف نندارسها الليلة وصباح غدٍ.

قلت: ولماذا لم تتصلوا مباشرةً برئيس اتّحاد الطلّبة الجديد القديم؟

ردّ قائلاً: الحقيقة وجدناه لا يلتزم بالصّلاة، ونحن لا نريد أن نتكلّم معه

مباشرة، وأنت فيك البركة بإذن الله أن تشرف على النّشاط من خلال

علاقاتك وقرب سنّك وتأثيرك المادّي أيضًا، وممكن عن طريقك أن تكون

جسر خير ومحبة ويهدي الله سبحانه وتعالى بعضًا من الشّباب الضّال، وتدلّنا

عليهم، ونحن بطريقتنا نجذبهم.

كان هناك مكان مُعدّ لراحتي واستسلمتُ للنّوم بعد أن قمت بصلاة

الشّفع والوتر وقراءة (الورد) جدّدت وضوئي ونمت نومًا عميقًا، وقبل

صلاة الفجر رأيت كما يرى النَّائم أنَّ وجهي صار جميلاً مثل وجه "محمد بن عبد الله"، ولكن لونه أسود مثل لون "بلال"، أمَّا يداي فقد كانتا بيضاء مثل بشرة "ابن عبد الله"، بل أكثر إضاءة، وهناك امرأة جميلة عارية تماماً تبسم لي قائلة: (ها أنت تحقق ما تصبو إليه) كان الفرح يهز قلبي وشعورٌ غريب لذيد يسري في حواسي الداخليَّة، تاركاً أثاره على الطبقة الخارجيّة من جسدي، وعندما دفعتني تلك المرأة من ظهري وجدتُ حشدًا كبيرًا من النَّاس، وطلبت مِنِّي أن أسير إليهم فوجدت نفسي أسير على رقاب الرِّجال، بعضهم في ثياب الإحرام وبعضهم في الثَّياب السَّودانيَّة، ولكنَّ رؤوسهم جميعًا خالية من أيِّ غطاء للرَّأس، بل إنَّ شعورهم السَّوداء تبرق من شدة سوادها، وهم يهللون ويباركون ويهتفون بكلام جميل، قابلته راحة في نفسي وإن لم أذكُر من ذلك الهتاف شيئاً عندما أفقتُ غير التَّهليل والتَّكبير. أمضيت عطلة نهاية الأسبوع مع الجماعة، وبعد أن تناولت طعام الغداء بعد صلاة الجمعة كان الجميع في وداعي، يقرب عددهم من خمسين رجلاً أكثر أو أقلَّ قليلاً، ولكن في تقريرتي للتَّنظيم ذكرت أنَّ الجماعة واحد وخمسون فردًا بالتَّحديد بعد أن أحصيتهم قرأت في أعينهم جميعاً رسالتين:

الأولى: تطلب مِنِّي كتمان أمر الجماعة.

والثَّانية: تطلب مِنِّي الموافقة على عرض الأمير "محمد بن عبد الله" (أمير

الجماعة) الذي لم يبلغ الخامسة عشر من عمره بعد.

كان آخر ثلاثة ودَّعتهم داخل المنزل هم "بلال" و"جهيمان" و"سعد"، والقرب من الحافلة ودَّعني "ابن عبد الله" وسلَّممني حقبة رياضيَّة مستخدمة، وفيها طقم من حذاء وملابس رياضيَّة، قال لي المهدي المنتظر وهو يودَّعني: أنَّ في داخل الظَّرف مبلغ من المال كتبرُّع للجنة الدِّينيَّة.

ركبَ البعض في الحافلة، بعضهم ارتدي لبس العمّال... السّروال والقميص، والبعض لبس الثّوب الوطنيّ، واحد على شكل باكستانيّ والآخر اللبس الحضرميّ، ركبَت الحافلة التي عادت من عكس الاتجاه الذي قدمت منه يوم الأربعاء، وتوقّفت الحافلة عدّة مرّات قبل أن أغادرها حاملًا تلك الحقيقة متّجهاً يسارًا، ثمّ يسارًا في نهاية الشّارع ثمّ يمينًا، وعندما وصلت إلى باب المنزل وأنا أحاول أن أضع المفتاح ليفتح الباب، كان "أسامة" يفتح الباب من الدّاخل، مرحّبًا متحدّثًا إلى "عبد العزيز":

- ها هو حبيبك قد وصل... الحمد لله على السّلامة يا سعادة الباشا.

قلتُ سائلًا "أسامة": متى وصلت؟!

قال "أسامة": قبل دقائق.

صاح "عبد العزيز" من الدّاخل: حمد الله على السلامة يا ريس.

سألت وأنا أفرغ محتويات الحقيبة معطيًا ظهري لـ "أسامة"، وأخرجت الظّرف ووضعت تحت المرتبة بسرعة، لم يلحظني أحدٌ خاصّة "أسامة" الذي كان يحاول أن يرى بطابع الفضول محتويات الحقيبة الجديدة، ويسأل عنها فهو لم يرها من قبل، رددتُ لإشباع فضوله أنّني سأخذها لكي أضع فيها ملابس الرّياضيّة المتّسخة، وقمت بجمع بقيّة الملابس المتّسخة وهي ليست جديدة ولكنّها مستخدمة، وقد دفعْتُ فيها خمسة ريالات فقط، وطلبت من "أسامة" مرافقتي إلى العم عبده صاحب المغسلة في طرف الحي، وفهم أسامة أنّي أريد أن أتحدّث معه بعيدًا عن زميلنا "عبد العزيز" الذي كان مشغولًا بعمل الشّاي، وكانت رائحة الشّيثة تدعو أهل الكيف لمغازلتها، صاح "عبد العزيز" من بعد أن حمل صينيّة الشّاي: عيني يا عيني بعد البقشة صار الغسيل في شنت عشنا وشفنا، خلي الغسيل بعدين تعال عمر واشرب الشّاي وبعدين روحوا.

قلت: ما راح نأخّر هيّا يا "أسامة".
في الطّريق قلت مباشرة: أريدك أن تكون رئيس اللجنة الدّينيّة.
ردّ "أسامة": و"أمين"؟!

قلت: "أمين" شخصيّة صارمة وملتزمّة وشكلي؛ فهو يطلب التّغيير في المظهر قبل تغيير المخفر... نريد شابّاً مثلك... سمح محبوب بسيط صبور، وسوف تكون هناك ميزانيّة لوضع برنامج للجنة، ومسابقات وندوات وسهرات وأبحاث توضع لها مبالغ ماليّة تشجيعيّة وأن تكون مواضيع الأبحاث جادّة وهادفة مثل الإسلام والتّحدّيات في القرن القادم أو الشّريعة الإسلاميّة بين التّطبيق والتّعطيل، الفقه الإسلاميّ والحضارة الحديثة، لقد مللنا يا "أسامة" تكرار عروض الزّكاة في العصور السّابقة، الآن نريد تبسيط عروض الزّكاة على أنواع التّجارة والخدمات الحديثة، فابن مخاض وبنت لبون لا يعرفها طفل الحليب الجاف، فيجب أن يكون لدينا علماء مسلمون في الهندسة والفيزياء والاقتصاد والماليّة والإدارة والطّب، وأن تكون هناك رغبة جادّة وتدريب شاق في كتابة الأبحاث والتّقارير العلميّة المفيدة، يا ليت كان تساهم في عمل اتّصال عن طريق السّفارة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة وتدعو اللاعب الأمريكي المسلم "كريم عبد الجبار" لاعب السّلة المشهور لأداء مناسك العمرة والزّيارة وعمل محاضرة عن إشهار إسلامه وتجربته قبل الإسلام وبعده، ونطلب محاضرة من الشّيخ متولّي شعراوي، ونحضر علماء مسلمين من باكستان وعلماء من الرّياض، نجعل الموسم الدّراسي نشاطاً دينيّاً مميّزاً في هذا العام.

ردّ "أسامة": كلامك جميل، ولكن هذا العمل يحتاج إلى مبلغ ضخم.
قلت: عليك بتخطيط البرنامج وعرضه عليّ في الأوّل، ومن ثمّ أتولّى عرضه على رئيس الاتّحاد وأعضاء مجلس الاتّحاد للموافقة عليه، أمّا تكاليف

رحلة "كريم عبد الجبار" يمكن نقدّم طلب لصاحب السمو الملكي الأمير "عبد الله الفيصل"، وأنا متأكّد أنّه راح يساعد بمبلغ طيّب، بالإضافة إلى ذلك يمكن نعمل مناورة مع نادي الوحدة في مكّة لكرة السّلة، صحيح أنّ الفارق كبير، ولكن نجمع بعض التبرّعات للجنة الدّينيّة، وكذلك مناورة في نادي الاتحاد أو الأهلي، وكذلك محاضرة في المدينة المنورة.

أمّا تكاليف الشّيخ الشعراوي فيمكن تديرها من أهل الخير، وكذلك تكاليف العلماء الآخرين زي ما قلت لك، المهم أنت اعمل برنامج الموسم وخلينا نأخذ موافقة المجلس وبعدين أنا أتصرّف.

علّق "أسامة": الموافقة عليه أم التّوقيع والبصم مثل مجلس الشعب. علّقت: النظريّة الديمقراطيّة تحتاج إلى كثير من الجهد والصّبر ﴿ وَبَشِّرِ

الصّابِرِينَ ﴾

أكمل "أسامة": (إذا صبروا...).

أخذتُ أعدّ للعمّ عبده الملابس، وأنا أنظر إلى خدّه المتورّم من استحلاب ثمرة (القورو)، وهي ثمرة غريبة يدّعي العمّ عبده أنّها تقوّي (الباه) وتعيد الشّيخ إلى صباه، ولكنّي أعلم أنّ العمّ عبده عازب في هذه البلد، وأنّ زوجته في اليمن، فلم يحتاج إلى (القورو) أو خلافه.

دخل "أسامة" إلى غرفته أمّا أنا فقد شاركت "عبد العزيز" في تدخين الشّيشة وشرب الشّاي والحديث عن أخبار المجتمع الآخر، مجتمع الأنس والفرشة، قال لي "عبد العزيز" أنّ العمّ عبده وعده بنت صغيرة لم تنزل سوق الهوى إلّا قبل أسبوع، همست في أذن "عبد العزيز" بأن يرتّب لي ولها حفلة في المكان المعروف ويبلغني الموعد.

بعد أن أتممت النّوافل المعتادة ألقيتُ بالتّحيّة على زملائي في السّكن، والخليط بين زملاء العمل وأصدقاء من الجامعة بعد أن تركت سكن

الشركة وذهبتُ للنوم، أخرجتُ الظرف وأخذتُ أعدَّ النقود التي بداخله فوجدتها خمسة آلاف ريال فقط لا غير وضعت مائة ريال في محفظتي، أمَّا الباقي فقد وضعته في جوب قديم ملقى في ركن الغرفة، ولم أُنم بل قرَّرت كتابة تقرير كامل عن عطلة نهاية الأسبوع لأقدمه إلى التنظيم، وأطلقتُ لفكري العنان... تجي تصيده يصيدك، هذا ما ينطبق عليّ، فبدل أن أقنع "محمد بن عبد الله" أن ينخرط معنا في التنظيم ها هو يستدرجني للجماعة، من هم هؤلاء؟ ما هي أهدافهم؟ ما هي خططهم؟ كم عددهم؟ كيف يكون شابٌ في عمر الزهور مثل "ابن عبد الله" أميرًا عليهم؟ المال؟

وهل كلُّ من يملك مالا يستطيع أن يجعل مثل هذه الصفوة من الناس أن تحولق حوله وتحبّه كلُّ هذا الحبّ؟ وما هو الفرق بين الجماعة والتنظيم؟ في التنظيم لم يطلب أحدٌ منّي أن أصلي، ولم أسمع أن أحدًا في التنظيم يتحدث عن الإسلام، بل إنَّ أهداف التنظيم وأنا أحد أعضائه الفاعلين وأنا لم أصل بعد إلى عضويّة المجلس التنفيذي وليس الأعلى، ولكنّي واثقٌ أنّي عضو فاعل مخلص، خاصّة بعد اجتيازي وصديقي "أنور" امتحان التّضحية والولاء قبل أربعة سنوات، ذلك الامتحان الذي لن يجتازه أو يتحمّله إلّا ذوو العزم كما قالت رسالة الأمين العام للتنظيم لي، وأنا من أولي العزم في التنظيم (وسوف أصل في يوم ما إلى المجلس الأعلى).

فهل سوف يكون هناك امتحان آخر عليّ أن أجتازه لكسب ثقة الجماعة؟ على كلّ حال، هذا يعود للأهداف التي تريد الجماعة تحقيقها، أمّا أنا فلديّ من الخبرة التي تجعلني أخطئ أيّ نوع من أنواع الامتحانات، خرجت من صدري آهة وأنا أتذكّر الظروف التي مرّت عليّ عندما دخلت إلى التنظيم، أتذكّر كيف أن "أنور" كان يطلب منّي أن أساعده في نسخ المنشورات ومن ثمّ توزيعها ثم أصبحت مراسلًا للتنظيم في كتابة بعض التقارير الصّغيرة،

ولكن عندما طلبَ مِنِّي أن أسافر إلى أحد الأقطار المجاورة للتدريب، وكيف أقنعت والدي بعد أن أعطيته خمسمائة ريال كان والدي في أمس الحاجة إليها، وكان التنظيم يعلم بذلك فقد طلبوا مِنِّي أن أتقدّم بطلب للعمل الإضافي في أيّ موقع من مواقع عمل الشركة، وقدّمت لي الشركة مبلغ الخمسمائة ريال على أساس أنّها (سُلْفَة)، وأنّ عليّ أن أسافر إلى قُطُرٍ مجاور للتدريب في فرع الشركة هناك، وسلّمتني خطابًا إلى مدير الفرع، ولكنّ أحد أعضاء التنظيم استلم مِنِّي الخطاب وأعطاني جوازًا مزوّرًا عليه صورتي تحت اسم "عبد الله صالح غزالي"، وكانت التعلّيمات معقّدة ومحدّدة، عليّ أن أركب سيّارة أجرة من جدّة إلى المدينة عسى أن أكون في موقف سيّارات (المدينة - تبوك) في ساعة معيّنة من اليوم التّالي، وسوف أجد سيّارة أجرة تحمل رقم ٤٥٦٧٨، وعليّ أن لا أتحدّث مع أحد مهما كان حتّى أصل إلى الدّولة المجاورة، وبعد وصولي إلى تبوك عليّ أن أدبّر نفسي للوصول إلى (حالة عمار) منطقة قريبة من الحدود السّعودية الأردنيّة، ومنها أركب حافلة توصلني إلى أوّل قرية، عليّ أن أنزل في القرية وبصاحبني أحد أبناء البادية على جمل حتّى أصل إلى نقطة التّجمّع تحت جبل يبعد عن القرية مسيرة يومين على ظهر الدّابة.

كانت التعلّيمات واضحة... استقلّيت سيّارة الأجرة بعد أن استلمتُ جوازي الحديد، وصلت إلى مدينة رسول الله ﷺ بعد صلاة العشاء نمت في أحد المقاهي الموجودة، وفي اليوم الثّاني وفي الموعد المحدّد كانت عيناى تبحث عن سيّارة تحمل الرّقم ٤٥٦٧٨ في موقف (المدينة - تبوك) وعندما لمحت عيناى الرّقم وضعت الحقيبة على سقف السيّارة وفتحتُ الباب وركبتُ في المقعد الأوّل في انتظار بقيّة الرُكّاب المسافرين، وتركت الباب مفتوحًا وقدمي اليمنى خارج السيّارة، كاد قلبي أن ينخلع من أشكال الرّجال الثلاثة الذين يبدو أنّهم من أهل الشّمال واحتلّوا المقعد الخلفي، ولكنّ المفاجأة هي في

الشخص الذي طلبَ مِنِّي أن يشاركني المقعد الأمامي، وعقدت المفاجأةَ لساني، إِنَّهُ صديقي "أنور" بشحمه ولحمه، أردتُ أن أقبله، أسلّم عليه، أضمّه إلى صدري، أسأله عن أخباره، وإلى أين هو ذاهب؟ أعلم أَنَّهُ عضوٌ في التَّنظيم، بل هو الذي أوصلني إلى هذه النُّقطة في حياة الغموض والشَّقاء، ولكن ورغمًا عني وبناءً على التَّعليقات تجاهلْتُ وجود "أنور" أو أي معرفة تربطنا على مضض، ولكن في داخل نفسي أحسستُ باطمئنان غريب، وعندما وقفت سيَّارة الأجرة بعد أن تركت مدينة رسول الله خلفها طلب السَّائق من عامل المحطَّة أن يعبئ مخزن الوقود، وطلب من الرُّكَّاب قيمة الأجرة، أخرجتُ عشرة ريالات، أمَّا "أنور" فقد أعطاه ورقتين من ذوات الخمسة ريال بعد أن أخذ الأجرة من رُكَّاب المقعد الخلفيِّ وحاسب عامل المحطَّة، انطلقت السيَّارة ولم يتكلَّم أحدٌ وبعد الغروب توقَّفت السيَّارة وترجَّل الجميع لأداء صلاة المغرب والعشاء قصرًا وجمعًا، تقدَّم أحد رُكَّاب المقعد الخلفيِّ وكان ذو لحية كَثَّة ووجهٍ مخيف وكأنَّه قادم من عالم الأموات أو الأشرار، ليس هذا فحسب بل لا يحسن قراءة القرآن، بل يلحن في اللغة وكأنَّ الأحرف تخرج من فتحة أنفه؛ ممَّا جعلني أعتقد بيني وبين نفسي أنَّ الرَّجُلَ يهوديٌّ فاليهود هم الذين يتحدَّثون بهذا الطَّريقة، أو هذا ما علق في ذهني عنهم خاصَّة بعد أن شاهدت مسرحيَّة تاجر البندقية تمثَّل على مسرح المدرسة، وطلب مدرِّس الفنون ومخرج المسرحيَّة من الطَّالِب الذي قام بدور اليهودي أن يتحدَّث بخنَّة من أنفه، عاد الجميع إلى الصَّمت والظَّلام والرَّجال الخمس مع السَّائق، كلُّ واحدٍ مِنَّا لديه ما يشغله، وغفت عيني ومالَ رأسي على كتف صديقي "أنور" مطمئنًا أَنَّهُ بقربي ولكنني استيقظتُ على وقوف السيَّارة المفاجئ، فتحتُ عيني، لم أرَ غير ضوء يدويٍّ، كان يحمله رجل شرطة، طلبَ مِنَّا إثبات الهويَّة، أخرج الجميع أوراقهم.

الثلاثة في المقعد الخلفي قَدَمُوا الحفيظة، أمّا أنا و"أنور" فقدَمنا جوازاتنا، نظرَ الضَّابط في الجوازات وطلبَ مِنَّا التَّرجلَ من السَّيَّارة، أخذ الضَّابطَ يحرِّكُ الصَّوءَ على الجواز وعلى وجهينا بالتَّناوب، قال الضَّابط: "عبد الله صالح".

صحت: سم.

قال الضَّابط: عساكَ السم يا ابن... وشتمني في عرض أمِّي (كدتُ أن أنفجر من الغيظ، ولو كان في يدي سلاح لما توانيت عن قتل جميع مَنْ سمع هذه الشَّيمة)، ولكنِّي تذكَّرتُ تعليماتِ التَّنظيم، وقلتُ للضَّابط بهدوء الحانق: الله يسامحك يا رجال عيب هذا الكلام.

ردَّ الضَّابط بجفاء وتحدَّد: عيب يا ابن... وكأنَّ هناك هاتفًا في أذني يذكِّرني ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ ولم أرد.

قال الضَّابط بتهكُّم: و"محمَّد أحمد علي"؟

ردَّ "أنور" بهدوء: هذا أنا.

الضَّابط: يا أولاد... مزوَّرين... مزوَّرين لساتكم ما طلعتوا من قشرة البيضة وتزوَّروا كمان يا مخا... وأكمل الضَّابط منادياً وموجَّهاً أمره لبقية الأفراد: حطُّوا الحديد في يدهم.

بسرعة غريبة كانت الأساور الحديدية تمنع يدي ويد "أنور" من الحركة، وانتقلَ الضَّابط بالشَّتم لسائق الأجرة، واختلَى به بعيداً عن سماع الآخرين، عاد السَّائق والضَّابط وطلبَ الضَّابط من السَّائق إخراج أمتعتنا، ألقي السَّائق بحقيبتين قديمتين على الأرض وطلبَ منه الضَّابط أن ينصرف، وصاح: وين شنتك يا زفت؟ ولم يرد أحد، استدارَ الضَّابط وألقى بكفِّه على وجهي صائحاً: أنت يا خنيب... ليش ما ترد.

تسمّرت وأخذت أقرأ في سرّي آيات من القرآن علّها تصرف عني هذا السّففيه، وعاجل الضّابط "أنور" بكفّ علي وجهه أيضًا ناهرًا إيّاه: وأنت يا وجه الضفعة وين شنتك.

ردّ "أنور" ببرود مؤشّرًا بقدميه على شنته، فتحها الضّابط وأخرج ما بها من محتويات قليلة وألقى بمحتويات الحقيبة على الرّمال وفتّش الحقيبة بدقّة، ولما لم يجد شيئًا ألقى بالحقيبة بكلّ احتقار وفتح الحقيبة الثّانية الخاصّة بي مردّدًا ألفاظًا قدّرة، وفعل بها مثلما فعل بالحقيبة الأولى، وطلب من الأفراد أن يلقوا بهذه القمامة وهو يؤشّر علينا في السّيّارة الجيب.

اتّجه جيب الشرطة مرّة أخرى إلى المدينة المنوّرة، ركبت أنا وأنور بجوار بعضنا بعد أن قام الأفراد بتكيبيل قدمينا في الحديد أسفل المقعد، وركب الضّابط في المقعد المقابل، وبجواره رئيس رقباء لم يفتح فمه بكلمة سوى إطاعة أوامر هذا السّففيه.

بعد دقائق صاح الضّابط: مين فيكم "فالح نائر الفالح"؟ صعقت! كيف عرف الضّابط اسمي بالكامل ولكنّي لم أرد، عاد الضّابط إلى السّؤال مرّة أخرى ولم يرد أحد، وكرّر السّؤال للمرّة الثّالثة، ولكن كأنّ الضّابط يسأل نفسه، استشاط الضّابط غيظًا ورفسني في بطني بالحذاء الذي يترديه، وقال: أنت... أنت يا ابن الزّنى... فالح والله إنك طالح، وبصق على والتفت إلى "أنور" قائلاً: وأنت "أنور"... "أنور حنس بن سبع" تبغوا أسماء أمّهاتكم يا أولاد الحرام... ولّا بلاش، قولوا فين رايمين... مين زور لكم الجوازات... ولم يرد أحد.

كنت أستعين بالقرآن والدّعاء والصّلاة على رسول الله وكأني في خلوة مع ربّي، قبل دخول مدينة رسول الله طلب الضّابط من الأفراد وضع أقنعة على وجهنها وربط أعيننا حتّى لا نر إلى أيّ مكان نحن مساقون، أحسست أنّ

الجهاز كان يراقبنا وأنَّ الدولة مفتَّحة عينيها وأكيد أنَّ التَّنظيم بدأت هياكله تتساقط. ولكنَّ الحقيقة أنَّه لم يكن لي دور فاعل أو بارز وأنَّ الشَّخص الوحيد الذي هو متأكَّد من اشتراكي في التَّنظيم هو "أنور" الجالس بجواري وبعض الطَّلبة الصَّغار الذين غررت بهم ولم يقوموا بأيِّ نشاط يذكر بعد، عدت إلى القرآن والدُّعاء. هل دخلت السيَّارة إلى المدينة؟ أم إلى قرية قريبة من المدينة؟

شمال المدينة؟ جنوبها؟ شرقها؟ أم غربها؟

لا يعلم ذلك إلاَّ الله والسَّائق والضَّابط وأفراده، شممت رائحة برسيم وماء، وعرفت أنَّنا في أحد (البلاد) كما يطلق عليها أهل المدينة المنوَّرة، وهي في الحقيقة مزرعة من تلك المزارع المحيطة بالمدينة أو قريب من المدينة توقَّفت السيَّارة ونزل الضَّابط وسحبني هل أنزلوا "أنور" معي؟

في غرفة كأنَّها زنزانة، ولكنَّها تحت الأرض ألقيوا بجسدي المنهك ولم يخلعوا من يدي أو قدمي أساور الدُّل. لا أعرف كم من الوقت مضى، ولكن عندما قدَّم لي الطَّعام ربط السَّجَّان يدي اليسرى في قضيب الباب محرِّرا يدي اليمنى فقط ووضع لي الأكل على الأرض قريبا من قدمي ممَّا يجعلني أثنى عند كلِّ لقمة، أما إذا أخطأت وسكبت كأس الماء على الطَّعام فما عليَّ إلاَّ أن أكله أو أن أتحمَّل الجوع والعطش أو أشرب الماء من الصَّينيَّة القذرة حتَّى وجبة اليوم الثَّاني، حاولت أن أتحدَّث مع السَّجَّان ولكنني اكتشفت أنَّ السَّجَّان أصم وأبكم؛ لأنَّه عندما طلب مني أن أقضي حاجتي في الوعاء المعدَّ، كان يستخدم الإشارة وأصوات تدلُّ على حنقه بـ "آآآآت" غير مفهومة؛ لذلك كنت أحاول أن أشرح له أنَّه بسبب القيد لا أستطيع فعل ذلك، ممَّا يجعل السَّجَّان يثور ولكن لا يستطيع أن يشرح سوى بأحرف أعم... أعم والإشارة فقط.

كلّ ما أريد معرفته هو اليوم والتاريخ والسّاعة... وهل هناك محاكمة؟
هل سأعترف أنّي "فالح"؟

هل أضعف؟ هل أتركهم يقتلونني؟ أقتل؟ أعدّب! إلى متى؟
عدتُ إلى القرآن والدُّعاء، أصليّ وأنا واقف وبدون وضوء لأنّهم لم
يسمحوا لي بالوضوء أو الصّلاة، كان التّعب قد أخذ منّي كلّ مأخذ عندما
أخبرني جندي أنّي مطلوب من قبَل العقيد. حرّروا قدمي لأوّل مرّة منذ أن
وضع فيها القيد، ولكنّ يدي لم تزل على حالها، أدخلتُ إلى غرفة خالية
وبقيت بعض الوقت ثمّ طلبَ منّي أن أتجه إلى "طريقة" وبعد عدّة زنانات لم
أتعرّف على نزلاتها توقفتُ عند غرفة، ووجدتُ صديقي "أنور" مربوطاً في
سقف الغرفة شبه عارٍ ورجل أسود يجلده بسوط يسيل الدّم منه. أوقفوني
متعمّدين قليلاً لأرى المنظر... لا أعرف كيف تذكّرت "بلال بن رباح"
العبد الذي ذلّ سادة قریش بإيانه... وصبره... وجلده... وقوّته... عليّ
تحملُ الظلم والألم وكلمته السّاحرة (أحد... أحد). ارتفع صوتي لا شعوريّاً
قليلاً... قليلاً مردّداً (أحد... أحد)، سمعها "أنور" فأخذ يردّها بوهن في
البداية وبقوّة تدريجيّاً.

عندما جاء الضّابط السّفيف وسحبني من حلقي وألقى بي في غرفة، كان
هناك شخصان، أحدهما يلبس ثوباً أبيض نظيفاً وآخر يجلس على مكتب
ويدخّن سيجاراً من نوع هافانا، أحسستُ أنّ هذا الشّخص الذي يدخّن
السّيجار هو رئيس الجهاز، لا أعرف لماذا ولكنّي أحسّ أنّ هذا الشّخص
المختبئ خلف ظلال من العتمة لا يستطيع أحد أن يرى ملامح وجهه... هو
الرئيس، اقتربَ الواقف بجواري ومهرّ الضّابط قائلاً: إيش هذا يا "عبّاس"
كذا تعاملوا ضيوفكم شيل... شيل الحديد من يده (كانت اللهجة مكّيّة)
تقدّم أحد الأفراد وحرّر يدي بعد أن أخذ الإشارة من الضّابط... كم هي

جميلة الحرّية... تلك الكلمة التي لا يعرفها إلا مَنْ هو في موقعي... الحرّية وشجرة الحرّية التي لا ترونها إلا الدّماء.

الرّجل الأنيق الواقف طلبَ منّي الجلوس على الكرسي، وطلبَ طسّاً وإبريق ماء، وأمر الجندي أن يساعدني في غسل وجهي، أحسستُ لأوّل مرّة بنعمة الماء الذي حرمتُ منه، لا أعرف كم من الأيّام؟ وبعد أن ارتحت قليلاً قال لي المحقّق: شكلك صغير... كم عمرك؟

رددت: ست تعيش.

صاح المحقّق بعصبية موجّها كلامه للضّابط السّفيف: ست تعيش سنة يا "عبّاس"! جايب لي عيال وتقول مجرمين ومزوّرين ويهدّدوا أمن الدّولة، عيال يا "عبّاس" يهدّدوا أمن الدّولة، الدّولة يا "عبّاس" الي تخاف من شويّة عيال ما تستحق تكون دولة، أقول للملك إيه؟! اثنين عمر الواحد منهم ست تعيش سنة ييغوا يقوموا بانقلاب على الحكومة... مهزلة... هذا الكلام... مسخرة.

أنا أحاول أن أقرأ القرآن عندما اقترب منّي المحقّق مرّة أخرى وسحب كرسيّاً آخر وجلس أمامي تقريباً، سأل المحقّق: فالح... أنت تدرس يا شاطر؟

أجبت: أنا اسمي "عبد الله صالح" ما أعرف "فالح" هذا، أمّا أدرس نعم.

وأكمل المحقّق: في أيّ مدرسة يا شاطر؟

قلت: ثانويّة العزيزيّة في الحوض في مكّة.

علّق المحقّق بكثير من التّهكّم: وكمان كمان يا "عبّاس" جايب لي ناس من حوض البقر... ناقص أنا غلب من حوض البقر يا بابا ما شاء الله. (وأكمل) حضرتك في أيّ مرحلة.

أجبتُ: أنا في الصَّفِّ الثَّاني أدبي.

صاح المحقِّق بسخرية: أدبي... أدبي يا "عبَّاس"...

وسألني: ونجحت؟

أجبت: أيوه.

قال المحقِّق: يعني طالع توجيهي.

أجبت: أيوه.

قال الرَّجل: قلت لي اسمك إيش؟

قلت: عبد الله صالح.

قال المحقِّق: عبد الله صالح إيه... كَمَل.

أكملت: عبد الله صالح غزالي.

ضحك المحقِّق حتَّى كاد أن يسقط من على الكرسي وقال: غزالي كمان... يعني صغير وقلنا طيب، من حوض البقر وقلنا معلش، وطالب وقلنا ماشي يا واد... غزال... طيب لو كنت فهد كنت عملت إيه؟ قل لي من غزلان مكَّة ولا غزلان جدَّة.

قلت: أنا من مكَّة.

سأل المحقِّق: ومكان الولادة فين يا حبيبي؟

أجبتُ: في مكَّة المكرَّمة.

علَّق المحقِّق: أعرف أنا أقصد اسم الحارة.

قلت: في القرارة.

ضحك المحقِّق وضحك الضَّابط وسمعت ضحكات الرَّجل الذي كان يجلس خلف المكتب، قال المحقِّق: يعني من حارتنا... بس أنا عمري ما سمعت عن بيت غزالي في القرارة... أنت ليش تبغى تزعلني... لم أرد ولكنَّ المحقِّق سأل: أنت جيعان؟

هَزَّةً من رأسي بنعم كانت كافية لأن يصدر الرَّجل أمره قائلاً: يا "عبَّاس" كمان تأكل أكل الضَّيَّوف يا راجل حرام عليك روح... روح جيب أكل معتبر للأخ، والتفت نحوي قائلاً: قلت لي اسمك إيه؟ أصررت: عبد الله.

أكمل المحقِّق: أيوه عبد الله... عبادي اسم الدَّلَع عبادي.

قلت: أهلي يدلَّعونني دله.

خرج الضَّابط وقام المحقِّق وأخرج علبة سجائر، بالرَّغم من أنَّه لا يدخِّن وقدَّم لي سيجارة، شكرته قائلاً معتذراً: أنا لا أدخِّن.

قال المحقِّق: أوه نسيت أنتوا أهل القرارة تحبُّوا الجراك... الشَّيشة.

أحضر المحقِّق معه من المكتب بعض الأوراق وجلس أمامي، وقال: قلت لي أنت في العزيزيَّة الثَّانويَّة في الصَّف الثَّاني القسم الأدبي. أجبته: أيوه.

وأخذ المحقِّق يقرأ أسماء زملائي في الصَّف من الأوراق التي كانت في يده، ووصلَ إلى اسمي الحقيقي "فالح ثائر الفالح"، وقال الحقيقة ما في اسم "عبد الله صالح غزالي" في السَّنة الثَّانية أدبي، تكون في القسم العلمي يا ابني؟

أحسستُ أنَّ الاستمرار في الإصرار على اسم "عبد الله صالح" لن يفيد، ولكن لو اعترفت أنَّني فالح، ماذا أقول لهم عن الجواز؟ من أين أتيت به؟ مَنْ زوَّره؟ إلي أين كانت وجهتي؟ ما المهمَّة؟ نظرتُ في وجه المحقِّق في شيء من البلاهة، وقلت: أنا "عبد الله صالح غزالي".

قال المحقِّق: وأنا مصدِّق إنَّك "عبد الله غزالي"... بس ليش تكذب وتقول إنَّك طالب في ثانوية العزيزيَّة وإنَّك من القرارة.

علّقت: تبغى الحقيقة؟ أنا لا أدرس ولا يحزنون.

أرخصى المحقّق جسده على الكرسي، وقال ببرود: ريجّتنى يا شيخ الله يهديك، كنت قلت من الأوّل.. ها قل لي إيش تسوي؟ يعني إيش شغلتك؟ ردّيت بهدوء: داشر.

ضحك المحقّق وضحك الشخص الذي لا يزال خلف المكتب ولم يتكلّم. سأل المحقّق في برود: داشر يعني إيه؟

ردّيت بالبرود نفسه وبنوع من الهمس المسموع: داشر في اللغة من الدّشرة والأصل من الفعل دَشَرَ على وزن فعل والدّشرة هي أن يتدشّر الشاب في الشّوارع أي يتسكّع، وجمعها دُشّر بضم الدال وشد الشين ونقول: شباب دُشّر أو داشرون إذا كانت مبتدأ ومؤنثها داشرات، وتأتي نون النّسوة فقط عندما نقول داشرن.

صرخ المحقّق بغضب:

- أنا ما أحب السّماجة لا تزعلني منك... خليك طيب معايا... أنا ورايا شغل وبيت ماني فاضي للكلام المايص حقك هذا... اسمع يا حبيبي قل لي الحقيقة عشان تروّح لأهلك.

قلت: قلت لك أنا ولد غزالي... أبويا صالح غزالي (مقلّداً اللهجة المكّيّة) وكيف لا أتقنها وأنا قد أمضيت عمري وتعليمي في مكّة).

قال المحقّق: طيّب تعرف "عبد الله بن حسن".

قلت: لا.

قال المحقّق: ولكنّه صديقك وزميلك في الفصل الثّاني الأدبي، ويقول إنك "فالح نائر الفالح".

أصررتُ على أنّي "عبد الله".

المحقّق: على فكرة صديقك "أنور" اعترف.

قلت: أنا ما أعرف أحدًا بالاسم هذا.

المحقق: "أنور" الي كان معاك.

قلت: هو اسمه "أنور"؟

المحقق: ليه ما تعرف هذي كمان؟

قلت: الحقيقة ما حصلي الشرف أتعرّف عليه.

المحقق: عجيب تسافروا مع بعض وما تعرفوا بعض.

قلت: الحقيقة أنا مسافر لحالي.

المحقق: والغرض من السفر إيه إن شاء الله؟

قلت: يقولوا في السفر فوائد قلنا نساfer.

المحقق: وأنت مسافر ليه؟

قلت: تماشي وفرجه ومن دا على دا على قولهم.

عاد "عبّاس" ولم يحضر الطّعام، فقال له المحقّق: الحقيقة أنّ الأخ "فالح" مُصرّ على إنكار نفسه، وما يبغى يعترف باسمه الحقيقي، وما أعرف كيف حصل على الجواز، أكيد أن أبوه يعرف، من الأفضل نجيب أبوه، أكيد هو الي خرج له الجواز... يبغى يهرّبه من البلد... شوف قتل قتيل ولا فعل الفاحشة في ولد، دبر له أيّ مصيبة يا "عبّاس" واثأكد يا "عبّاس" من أقسام الشرطة... شوف أحد بلّغ عن حادثة قتل أو لواط أو سرقة... فض بكارة... اغتصاب يعني لقاصر أو أي شيء وما لقيوا المتهم وبلغ إنكم لقيتوا الفاعل (وكمّن يحدث نفسه ولكن بصوت مسموع يمكن عملية تهريب مخدرات).

كاد قلبي أن يتوقّف عندما سمعت أنّ والدي يمكن أن يكون هنا ويراني في هذا الموقف. ولكن لو اعترفت لهم باسمي سوف يهدّدونني بوالدي حتّى اعترف على التّنظيم، وعدتُ مرّة أخرى للقرآن... ماذا لو أتوا بأمّي وأخواتي

الصَّغَارُ ذُكُورًا وَإِنَاثًا... إِنَّ هَؤُلَاءِ الْوَحُوشَ يَقُومُونَ بِأَيِّ عَمَلٍ لِلْحَصُولِ عَلَى مَا يَرِيدُونَ عِدْتُ مَرَّةً أُخْرَى لِلْقُرْآنِ ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا أَلَمْؤُْمُنُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ ولزمت الصَّمت.

قال الرَّجُلُ: ها... نجيب أبوك؟

لم أَرِدْ... أعاد السُّؤال مَرَّةً ومَرَّتَيْنِ وثلاثة، ولكن دون جدوى، ضاق الرَّجُلُ ذُرْعًا بِى وَطَلَبَ مِنْ "عَبَّاسٍ" أَنْ يَتَصَرَّفَ مَعَ هَذَا الْحَيَّوانِ وَيَقْصِدَنِى أَنَا طَبْعًا، وَكَانَ مَصِيرِي مِثْلَ مَصِيرِ صَدِيقِي "أَنُورٍ".

ساقونى كالبهيمة إلى غرفة التعذيب، ولم أشاهد "أنور"، ولكن رائحة دمهِ وعرقهِ كانتا لاتزالان تعبَّقان الغرفة، وكانت تشحذ عزيمتي وكأنَّها أغلى أنواع العطر الفرنسيَّة. هل مات؟ كلَّنا سنموت؟ أَلَمْ يَقُولُوا:

مَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ تَعَدَّدَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ تَمَّ شَدَّ يَدَيَّ وَوَضَعْتَ ثِقَالَتي فِي قَدَمِي، وَتَقَدَّمَ أَحَدُهُمْ وَمَزَّقَ ثَوْبِي وَعَيْنَاهُ تَتَفَحَّصُ جَسَدِي الرِّيَاضِي الْقَوِي بِنَظَرَاتٍ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْجُوعِ وَلَكِنَّهُ جُوعٌ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، وَتَمَّ تَمْزِيقُ مَلَابِسِي الدَّاخِلِيَّةِ الْعُلْيَا وَلَمْ يَبْقَ سِوَى سُرْوَالِي الَّذِي يَغْطِي عُورَتِي وَأَحْسَسْتُ بِالسَّوْطِ يَلْسَعُنِي، أَخَذْتُ أَرْدَدَّ (أَحَدٌ... أَحَدٌ) وَلَمْ أَحْسُ بِالْم... وَكَأَنَّ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ سِحْرٌ يَقْتُلُ الْأَلَمَ، حَتَّى عِنْدَمَا أَعَادُونِي إِلَى زِنَاتِنِي الَّتِي قَامُوا بِتَنْظِيفِهَا مِنَ الْأَوْسَاخِ، وَأَلْقَيْتُ فِيهَا دُونَ قِيُودِ هَذِهِ الْمَرَّةِ... حَقَّقُوا مَعِي أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ وَجُلِدْتُ وَعُذِبْتُ وَجُعْتُ، وَكَانَ أَقْسَى نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ التَّعْذِيبِ وَاجْهَنِي عِنْدَمَا أَلْبَسُونِي أَسَاوِرَ الذَّلِّ فِي يَدَيَّ وَقَدَمِي وَأَوْقَفُونِي وَسَطَ غُرْفَةِ التَّحْقِيقِ، وَكَانَ الرَّجُلُ صَاحِبَ السَّيِّجَارِ فِي مَكَانِهِ خَلْفَ الْمَكْتَبِ لَا يَظْهَرُ مِنْ مَلَامِحِهِ شَيْءٌ وَالْمَحَقِّقُ الْبَارِدُ وَاقِفًا، وَ"عَبَّاسٌ" ذَلِكَ الضَّابِطُ السَّفِيهِ، وَكَذَلِكَ الْجَنْدِيُّ الَّذِي قَامَ بِتَمْزِيقِ لِبَاسِي الدَّاخِلِيِّ السَّفْلِيِّ، فِي الْبَدَايَةِ

وددتُ أَنَّ الأرضَ تنشق وتبتلعني أو أن أجلد ألف مرّة وأن لا يرى أحد عورتي مرّة واحدة.

ولكنَّ عزائي الوحيد أَنِّي انتصرتُ عليهم ولم أعترف، وأنَّ أقوالي لم تتغيّر، كنتُ أستعين بقراءة القرآن والدُّعاء فقط وإمعاناً في قهرهم أخذتُ أَتَبَسَّم.

في منتصف ليل من ليالي ذلك الصَّيف فتح باب الرِّزْزانة وحضر "عبّاس" مع أحد الأفراد، أخذوني إلى الحَمَّام وطلبوا مِنِّي أن أغتسل وأرتدي ملابس نظيفة. تمَّ نقلي بعد أن ارتديت الثَّياب إلى مكتب نظيف قدَّم لي فيه ماء بارد في كأس زجاجي نظيف وصينيّة أكل أنيقة وأنواع مختلفة من أشهى أنواع الأكل، أحسستُ أَنَّ هناك حركة غير عاديّة فالجميع في عجلة من أمرهم ويريدون مغادرة المبنى بأسرع ما يمكن، هل هناك تفتيش أم أنَّ شخصيّة كبيرة سوف تزور المكان لتحقيق معي، غمَّى الجندي عينيَّ وسحبني وركبتُ سيّارة لم أعرف نوعها ولكنّها بالتأكيد لم تكن سيّارة الجيب التي أحضرنا إلى المعتقل، توقّفت بعد أكثر من ساعة وخرج الجندي وطلب مِنِّي مغادرة السيّارة ودخلنا مبنى، وسمعتُ أصواتاً هي للهمس أقرب منها للحديث، لم أفهم منها شيئاً ولكن قبل أن أسمع صوت أقدام الجندي تغادر المكان الذي أخذ معه قيودي سمعته يقول لشخص آخر موجود معنا في الغرفة: وقّع باستلام الطَّرد (لقد أصبح الإنسان طرداً عند هؤلاء الأوغاد) هل تمَّ نقلي من معتقل إلى آخر؟ وماذا عن صديقي "أنور"؟

حلَّ شخص الرِّباط من على عيني ووجدتُ نفسي في غرفة واسعة وسرير كبير لم أشاهد مثلها في حياتي، معقول أن تكون هذه غرفة نوم، كلّ هذه المساحة غرفة نوم لشخص واحد فقط أو حتّى شخصين؟! وهذا السرير الضَّخم أكيد أَنَّهُ غالي الثَّمَن وكلّ هذا الأثاث الفاخر... هل أنا في قصر...

لا... لا... لا يمكن أن يكون هذا واقعاً.

نظرَ إليَّ الشاب قائلاً: الحمد لله على السَّلامة... أكيد المعاملة كانت جيّدة في الرّحلة... هذا الدكتور "أحمد" راح يكشف عليك.

عشت أجهل وأسعد بل أرغد أيّام حياتي خمسة عشر- يوماً بين العلاج الطّبي والنّفسي والدّيني الذي أنساني ما تعرّضت له خلال الشّهر الماضي... شهر كامل من السّجن والتّعذيب والتّحقيق والدّل، انتهى الكابوس بحلم جميل وجنّة بل فردوس، وجدت في هذا النّزل صديقي "أنور"، ولكن لم أستطع أن أتحدّث معه، بل لم يسمح لنا بالحديث مع بعضنا البعض أو مع أيّ شخص من النّزلاء ولم ألظهم يتحدّثون مع بعضهم البعض، ولكن "أنور" وأنا التقينا أكثر من مرّة، ولم يتحدّث أحدهما مع الآخر إلّا من خلال قراءة سريعة تبعث بها نظراتنا المتسائلة المطمئنة التي تنبئ عن تماسك الذات والمزيد من قوّة التّحمّل، كانت هناك دروس ومعلومات عن المدينة التي كان من المفترض أنني قمتُ بزيارتها، وصور عن موقع الشّركة، لون الحافلة، اسم سائق الحافلة، عدد الموظّفين، أسمائهم، جنسيّاتهم أهمّ العلامات والصّفات البارزة في كلّ واحد منهم، المدينة، الشّوارع، الأسعار، المستوى المعيشي، السّكن، بعض المناطق السّياحية التي من المفترض أنني زرتها، المطاعم... أكالات معيّنة شعبيّة تذوّقتها لأعرف طعمها وأحفظ اسم الأكلة، كلّ يوم دراسة وامتحان للتّأكّد من المعلومات، كانت وجبات الطّعام تأتي إلى الغرفة على طاولة فخمة لا يشاركني أحد... صحيح... أكل راقٍ لا أعرفه من قبل، وكان الخادم يعلّمني الأساء بطلاقة... اسكلوب بانيه، نيس يواز، مارون قلاسيه، مقلوبة، منسف كبيس.

أمر فأطاع... الصّحف، الكتب، الرّاديو، والخروج إلى حديقة القصر، صحيح أنّ حركتي محدّدة بين الغرفة والحديقة المغلقة، ولكنني أستطيع أن

أصليّ وأقرأ القرآن والجرائد وبعض الكتب، وأكل وأنام وأسبح وأستحم وأنطيب وأحدث مع الطبيب النفسي.

قبل مغادرتي بيوم واحد أحضر لي الطبيب حقيبتتي وملابسي كاملة نظيفة مرتبة وكأن لم يمسه أحد. ضمنت حقيبتتي كأنها هي عشيقة أو صديقة طال جفاؤها، وسألت: وين لقيتوها (كان السؤال ساذجاً) وسمعت الطبيب يقول: فالح انس خلاص.

قلت: والشنطة الثانية.

الطبيب: لا... هذي اشتريتها أنت من هناك، وفيها هدايا للوالد والوالدة وإخوانك وأخواتك.

قلت: حتى هذي ما نسيوها.

الطبيب: أنت يجب أن تنسى، وما تنسى الي علمناك إيّاه.

عندما استعدت للنوم بعد قراءة (الورد) وضعت يدي تحت الوسادة لأجد ظرفاً، سحبته بهدوء، وجدت الرسالة التالية:
فالح...

إنك من أولي العزم، نأمل أن تنسى ما حدث تماماً، سوف تعود غداً إلى جدة، يجب أن تداوم في الشركة وإعطائهم التقرير المرفق عن الرحلة، هناك خطاب شكر من مدير فرع الشركة في البلد المجاور عن حسن أدائك وجدك واجتهادك في العمل، وقد تمت ترقيتك إلى رئيس قسم في الشركة ومرحباً وأهلاً وسهلاً بك في التنظيم.

الأمين العام

ملحوظة: يجب التخلص من هذه الورقة.

تمّ تعيين "أسامة" رئيساً للجنة الدينية، وأصبح "زياد" رئيساً للجنة الكشافة والجوالة في الجامعة، وأصبح "أمين" خارج مجلس اتحاد الطلبة،

كانت ردة الفعل لدى الجماعة قويّة، وعندما أخذت مقعدي في الحافلة تقدّم إلى الكمساري كالعادة لاستلام القروش الأربعة، وإذا به يتحدث بصوت عالٍ يريد أن يسمعي وكلّ من في الحافلة: نبي إمام لصلاة العشا الليلة، ضحك والسائق لأنّ مظهرهم الخارجي يدلّ على أنّهم من جماعة عبده الشيطان، وأنّهم من أهمّ عناصر تهريب وترويج المخدرات لمتعاطيها في هذا الوطن.

فهمتُ الرّسالة، وقبل صلاة المغرب استعدّيت للصّلاة في المسجد وارتديت ملابس الرياضة لأداء بعض تمارين اللياقة. وبعد الصّلاة خرجتُ من المسجد وأخذتُ أهروول نحو الجنوب ثمّ الغرب ثمّ الشّمال وتركتُ حيّ النّزلة على يميني، وعندما وصلت إلى مقرّ الجماعة بعد أن تأكّدت من عدم وجود أحدٍ يراقبني دخلت إلى الصّالة الرّئيسيّة، ووجدتُ الخادم الذي قابلني مرحّبًا.

وبعد صلاة العشاء وعلى مائدة الأمير جلس "جهيمان" عن يمين الأمير، والكمساري عن يساره، وجلست عن يمين "جهيمان" قال الأمير: حيّاك الله يا أخي الكريم.

أجبت: البقا.

سأل الأمير في شيء من العتاب: ليش طلبت تغيير الأخ "أمين"؟

قلت: أعتقد أنّ مجلس اتّحاد الجامعة أمرّ يخصّ الجامعة ورئيس المجلس.

قال الأمير: ولكن...

قاطعته: اسمع يا "أبو عبد الله" أنا ما أشتغل عندك، ولم أقرّر أن أكون تابعًا لمجموعتك، وعلى فكرة أنا ما أتبع أحد ولا أحب أحد يتدخّل في شئوني... وأنا ما أسمح لنفسني بالتدخّل في شئون أحد، وإذا كان قصدك على

المبلغ الي أعطيتني إيّاه تبي تتحكّم فيني، تراك غلطان... وبعدين ويش علاقتك بأمين؟

هل أمين عضو في الجماعة؟! حتّى لو كان عضوًا في الجماعة، أنا لازم أعرف ويش هي أهداف الجماعة، وأنا الي أقرّر أتعاون معكم ولا لا... وأنا الي أحدد الأسلوب الي يحقّق الأهداف، لكن تبيني أكون إمعة وأنفذ أوامر ما أدري وين توصلني وتوصلكم... تراك أخطأت علي وعلى نفسك وجماعتك.

قال "ابن عبد الله": يا أخي احنا قلنا لك أهدافنا. قلت: أنت ما قلت كلّ الحقيقة يا "أبو مزبل" لأنّ الشّيء الي تقوله يدلّ على إنك غير واثق فيني، وفي الوقت نفسه تبغانا نعمل مع بعض، وبصراحة أقول لك أنا ما أحب أعمل مع ناس ما تثق فيني، على كلّ حال "أسامة" يحقّق أهدافاً أنا وضعتها لخدمة الجماعة، إذا كانت الجماعة فعلاً تبني وجه الله، أمّا إذا كانت هناك أهداف أخرى، والمنطق يقول إنّها موجودة وإلا ليش هذه السريّة في الاجتماعات الي يبي وجه الله ما يخاف من أحديا "أبو مزبل" ولّا أنا غلطان.

ضحك "محمّد بن عبد الله" عند سماعه اللقب الجديد، وأحسست بخبرتي أنّ النظرات المتبادلة بين "محمّد" و"جهيمان" و"حاشم" كانت حوارًا حول الموافقة.

قال "جهيمان": الظاهر أنّ الأخ راح يوسّع مفهومنا للجماعة. فالحال: الواقع أنّ مفهوم الجماعة أكبر من المعروف أمامي. الأمير: على كلّ حال نبي نسمع منك. فالحال: أنا الي مطلوب هنا عشان آخذ تعليمات أنفذها... ولّا نسيت. جهيمان: أعتقد احنا فاهمين بعض.

فالح: هذا أكيد ومتفقين عليه بعد، بس غير واثقين من بعض، يمكن أنا جريء أكثر من اللازم، إذا كنتم شاكين وخائفين أكون واحدًا من الجهاز ترى معلوماتك تحتاج لتعديل، عمّال الجهاز ما يتعاملوا بهذا الأسلوب، الواحد فيهم يندمج في الجماعة، مطيع وينفذ الأوامر ويتغلغل شوي... شوي، على رأي المثل يتمسكن حتى يتمكن، وعمله كتابة تقارير لرؤسائه فقط. أنا ما ودي أخرجكم أكثر من كذا ومقدّر خطورة القرار بس لما تثقوا فيني بلغوني، وعلى كلّ حال الإشارة وصلت وراح أقوم بالعمل اللي ينفع الجماعة وأهدافها الحقيقية إن شاء الله، وما راح تندموا على ثقتكم فيني بإذن الله.

تعليمات التنظيم واضحة أن أندمج مع الجماعة وأتعرّف على أهدافها الحقيقية غير المعلنة وكتابة تقارير مستمرة عن كلّ اجتماع أحضره، وكذلك كتابة تقارير عن مراكز القوة وعن كلّ شخصيّة منها، وتحليل كامل عن كلّ منهم ومدى ارتباط الجماعة بعضها ببعض، وأحاول أن يكون لي دور قيادي بارز ولكن من خلال اسم حركي ومن خلف الستار.

عندما وصلت إلى مجلس السبعة ثمّ أمين عام المجلس أصبح من حقّي أن أطلع على وثائق أكثر ومعلومات أدقّ، خاصّة تلك المعلومات السريّة عن تكوين التنظيم منذ أعوامه الأولى.

فبعض أعضاء التنظيم شاركوا في بعض الحركات الانقلابيّة، والتي فشلت لسبب أو لآخر أو عدّة أسباب، والأجمل والأكثر إثارة هي تلك الحركة التي حاول أن ينفّذها بعض ضبّاط القوّات المسلّحة، ومنهم "كرم" و"يوسف" و"محمد" و"أبو علي"، كان كرم عسكريًا، وكذلك "أبو علي" الذي يعلوه في الرتبة، أمّا "يوسف" فكان تاجرًا كبيرًا ممولًا وقائدًا شعبيًا مدنيًا، كان كلّ واحد من الثلاثة يريد أن يفتح الاثنين الآخرين بما

يجيش في نفسه، ولكن لم يتجرأ سوى "كرم" ذلك الشاب المتحمس صاحب الصوت الجمهوري والبلاغة في الخطابة والحديث، المطلع والثقّف والذي ساعدته دراسته في الجغرافية العسكرية أو الطبوغرافية، وكذلك دراسته في علم النفس العسكري وإشعال الحماس بين الأفراد بكلمات رنانة جوفاء مثل الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة والتّقدّم أن يتحدّث مع "أبو علي" أوّلاً، وعندما اعتمد موافقته المبدئية وانتهى حذره اعتبرها "كريم" أنها البداية، وعليه تتركب أوّل خلية على أن لا يزيد عدد أفراد التّركيبة عن خمسة أعضاء للخلية الواحدة، وبنوع من الخبث أو عدم ثقة في التّركيبة الأولى والمكوّنة منه ومن "يوسف" و"أبو علي" و"محمد" و"عمر"، كوّن مجموعة ثانية من خمسة أعضاء وهم "محمّد"، "صافي"، "فوزي"، والممّول "مرزوق" بحيث لا تعلم هذه المجموعة عن تحركات المجموعة الثانية في حالة غدر أحد المجموعتين، يستطيع تصفية المجموعة الثانية ببعض عناصر الأولى على أساس أنّ هذه المجموعة من أنصار النّظام أو أيّ اتّهام يمكن أن تتهم به، خاصّة في حالة نجاح قيام ثورة لن يكون هناك رقيب على التّصفيات؛ ولهذا يُقال إنّ الثورة تاكل أبناءها، والحقيقة أنّ الجشع هو الذي يفتك بأبناء الثّورة، وأنّ التّنظيم إذا لم يكن واضحاً ومرتبّاً ومنظّماً من البداية، سوف تكون النتيجة في حالة النّجاح التّصفية الجزئية من قبل رفاق الخندق، وفي حالة الفشل التّصفية الكلية، ولكن من قبل النّظام باعتبارهم خونة أو السّجن حسب الضّرر المرتكب.

طلب كرم من كلّ عضو تكوين خلية من خمسة أفراد على أن لا تعرف الخلية أختها إطلاقاً، وهكذا بدأت تتكوّن الخلايا في أشكال هرميّة وتنتشر بسرعة بين بعض من أفراد القوّات المسلّحة، ولكن انتشارها بين المتعلّمين من أفراد المجتمع أسرع منها بين أفراد القوّات المسلّحة، كانت الثّورات أو

الانقلابات أو الحركات في العالم العربي موضة أو مرضاً معدياً من أمراض العصر في ذلك الوقت، كيف لا وبطل الانقلابات موجود، وقد أخذ على عاتقه تحرير العالم من العبودية والدكتاتورية والتخلف، شعارات بَرّاقة تهرّ مشاعر أيّ إنسان مهما كان ولاؤه، وإن قيل أنّ بعض أبناء الأسر الحاكمة في دول الخليج قد تأثروا بهذه الدعاية إلّا أنّهم أحسّوا بخطورة ذلك على أنفسهم وعائلاتهم ودولهم، وبالتالي انسحب بعضهم في آخر لحظة، وإن تركت شرخاً في بعض العائلات الخليجية إلّا أنّ المال كان له تأثير ساحر في تغطية النار، ولكن لا يزال الجمر يرجل تحت الرماد، والخوف على دول الخليج لأنّها أقرب إلى النار من آبار البترول وهي مادة شديدة وسريعة الاشتعال.

هاجس "كرم" هو الوصول إلى الكرسي... كرسي السُلطة بأيّ ثمن وبأسرع وقت وأقلّ خسارة ممكنة؛ لذا كان عليه أن يتّصل بسفارة إحدى الدّول في جدّة، ويطلب منها مساعدة الثّوار وفصل الحجاز عن بقية أجزاء المملكة، أخذت السّفارة الرّسالة وتمّ تبليغ "كرم" أنّ قائد الدّولة سوف يجيبهم على طلبهم في خطابه القادم للأمة، وسوف يرّد عليهم شخصياً، وما عليهم إلّا انتظار خطاب فخامته الذي سوف يلقيه في الأسبوع القادم. تحدّث القائد وكان "كرم" يتابع الخطاب ودقّات قلبه تتسارع حتّى سمع القائد يقول:

-وإنّنا هنا سوف نقف مع كلّ الحركات التّحريرية والوحدوية في الوطن العربي الكبير، ولكن لن نرضى أبداً بحركات انفصالية، وسوف نقف ضدّ أيّ حركة انفصالية تفصل جزءاً من العالم العربي عن الكلّ العربيّ.

كادت الكلمات تقتل "كرم"، وهو الذي كان يتوقّع أن يوافق القائد على مساعدتهم، وما هو يخذلهم ويطلب منهم إمّا أن تكون ثورة في الجزيرة كلّها أو لا تكون، أمّا تقسيم الجزيرة مرّة أخرى إلى إمارات أو دول صغيرة

وضعيفة فلن يكون هناك أي مساعدة، فكّر "كرم" في تغيير استراتيجيته فعليه الآن تكوين خلايا من المناطق الأخرى وهكذا كان، ولكن صف الضباط في القوات المسلحة الذين وصلتهم حلقات الخلايا لم يستطيعوا صبراً؛ ولذلك اعتقدت قيادتهم أنها تستطيع تنفيذ الحركة بسرعة، ولم يفكّروا في فارق التوقيت بين الرياض وجدة وبين المسافة بين الخرج والرياض والمسافة بين الطائف وجدة، وأنّ طريق الطائف الجبلي يحتاج إلى وقت طويل كي تصل الدبابات إلى محطة الإذاعة والمطار، وإن قام بعض أعضاء التنظيم حسب الخطة بتفجيرات بسيطة هنا وهناك لشغل أفراد الجهاز (وفشلت حركة ضباط الصف)، وكان في فشلهم درس لـ "كرم" الذي كان متواجداً في أحد المصايف المجاورة يتمتع بإجازة، ولم تثبت على "كرم" أيّ تهمة، وطلبَ مقابلة القائد شخصياً من مكان إجازته عن طريق شخصية كبيرة لها اتصال بالقائد في الوقت نفسه، وتمّ ترتيب المقابلة وسافر من مصيفه إلى عاصمة القائد، وسكن في أحد الفنادق وطلبت منه مخبرات تلك الدولة أن يركب في السيّارة الواقفة على الجانب الثاني من الشارع، ويحاول أن يسير في الشارع بهدوء منتقلاً إلى حيث السائق، وإذا وجد أنّ باب السيّارة مغلق عليه أن يكمل طريقه بشكلٍ عاديٍّ ويتصرّف بشكلٍ طبيعيٍّ؛ لأنّه مراقب، أمّا إذا فُتح باب السيّارة ما عليه إلا أن يلقي بنفسه داخل السيّارة وهكذا كان، وبعد دوران في بعض الشوارع للتأكد من أنّه لم يكن هناك من يراقبهم، أخذت السيّارة طريقها إلى قصر القائد ومن بوابة خلفية تمّ إدخال "كرم" إلى صالون صغير عادي الأثاث، وبعد دقائق دخل القائد من باب آخر إلى الصّالون، صافح "كرم" المشدوه... القائد أمامه بشحمه ولحمه، هو والقائد في غرفة واحدة لا يوجد أحد غيرهما، قال القائد: اسمع... الثورة مش لعب عيال... وأرواح الناس مش هدر... دي عايزة تخطيط وإمكانات وتحتاج

لصبر وفرصة سانحة... تفضّل (وقدّم علبة تحتوي على حلوى) أنا مش فاضي، لما تكونوا جاهزين ميه ميه ابدأ... اوعى تلعب بأرواح الناس والرّجال... أنا حاعرف... موفّق... مع السّلامة.

المفاجأة لم تعطِ فرصة لـ "كرم" أن يتحدّث، بل كانَ مثل الطّالب الذي لا يريد أن يقاطع أستاذه، خرجَ القائد وتركه غير مصدّق، كيف لم يترك له القائد فرصة للحديث أو سماع رأيه؟ كان يعتقد أنّه سوف يستمع إلى خطاباتِه الرّنانة وأسلوبه المنع وعلمه الغزير في بحور السّياسة، عقدت المفاجأة لسانه ولم يجد غير شخص يقول له: اتفضّل يا باشا.

سار الشّخص وتبعه "كرم"، وعاد إلى الفندق، وفي المساء جاءه صديق له من زملاء الكليّة الحربيّة، وخرجا للعشاء وقال له بعد العشاء: أنتم عايزين إيه؟

- حكومة في المنفى.

- طيّب بلاش حكومة على طول... ليه ما تعملوا مراكز قياديّة في المنفى أوّلاً، وبعدين اعملوا اللي أنتوا عايزينه.

- صح بس فين؟

- في لبنان مثلاً؟! اليمن؟ عمان ما لها عمان حلوة واحنا لينا نفوذ كبير هناك. شوفوا أيّ مكان له حدود مشتركة معكم إلّا الأردن... احنا ما نحبش اللي عامل لي فيها شريف ومن سلالة النّبي، وابعدوا عن حزب البعث في العراق، يعني ما في غير الدّول اللي قلت لك عليها.

- اليمن... أنا أختار اليمن.

- خلاص على بركة الله... أعمل لك موعداً مع بعض المسؤولين

اليمنيين.

- مع السّلامة.

- مع ألف سلامة.

في اليوم التالي كانت هناك رسالة لـ "كرم" وتذاكر سفر إلى اليمن في مساء اليوم، وسوف يكون في الطائرة شخصية كبيرة.

كانت كراسي الدرجة الأولى لا تتعدى الثانية كراسي، جلس بجوار المسئول اليمني الذي رحّب أيّما ترحيب، وتحدّثنا خلال الرحلة إلى صنعاء في كثير من الأمور، ومنها مقرّ القيادة والتسهيلات، ودراسة الطرق لتهديب الأسلحة للضباط الأحرار، وبناء مراكز على الطرق الوعرة لأعضاء الجمعية للاستلام والتّخزين والتوزيع حسب التّعليمات من القيادة، مكثّ هناك أكثر من أربعة أشهر يعدّ المكاتب والنّظام ويدرّب الأفراد، وبعد ذلك سافر إلى لبنان، وبالرّغم من أنّ مقرّه معروف ويتواجد فيه طوال الوقت إلّا أنّه ينام في أحد البنسيونات المتناثرة، وببطاقة مزوّرة وملابس رثّة وكأنّه سكّير فاشل.

بدأ يعمل ويستقبل المعارضين للنّظام ويأخذ أخبارهم، وكانت التّقارير تصله أوّلاً بأوّل، وبالذّات تقارير الأسلحة والتّدريب والرشاوي والفساد والخلافات، ذكر "كرم" في مذكّراته أنّ الملك طلب منه العودة، ولكنّه رفض، وقرأ عرض (الملك) بطريقة خاطئة، وأنّ الملك خائف وأنّ المناوئين والمعارضين للنّظام كثروا وأصبح لهم تأثيرهم؛ ولذا يجب عدم السّماح لهذه الفرصة أن تتحوّل إلى مهاترات واتّفاقات نهايتها سجنه هو والقيادات الأخرى بعد إضعافهم... إذاً يجب عليه التّحرّك السّريع والقيام بالثّورة بأسرع وقت... وبعد أسبوع من العرض الأوّل وصله مندوب الدّيوان يطلب منه العودة إلى الوطن وإلّا؟

ردّ "كرم": قل للمسئول اللي بعثك أنّ "كرم" سيعود عندما يطلب منه المواطنون العودة ليرأس دولتهم... وإلّا لن يعود.

كانت الحفلة في عاصمة اللهو والجاسوسية العالميّة (بيروت) في ذلك

الوقت صاحبة... الخمر والنساء والرقص، وفي وقت شروق الشمس كان المكان خاليًا، إلّا من آثار الحفل. وفي مطار بيروت الدّولي كانت إجراءات خروج تابوت لمتوفّ وافته المنيّة في إحدى مستشفيات العاصمة اللبنانيّة، ومراسم الحزن على عائلته ومرافقيه تبدو ظاهرة للعيان، حتّى إنّ زوجته من هول المفاجأة سقطت على الأرض مغشيًا عليها، انحنى مندوب من السّفارة يرتدي الثّياب السّوداء وربطة العنق السّوداء لمساعدتها مع عامل من عمّال الخطوط، وقف لتوديعهم الوداع اللائق على الرّحلة رقم صفر ثلاثة وعشرين على خطوط طيران الشّرق الأوسط والمتّجهة إلى جدّة لم يكن في التّابوت سوى "كرم" الذي تمّ تخديره في الحفل ومن ثمّ وضعه في التّابوت، وبعد ساعات كان في المعتقل في الرّياض، واتّهم زميل ورفيق كفاحه أبو علي وألّقي القبض على "صافي" و"محمّد" و"وصفي" وآخرين، ولكنّ "فوزي" الذي كان حاضرًا في حفلة بيروت ولم يسكر يُقال إنّهُ تمّ اختطافه من قبل بعض من عناصر الـ K.G.B. (الاستخبارات السّوفيّتيّة) التي قامت بتفريجه إلى مكانٍ ما، ومن ثمّ إلى موسكو ولم تسمع أخباره، وصُعقت بيروت خاصّة بعض وكالات الاستخبارات الأجنبيّة التي كانت تتبع "كرم" من غيابه المفاجئ وسط غابة من الجواسيس والعملاء الذين لم يعرفوا إلّا بعد أن تمّ اعتقال البقيّة الباقية من المخرّبين في رأي النّظام... الضّبّاط الأحرار أو رجال الثّورة في رأي المؤيدين، وانتصرت المخابرات السّعوديّة واحتفلت بانتصارها في حفل مبسّط وبتواضع تام.

قرأت النّقاري كلّها عدّة مرّات، وفي كلّ مرّة أصل فيها إلى درجة أعلى في التّنظيم كنت أقرأ، أطلع، أتعلّم، أناقش، أفكر، أربط، أحذف وأضيف. تركتُ منزل صديقي، حيث الشّلّة في تلك الليلة من ليالي الشّتاء الجميلة في مدينة جدّة، واتّجهت نحو الكورنيش وأوقفت سيّارتي، ترجّلتُ وسرحتُ

بذهني وأنا أنظر إلى فراغ المدى في عمق اللانهاية وأنغام متكررة تصفع الأذن وتلطم اليابسة، موسيقى الحياة، تداعب الشواطئ الصخرية عندما تكون راضية عنا، وتزجر وتضرب شواطئها بقسوة وعنفوان عندما تغضب علينا؛ لتثبت لنا قدرتها وقوتها، إنها الطبيعة الأم، وتذكرت علاقتي مع الجماعة، وبالذات مع "جهيمان" الذي لقي مصرعه هو والأمير... أمير الجماعة، وحفنة من الرجال، لو أن "جهيمان" أصغى إلي... لو ناقشني أكثر... لو أن الأمير فهم خطتي بعد أن أستمع إليها لو... لو... كثيرة هي الأخطاء، ولكن كلمات القائد لـ "كريم" كانت صادقة (الثورة ليست لعب عيال وأرواح الناس مش بعزاة).

وكتبت في مذكرتي: الثورة تحتاج إلى عناصر، أهمها: تهيئة الرأي العام كمساندة داخلية، التدريب الكامل، عنصر المفاجأة والضرب بسرعة، السيطرة على شبكة الاتصالات والمطارات والإذاعة والتليفزيون ومحطات الكهرباء ومحطات تحلية المياه، والسيطرة التامة على مستودعات وزارات الدفاع في الخرج، الداخلية، الخارجية، التحكم في وسائل الاتصال وفتح قناة واحدة لتواصل أفراد الجمعية مع قياداتهم والقيادات مع القيادة العليا، حماية السفارات الأجنبية والجهات الدبلوماسية، المساندة الخارجية... دولة عربية كبرى على الأقل مع دولة أجنبية، ويستحسن أن تكون أوروبية، مساندة مع دولة إسلامية ويستحسن أن تكون إيران أو تركيا.

إيجاد كوادر بديلة للعمل القيادي في الوزارات والمؤسسات وتوزيع الوزارات على كبار رجال الثورة حسب التخصص، إيجاد برامج تنمية سريعة تجعل المواطن يحس أن هناك تغييراً فعلاً.

كنت أطرح برنامجي، و"جهيمان" يطرح برنامجه، اجتمع المجلس الأعلى للجماعة لأكثر من يومين يستمع لشرح خطة كل منا وضللوا من حيث

تركيزهم على الآتي: الناحية الاقتصادية والتكاليف.

يجب أن يكون التوقيت أول يوم من أيام القرن الهجري الجديد؛ لأنّ الإشاعة التي هربها "جهيمان" وصدّقها بعد أن سمعها أنّ المهدي سوف يظهر أول القرن جعلته يظنّ أنّ المواطن في الجزيرة على استعداد أن يقف مع المهدي المنتظر، ويحارب في صفّه في الوقت الذي تجري فيه الثروة ويجري خلفها الأكثرية من الناس، ولا يوجد أي سبب علمي يؤيد هذه النظرية.

الحكومة نائمة في العسل، والطفرة الاقتصادية جعلت الكبير والصغير يجري وراء الثروة غير آبه لما يحدث، وهذه النظرية قد تكون فيها الكثير من الصّحة، وعندما أثبت لهم عملياً أن لا أحد يهتم هذه الأيام إلا بالرشوة والجري خلف الدّراهم، ولكنّ خطورتها أن لا أحد يتحرّك وهو شبعان وهذه طبيعة البشر.

انتقد كلّ منّا خطة الآخر وحاربها بكلّ الطرق، واعتبر كلّ واحد منّا أنّ هذا الكلام مضيعة للوقت، وأنّ ما يطلبه الآخر أكبر من قدرات الجماعة.

فالح: ولكن يا "جهيمان" وأنت مسئول عن قائمة المؤيدين والمتردّين، يقول تقريرك أنّ هنا أكثر من أربعة آلاف مقاتل وعشرين ألف متطوّع يحمل السّلاح، ومثلهم مساندون أو خدمات مساندة، وأنا وضعت خطتي حسب المعلومات التي أنت معطيني إيّاها، أنا ما جبت شيئاً من عندي.

جهيمان: وأنت تبي توزّعهم وتشتتهم على المملكة كلّها ليه؟ المسألة يا جماعة الخير ما تتعدّى احتلال الحرمين وخروج المسلمين من المساجد، ونسلم السّلطة، الشعب كلّه راح يساندنا، والعالم الإسلامي كلّه راح يوقف جنبنا.

فالح: يا حبيبي يا خوي صحيح أنت في جهاز عسكري بس المسألة ليست بهذه البساطة من الناحية السياسيّة، وربتك العسكريّة ما أظنّ تسمح

لك بوضع أرواح الناس على كفّ عفريت، وتعتقد أنّ المسألة نزهة في الحرم أو الحرمين فقط، طيب انظر للصّورة من النّاحية الثّانية، للصّورة عدّة أبعاد يا جماعة الخير.

جهيمان: هؤلاء جنود الله، وليس لهم في الحياة من شيء، لا يريدون أكثر من الشّهادة، أنت خطّنتك راح تفضحننا أوّلاً... دولة عربيّة مساندة... هو في دولة عربيّة راح تحافظ على سرّنا هذا إذا ما باعنا بناقلتين نفط. ومسكونا كما الغنم ودولة أجنبيّة... (ضحك) وسدّ طرق وشوارع يا رجال ما عندك أحد... ترى كلامك صحيح لو أنت تتعامل مع ناس صاحبة يا حبيبي الطّاسه ضايعة، صدّقني ما عندك أحد، ترى حتّى أفراد القوّات المسلّحة متذمّرين.

فالح: المعلومة هذه تحتاج لتأكيد أكثر، ترى يا جماعة الخير ما كلّ ما تشاهده هو الصّواب، النّفس البشريّة عميقة.

جهيمان: أظنّ الأخ بدا يخرف يا جماعة الخير لما قرب الموعد، وأنا ما ألومه، ترى الكلام في البراح حلو بس وقت الله... الله ترى في ناس تخرف.

فالح: العاطفة والحماس... يا جماعة الخير ما تؤدّي إلّا لنتائج وخيمة، والأخ جهيمان يعرف أكثر منكم من أنا، وإنيّ ما أخاف حتّى لو كنت على جبل المشنقة، لكن أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، الجميع استمع لنا نحن الاثنين وقرأ الملفات وتأكد من كلّ شيء، ما بقي غير التّصويت، بكرة يوم تسعة وعشرين رمضان بعد صلاة التّهجد نجتمع ونقرّر، وبالفعل وافق الجميع على خطّة "جهيمان" ما عدا "مساعدة" وأنا، أمّا الخمسة الآخرون بقيّة أعمدة الجماعة السّبعة فقد صوّتوا لخطّة "جهيمان".

وقبل صلاة الفجر كنّا السّبعة برداء الإحرام عند الملتزم، وبيد كلّ واحد كفن، أمّا المصحف فقد حمّله القحطاني، إنّ هذا الأمر قائم ولا رجعة فيه حتّى

لو كلّفنا ذلك حياتنا، وبعد العيد صدرَ القرار الأميري التّالي:
نحن "محمّد بن عبد الله" أمير الجماعة، وبعد الاستماع لأعمدة الجماعة
السّبعة قرّرنا ما هو آت:
يعيّن "جهيمان" قائداً عامّاً لقوَّات الجماعة التّنفيذيّة ومشرفاً على مسرح
العمليّات.

على الجميع تنفيذ أمرنا هذا.

وصدر القرار التّالي:

نحن "محمّد بن عبد الله" أمير الجماعة قرّرنا ما هو آت:
تعيين الشيخ "الفارابي" مستشاراً خاصّاً لنا، وتسليمه مكتبنا والقيام
بالمهام المذكورة في المذكرة المرفقة.
على الجميع كلّ فيما يخصّه تنفيذ أمرنا هذا.

"الفارابي" لقب اخترته في الجماعة، بعثت تقرير الاجتماع للتّظيم، وبعد
عدّة أيّام أبلغت رسميّاً أنّ التّظيم سوف ينتهز فرصة قيام الجماعة بحركتها
ليقوموا ويستولوا على السّلطة، وحيثُ إنّ وضعي لا يسمح لي بمقابلة
الرّعيم في ذلك الوقت، ولا أعرف من هم أعضاء المجلس الأعلى، والأمين
العام هو فقط حلقة الوصل وليس مباشرة أيضاً بل عن طريق الرّسائل، فما
كان منّي والحالة كهذه إلّا كتابة هذه الرّسالة.
مع التّحيّة:

الثّروة مفسدة... فأعطي مجالاً للفساد لكي تأتي الثّورة لتصحيح الفساد.

تحيّات المخلص

في آخر يوم من أيّام شهر ذي الحجّة كانت الرّحلة ٨٨٨ على الطّائرة
البريطانيّة تغادر ميناء جدّة الجوّي الدّوليّ متّجهة صوب مطار هيثرو بلندن،
وكان على المقعد A1 مدير عام وعضو مجلس إدارة شركة للتّجارة المحدودة،

يقرأ صفحة البورصة والأسهم العالمية، أمّا جواز سفره فيقول في خانة الاسم إنه "فالح نائر الفالح". كنت أنظر إلى ساعتني وأحدّث نفسي... لم يبق سوى ساعات ونصل إلى لندن عاصمة الضباب، وبعد أن أنام وأرتاح سوف أستمع إلى نشرة الأخبار، ولن يفاجئني إذا سمعت أن الجماعة قد نجحوا في مهمّتهم، أو أن هناك معركة دائرة بين الطرفين، ولكن سوف تطعني المفاجأة إذا لم يكن هناك خبر على الإطلاق من هذا النوع. وعكس ما يقول الخواجات NO NEWS GOOD NEWS الحقيقة في وضعي الحالي BAD NEWS، وهكذا انصرفت للقراءة في بعض أوراق وتقارير الشركة الماليّة، خاصة تلك التقارير التي تخصّ فروع الشركة في أوروبا وقائمة التغيّرات الإداريّة والتنقّلات التي سوف تتمّ خلال الثلاثة أشهر القادمة؟ وكيف أنني سوف أتلقي الكثير من المكالمات والتوصيات عن فلان، حفظت برنامج الاجتماع الذي سوف يتمّ في لندن وبرنامج زيارتي لباريس وكوبنهاغن وسبب لقائي مع رجل الأعمال العربيّ الأصل الألمانيّ الجنسيّة إبراهيم فيشنز في مدينة شتوت قارت.

القلق يضغط عليّ، خاصّة أنّ معظم من في الطائرة، وبالذات ركّاب الدّرجة الأولى استسلموا للنّوم، ولولا صوت الطائرة لسمعت سيمفونيّات بيتهوفن وموزارت وباخ وكلّ العظماء مختلطة في شخير هؤلاء المزعجين، أكلت أكثر من مرّة، طلبت قهوة أكثر من مرّة، دخلت الحماّم أكثر من مرّة، تلمّلت... تحدّثت مع المضيفات... تعب المضيفون والمضيفات، ولكنّ التّعب لم يعرف طريقاً نحوي، اعتقدت أنّ المسافة بين جدّة ولندن قد كبرت، قدّمت لي "جورجينا"، وهذا هو اسم المضيّفة التي أتحدّث معها معظم أوقات الرّحلة، طعام الإفطار مع ابتسامة أحّاج إلى مثلها في هذا الوقت المقلّق، وهمست في أذنها باسم الفندق دورشيستر هوتيل واسمي، وطلبت

منها الاتصال إذا أرادت أن تسهر سهرة معتبرة في لندن على حسابي الخاص، ولكن يجب أن يكون الموعد مبكراً حتى لا أرتبط مع شخص آخر.

كانت الإجراءات النظامية وعدد الركاب في مطار لندن يؤديان إلى الملل، ولكن عندما اقترب مني أحد الإخوة العرب الذين يعملون في العلاقات العامة التابعة للخطوط الجوية السعودية، أدخلت يدي في جيبتي وأخرجت ورقة من ذوات الخمسين جنيهاً، ووضعتها في الجواز وتسمتُ محيياً إيّاه وهو لا يعرفني قط ولم أره من قبل، ولكن من طريقة نظرات ذلك الرجل وبفراستي المعهودة عرفت أن نظرية (لا يُخدَم بخيل)، وقاعدة عربميدس (ادهن السير يسير) يمكن تطبيقها في أي مكان قد يجعل الماكينة تدور بدون صوت وبسهولة، وأعطيته الجواز وعندما لمح الرجل المبلغ سحبتني من الصف، خاصة أن مظهري يدل على أنني من الـ V.I.P. وتعني VERY INTENSIVE PAIN وليس Very important person ولم تمض دقائق حتى كنت ألقى بجسدي على مقعد السيارة الدملر التي استأجرها مدير فرع الشركة لسعادتي (هل الفساد عالمي أم أننا نحن العرب نصّدر الفساد للعالم).

دعك من المثاليات وكُن رجلاً عملياً واقعيّاً، المهم تقضي حاجتك. كانت لندن في هذا الوقت من السنة كئيبة حزينة، فالأشجار بعد أن سقطت أوراقها تبدو عارية كالحقيقة المرة التي نبحت عنها وعندما نجدّها نبدأ في تحريفها، نشوّها، نغيّرّها، نحوّرّها ونشكّلها حسب أهوائنا، ومن ثمّ تضع الحقيقة فنبحث عنها من جديد، حلقة مفرغة في نفس بشرية خاوية تبحث عن لا شيء في فراغ الكون. الأشجار العارية كأشباح هتشكوك في أفلام الرعب، هذه الأشجار بلونها الشاحب عارية من ورقة التوت التي تستر عورتها واقفة بائسة تتلقّى صفعات الطبيعة وغضبها منها، كامرأة

خانت أنوثتها وإنسانيتها وسيطرت عليها حيوانيتها وشهوتها، وعندما بردت مفاصلها وقفت تنظر إلى نفسها في المرآة وتلعن وتحتقر سقوط ورقة التوت التي كانت تحمي كرامتها.

تلك الغيوم التي تحوّل لون السماء من الأزرق الجميل إلى لون ترابيٍّ رماديٍّ كئيب، خاصّة إذا أتيت إلى لندن وفي ذهنك ما أحمله من أفكار ووساوس، وبالفعل ترى سيّارات الأجرة وكأَنَّها سيّارات لنقل الموتى المتجمّدين، ولكنّ موتى لندن يتحرّكون في جمود ووجوه باهتة، وكأَنَّهم خرجوا لتوهم من قبورهم ويسرعون في ركوب السيّارات لزيارة أهلهم، ومن ثمّ العودة إلى قبورهم مرّة أخرى قبل أن تنتهي فترة الإجازة ويتعرّضون بعدها إلى العقاب أو خوفًا من الأحياء أن يحتلّوا قبورهم كما حدث في بعض المدن المكتظة بالسكّان.

السّاعة تقترب من الثّانية عشرة والنّصف ظهرًا بتوقيت لندن من يوم الثّلاثاء الأوّل من محرّم ١٤٠٠ هـ عندما أُلقيت بنفسي في الجكوزي الرّخامي في النّادي الصّحيّ التّابع لفندق الدّورشيستر، وقد تحرّرت من جميع ملابسني غير آبه بذلك الرّجل الأسود الذي كان يشاركني الاسترخاء.

لم أتحّدث كثيرًا ولكن عرفت من حديث الرّجل أنّه من الزّنوج الأمريكيين، وعرفته أنّني سعودي، وبعد أن دخلت إلى حمّام البخار ومن ثمّ إلى غرفة الأشعة فوق البنفسجيّة، وسلّمت جسدي لذلك السّرير المائيّ، لم أفق إلّا على صوت الأمريكيّ الأفريقيّ وهو يقول لي: قلت لي إنّك سعودي! - نعم!

- الأخبار في بلدك... أعتقد أنّ هناك مشاكل...

تظاهرت بعدم الفهم...

قفزت من السّرير ورسمتُ على وجهي الإزعاج، واتّجهتُ إلى الدّش

واستحممت بلذّة المغامرة، وبسرعة تركت النّادي الصّحّي وصعدت إلى غرفتي، وجدتُ رسالتين: الأولى من مدير الفرع في لندن ويطلب منّي الاتصال ضروري، أمّا الثّانية فكانت من جورجينا التي سوف تتّصل لاحقاً. حاولتُ الاتصال بمدير الفرع في المكتب وفي المنزل ولم أفلح، تركتُ له رسالة على آلة التّسجيل وطلبتُ منه أن يتّصل بأسرع وقت.

استلقيتُ على السرير مثلما ولدني أمّي وفتحتُ جهاز التّلفزيون على محطة الـ B.B.C. وانتظرتُ الأخبار، وعندما سمعتُ أنّ الأخبار غير الرّسمية تقول إنّ هناك بعض المتسلّين في الحرم المكيّ، وأنّ المملكة العربيّة السّعوديّة لم تصرّح بأيّ خبر رسمي حتّى الآن، ولكن مصادر الـ B.B.C. تؤكّد أنّ هناك شيئاً ما يحدث هناك، وكنتُ متأكّداً أنّ الخبر صحيح مائة في المائة، حاولتُ التّوم بعد أن استخدمتُ حبة من حبّات النّوم واستيقظتُ على صوت الهاتف، كانت السّاعة تشير إلى الثّامنة والنّصف مساءً، وكان صوت مدير الفرع في نهاية الخطّ يعتذر عن الإزعاج: سمعت الأخبار؟

فالح: سمعت بس ما فهمت... كيف حصلت الـ B.B.C. على الأخبار، ولم يصدر بيان رسمي من مسؤول عن الخبر؟! مدير الفرع: تعرف المسؤولين في وزارة الإعلام، هذا إذا ما نفوا الخبر من أصله.

فالح: الله يستر.

مدير الفرع: أنت جالس في الفندق ولا خارج.

فالح: والله ما ني عارف.

مدير الفرع: اتّصلت بالوالدة في مكّة أو أحد من الأهل عشان تطمئن؟

فالح: لا... والله.

مدير الفرع: يا قلبك يا أخي... أظنّك من جماعة يا خبر اليوم بفلوس بكرة ببلاش.

فالح: على رأيك... يعني احنا راح نعمل إيه؟

تركت الفندق السَّاعة الحادية عشر مساءً، وغبْتُ في ظلمات ليالي لندن الشهيرة، شرب ورقص وعدت بعد أن أشرقت الشَّمس من صباح اليوم الثاني، طلبتُ من خدمة الغرف عدم الإزعاج، ووضعت علامة عدم الإزعاج على باب الجناح، وطلبت من عامل السَّنترال عدم إزعاجي ونمت حتَّى السَّاعة الثَّانية عشرة من ظهر اليوم التَّالي، اتَّصلت بمدير الفرع سألت: هل هناك أخبار؟

مدير الفرع: الأخبار تؤكِّد وجود مجموعة مسلَّحة في الحرم.

فالح: ماذا يريدون؟ ما متطلَّباتهم؟ كيف تمَّ التَّعامل مع المشكلة؟ أبي أخبار...

مرَّت الأيام ثقيلة مملَّة بطيئة كثيبة حتَّى في اجتماعاتي كانت معظمها تتحوَّل إلى حديث عمَّا يجري في مكَّة، وماذا عن بقيَّة المدن؟ وأين هي خطَّة "جهيمان"، أمَّا وبعد أكثر من ثلاثة أسابيع تقريبًا وعندما كنتُ في شتوت قارت الألمانية مع برهام فيشرز، وفي المساء على العشاء قال برهام إنَّ القوَّات السَّعودية تمكَّنت من السَّيطرة على الموقف، وإنَّ هناك رجل يُدعى "جهيمان" قد قبض عليه، وآخر يُدعى "محمَّد بن عبد الله" قد قُتل وأنَّ هناك بعض القتلى والجرحى من الطَّرفين، كاد قلبي أن ينخلع عندما سمعت الأخبار من برهام، أنظر إلى عينيه أريد أن أتوسَّل إليه أن يقول شيئًا غير ما ذكر فأنا لا أعرف الألمانية، ولكن عندما شاهدتُ صورة "جهيمان" في يد المذيع السَّعوديَّ كاد أن يُغمى عليَّ، تركتُ "برهام" والعشاء واتَّجهتُ إلى الفندق، أغلقتُ الباب واتَّجهتُ إلى الحَمَّام وفتحت الماء وأخذتُ أبكي وأبكي كالأطفال. لماذا لم يوافقوا على خطَّتي؟

"جهيمان" هائم، حالم، ولكنَّ اللوم كلَّ اللوم على الأمير حتَّى بعد القسم

عند الملتزم، وعندما التقينا في النمسا في المنتجع الخاص بالأمير، وذلك في شهر شوال تحدّثنا طويلاً عن الخطّتين وخطورة الموقف على الجماعة في خطّة "جهيمان"، ولكنّ الأمير كان مؤمناً به وبخطّته، ولكن لا يريد أن يخسر أحدًا منّا، ومكثنا خمسة أيّام في نقاش يوميّ، وفي اليوم السادس حضر "جهيمان" وتناقشنا حتّى في فلسفة الثّورة قال:

- الثّورة الشّعبيّة هي الثّورة الحقيقيّة والشرعيّة.

فالح: هذا الكلام ظاهرة صحيح، ولكن حتّى الانقلابات العسكريّة تأخذ وضع الشرعيّة، وهي حقيقة نقول عنها في البداية (انقلاب)، وبعد فترة ومع التّكرار الإعلامي وإقناع الشّعب أنّها ثورته ثورة الشّعب وأنّ الشّعب فوّض حتّى لو لم يفوّض رسمياً.

جهيمان: انظر للثّورة الإيرانيّة... خروج الشّعب كلّ الشعب ضدّ الشّاة وجيش الشّاة.

فالح: يا أخ اتركنا من التّشنّج... المهمّ التّناج... الشّعارات اليي تردّدها... القرار خطير... ومصير أرواح ناس... وبعدين خليّ نظرتك مستقبلية لو نجحت في مخطّطك، والاحتمال الثّاني الفشل كما ناقشنا من قبل، الفشل يؤدّي إلى قوّة الخصم وهذه هي ردّة الفعل العكسيّ.

جهيمان: يا أخ فالح ترى دراستك وعمق دراستك في علم الاجتماع واهتمامك بالتّفاصيل... من يهتمّ بالمجتمع ككلّ لو خرج الشّارع السّعوديّ يُطالب بتغيير النّظام، لن تستطيع أيّ قوّة في العالم الوقوف ضدّه.

فالح: وقف... وقف عند هذه الجملة... اسمع يا الأمير ويش يقول أوّلاً الشّارع السّعوديّ... هذا رجل يريد تغيير النّظام لا يزال يردّد شعار النّظام بدل ما يقول أبناء الجزيرة، أنت يا أخ لاتزال تعترف ضمناً أنّك سعوديّ أيّ موالٍ للأسرة أيّ موالٍ للنّظام. هذا أوّلاً... ثانياً: ويش لون تبي الشّارع كلّ

يتحد. ثالثاً: الوقت الرَّاهن وقت قروش وجماعتنا جوعانين من زمان وودّك في هذا اليوم يوم تمطر السّماء ذهب، وتيجي في هذا اليوم تقول لهم اتركوا الذهب وتعالوا خلفي؟ مَنْ أنت؟

جهيمان: يا أخي شف آية الله الخميني وثورة إيران.

فالح: يا أخي الكريم... أنت ما أنت الخميني، والشعب هنا ما هو شعب إيران، الإيرانيون الغالبية منهم على المذهب الشّيعي، والشّيعية كما هم معروفون لهم مرجعية... منظّمون، نحن أهل السّنة ما لنا مرجعية والشيوخ ما هم مثل الشّاة، شيوخنا أكثر من شاة، المقارنة هنا خطأ وظالمة للطرفين، وبعدين القوّة العالميّة هي الي تحرك الموضوع، الخميني جاء من فرنسا، وبعدين إيران راح تعاني في المستقبل لأنّ المواطن في أيّ دولة في العالم يمكن ينجر لأيّ قيادة لا يعجبها شيء يستغلّها ويحرّكها، أو يسبّب فوضى مظاهرات وقاتل ودم وسجون، وتكره النّاس الثّورة أكثر... وتتمنى يوماً من أيّام الماضي لا... لا... لا، أو أنّ الحكم باعتبار أنّ الثّورة من الشّعب ويتمادي في الدكتاتوريّة وظلم النّاس، وكأنّك يا أبو زيد ما غزيت...

جهيمان: إذا ما نغامر... ولا نحارب الظّلم... ولا شيء... نجلس مثل النّساوين ننتظر.

فالح: أنا ما قلت كذا... وقلت لك ألف مرّة استفزاز النّاس ما يؤدّي غير للشّر... أنت حرّ، إذا تريد تهلك نفسك، بس ربّعك والنّاس الي آمنت في مقدرتك وكفاءتك وسلّمك رقابها... ترى الرّجال ما هم بالرّخص الي أنت حاططهم فيه، فكّر وخلصنا نفكّر، احنا اليوم لنا أكثر من سبع سنين، واحنا نخطّط وندرس وندرّب ونغيّر ونحضر ويمكن أنت والأمير قبل كذا بكثير، لكن الحكاية الآن دخلت في الجدد عشان كذا يجب أن نكون أكثر حرصاً على أرواح الرّجال الي معانا، ونضرب ضربتنا عندما نكون

مستعدين وجاهزين على الأقل تكون فرص نجاحنا أكبر من الآن.
جهيمان: أنت وقعت على القرار، وأنا ما عندي استعداد أراجع.
فالح: ولا أنا ما عندي استعداد للتراجع، ولكن يجب تأجيل التنفيذ فقط.
أنت القائد وأنت الكل في الكل إذا كانت العملية عملية مناصب الأمير هو
رمزنا وأنت القائد بس فكر (في العجلة الندامة).

وتعانقنا عناقاً حاراً، ولكن ليس بحرارة العناق التي أشعر بها، وهي
تسري في عروقي حاراً صادقاً قبل سفري، اجتمعنا السبعة وودّعنا بعضنا
البعض الوداع الأخير، وكان كلُّ منا يحمل كفنّاً أبيض وضعناها جميعاً قرب
سرير الأمير ووضعنا عليها المصحف وتعانقنا... تركتهم وكنت أقود سيّارتي
في شوارع جدّة بعد أن تركت مكّة، وعندما أدّرت مؤشر الرّاديو كانت شادية
تغنّي بصوتها الحزين:

وكانت ليلة أحلى ليلة

بس يا خسارة ساعتها

ألبي كان حاسس ليلتها

إنّ الليلة دي آخر ليلة

بكيت كثيراً في حمّام الفندق من هول المفاجأة، ولكنّي استعدت شيئاً من
لياقتي، واتّصلت ببرهام أعتذر منه وأبلغته أنّي مضطر للسّفر الآن لظروف
خارجة عن إرادتي، حاول برهام تقديم أيّ مساعدة، ولكنّي رفضت كلّ
المحاولات وألقيت بنفسي في السيّارة الأجرة التي أفلّتني إلى محطة القطار،
وبعد أقلّ من ساعة كنت في القطار المتّجه إلى جنيف، وبعد أن وصلت محطة
القطار في جنيف اتّصلت بالحارس الإيراني الأصل النّمسائي الجنسيّ لمنتجع
الأمير، وطلبت منه أن يبعث لي السيّارة على المحطّة؛ لأنّي في طريقي إلى
المنتجع، وبعد ساعة تقريباً كان الحارس والسيّارة وأنا متّجهين صوب

المنتجع، عندما دخلت إلى الصَّالة طلبت من الحارس إيقاد نار المدفأة، وطلبت من السائق الذهاب لإحضار مدام قاروتي الإيطالية من منزلها لتعدّ العشاء حتّى لو كان الوقت متأخراً بعض الشيء، لم يكن مستغرباً فهذه عادتنا عندما نأتي في أيّ وقت، ونطلب ما نشاء ونأمر وعلى الجميع السَّمع والطَّاعة، خلعتُ ملابسي ولبستُ الثَّوب المغربيّ وحملتُ الأوراق التي كانت في الخزانة الحديد داخل غرفة نوم الأمير، وأخرجتُ من حقيبة كانت معي بعض الأوراق، وأخذتُ أتسلى بقراءتها بالقرب من نار المدفأة، بينما الحارس الأمين يعدّ لي كأساً من البكاردي، وبعد ذلك استمعتُ إلى شريط لطارق عبد الحكيم:

أهيم بروحي على الرّابعة

وبعدها أغنية طلال مداح:

وطني الحبيب وهل أحبّ سواه

منذُ الطفولة قد عشقت ربوعه

كانت الدّموع تنهمر من عيني في صمت، ولم أستطع أن أنام ولكنني لم أبلغ الحارس أو السائق أو حتّى مارجريت عن أيّ شيء، بالرّغم من أنّها سألت عن الأحداث والأمير.

غادرت المكان بعد أن تأكّدت أنّ جميع أسرار الجماعة قد وضعت بطريقة لا يستطيع أحد أن يعرف منها شيئاً إلّا مَنْ يستطيع أن يفكّ رموزها، وأنا إذا كُتبت لي الحياة وعدتُ مرّة أخرى، وكانت هذه هي المهمّة التي كلفت بها. وضع الحكومة الجديدة وحقائب الوزارات واسم كلّ وزير ومسئول في العهد الجديد الذي لم يولد بعد، قد لا يكون آن الأوان بعد، ولكنني لا أزال ألوم الأمير و"جهيمان" على رفض خطّتي لو... لو... إن لو تفتح عمل الشيطان.

كانت الرحلة من جنيف إلى باريس ومنها على الخطوط السعودية إلى جدة، في مطار جنيف استلقيتُ على أحد كراسي صالون (العناية بالأظافر والوجه والشعر)، وبعد أن قامت العاملة على المحل بتنظيف وجهي، بعد أن قامت أخرى بحلاقة ذقني وشاربي فبدوتُ وكأني ابن الخامسة عشر، خاصة بعد أن صففتُ لي شعري بطريقة تجعلني أقل من عمري بكثير، أمّا ملابسي فكنت قد اشتريتها من أرقى مصممي الأزياء، يُساعدني في ذلك حشوة جسمي المتناسق، وماذا لو أن أحد الأعمدة الباقية بقي على قيد الحياة؟ هل سوف يعترف عليّ؟ هل سأجد في استقبالي رجال الجهاز؟

صحيح أنني قمتُ بالاتصال بمدير علاقات الشركة؛ لكي يستقبلني في المطار، وأعطيته رقم الرحلة ووقت الوصول، هل عرف الجهاز بذلك؟ عندما فتحت أبواب الطائرة في مطار الملك عبد العزيز في مدينة جدة كنت من أوائل من يُغادر الطائرة، ومن الباب الأيمن منها باب الـ V.I.P. كانت عيناى تبحثان عن رجال الجهاز، هل هم متخفون في ثياب مدنيّة؟ أم عمال الخطوط؟ أم عمال الصيانة والنظافة؟!

كنتُ واثق الخطوة أمشي ملكاً، ولم تكن غير الرطوبة، ومدير العلاقات العامة للشركة في استقبالي، لم أتحدث إطلاقاً؛ فأنا متأكد أن هؤلاء السائقين دبائيس الجهاز، وفي مكثبي في اليوم التالي وجدت رسالة من أمين عام التنظيم تقول:

فالح

بعد التحيّة

الحمد لله على السلامة

شكراً على النصيحة، تمّ تعيينك مستشاراً في لجنة المستشارين، سوف

يصدر قرار بترقيتك، ابسط يا سيدي... أصبحت النائب الأول لرئيس الشركة، الجميع مبسوطون منك ويهدونك السلام.

الأمين العام

طلبتُ عقدَ اجتماعٍ مع مديري الإدارات بعد ظهر اليوم، وبالتحديد الساعة الثالثة بعد الظهر، لمناقشة ما تمَّ في الرحلة وكيفية التعامل مع الوضع الجديد في فروع الشركة في أوروبا ومديري الفروع الجدد، وأنَّ التغيرات سوف تتمَّ كلَّ أربعة سنوات، أو حسب ما تراه الشركة من مصلحة عامة. سأل فواز: والمصلحة الشخصية!

فالح: مصالح الفرد يجب أن تذوب في مصلحة الجميع.

فواز: سياسة هذه أم مبدأ؟

فالح: سياسة الشركة.

فواز: ولكن مع احترامي... هذه سياسة خاطئة.

فالح: كيف؟ ممكن توضِّح لنا أكثر؟!

فواز: سياسة غير منتجة بل بالعكس تؤدِّي إلى لفساد، وطالما أنا راح أتغيَّر بعد أربع سنوات يجب عليَّ أن أنتبه لمصلحتي ومصلحة أولادي؛ لأنِّي من غير المعقول أجلس أربعة سنوات في باريس وأولادي يتعلَّمون الفرنسية أو يا دوب بدءوا يتعلَّموها ألاقي نفسي في لندن أو روما أو بون.

فالح: يعني المسألة مسألة لغة وبس.

فواز: لا... يا طويل العمر حتَّى من الناحية الاجتماعية في ناس ترى ما تحب تتنقَّل مثل البدو الرُّحَّل، لا لهم جار ولا ولاء لأرض.

فالح: يعني السعودي اللي عايش في لندن يحبَّ لندن أكثر من الرياض.

فواز: لا... بس يحبَّ لندن أكثر من روما أو باريس.

فالح: والحلَّ يعني.

فَوَاز: الحلّ يطول عمركَ يقيم مدير الفرع إذا كانت إنتاجيته حسب سياسة الشركة وخططها مرضية أعتقد أنّ من حقّه على الشركة أن يُسأل على الأقل إذا رغبَ في النّقل أم لا؟

فالح: وبالتالي يعمل على تكوين مراكز قوى.

فَوَاز: مراكز القوى إذا كانت تصبّ في مصلحة الشركة أهلاً وسهلاً بها، ولكن إذا كانت تصبّ في مصلحة أخرى، فالحل في الرّقابة الدّاخلية الدّاتية والخارجية والتقارير عن الانحرافات.

فالح: من عنده تعليق على الموضوع.

ردّ "فَوَاز: القرار الأخير لكم.

فالح: الحقيقة كلام فيه كثير من المنطق... في أحد يعترض على هذه النقطة عشان راح نتحدّث في النّقاط الأخرى.

ولما لم يعلّق أحد طلبتُ من السّكرتير أن يختم محضر الاجتماع بالعبارّة المكرّرة، وهي وبناء على المناقشة التي تمّت وافق المجلس بالإجماع على أن يدرس رأي الأستاذ "فَوَاز" مدير القوى العاملة بالشّركة وتشكّل لجنة لوضع استراتيجية لموضوع نقل القوى العاملة، وأثار ذلك على مصلحة الشركة.

وعندما خرج الجميع من غرفة الاجتماعات سمعتُ الحوار التّالي دون قصد منّي بين "فَوَاز" وأحد مديري الشركة.

أحدهم: والله مسحت برأي النّائب الجديد البلاط اليوم، يحقّ لك يا عم تنغر كذا وتكون فرحان.

فَوَاز: أنا فرحان إنّي أعمل تحت أمر مدير ديمقراطي بكلّ معنى الكلمة مثل الأستاذ "فالح"، فرحي وغروري يا سيّد لأنّي في شركة محترمة وتقدر آراء أبنائها وتشجّعهم على التّفكير، بالإضافة إلى أنّ حقوقي كلّها مضمونة؛

لذا فإنَّ من واجبي أن أحترم واجباتي وأكون مسئولاً عن كلِّ ما يجري في الشركة لأنَّها تهمَّني، أمَّا أفكاركم التَّافهة هذه مسحت به البلاط، احنا مالنا اللي يقوله الكبير يمشي واحنا نمشي وراه زي الغنم، واللي يتجوَّز أمنا هو عمنا، ومسح الجوخ هذا اللي موذي البلد في داهية.

وصلت إلى مركز الأمين العام للجمعية، وكان الاجتماع مع المجلس والذي من المفترض أن نكون سبعة أشخاص، ولكن في جميع الاجتماعات التي حضرتها كان مكان الزعيم خالياً، وكان يرأس الاجتماع النائب الأوَّل، لاحظتُ أنَّ الاجتماعات عبارة عن محضر معدَّ بالموافقة على ما تقدَّم به الأمين العام في المذكرة المرفقة ورقم المذكرة وتأريخها، وتنتهي الجلسة دون أن يتحدَّث أحد مع الآخر، بل يشرب الجميع الشاي والماء وتفتح الجلسة باسم الله الرَّحمن الرَّحيم وقراءة الفاتحة في صمت، ومن ثَمَّ المحضر من سبعة صور، يوقع العضو على جميع الصُّور وتختتم بالصَّلاة على رسول الله ﷺ وآخر دعائنا أن الحمد لله ربِّ العالمين وقراءة الفاتحة مرَّة أخرى جماعة وبصوت مسموع، لا نقاش، لا اعتراض، لا رأي لأنَّ المذكرة قد مرَّت على الأعضاء مسبقاً، وتمَّ تعديلها وتصحيحها، ولا داعي لمضيعة الوقت.

عندما أنهيت آخر المذكرات وخطة العمل المستقبلية وتمَّت المصادقة عليها قرأت العبارة الآتية:

وقرَّر المجلس أن يقوم الأخ "فالح نائر الفالح" بتقديم الملفات بأكملها إلى الزعيم في الرياض تنفيذاً للتعليمات.
سألتُ: ومتى سيكون اللقاء؟

اليوم ستكون الطَّائرة الخاصَّة جاهزة بعد ساعتين من الآن. (ردَّ النائب).
كانت الأوراق كلُّها معدَّة في الحقيبة، واستلمتها وتركت مقرَّ التَّنظيم إلى منزلي لإعداد حقيبتني، وقد أعطيتُ أوامري للخادم أن يعدَّ حقيبة سفري

للرياض، وبعد قليل كنتُ في الطائرة الخاصة بالزَّعيم، كان في استقبالي في المطار شخصان فقط، أخذ أحدهم حقيبة ملابسي والآخر رافقني في السيَّارة الشَّبح السَّوداء التي انطلقت بنا من أرض مطار الطَّيران الخاص إلى وسط المدينة، انَّجَّهت السيَّارة إلى مبنى كبير، وعند البوابة التي كانت تراقب ما في داخل السيَّارة دون داعٍ طُلِبَ من السَّائق فتح مؤخِّرة السيَّارة، وبالذَّات إذا كانت ملغمة بالمتفجَّرات أو أي شيء قد يعرِّض حياة العاملين للخطر، وقفت السيَّارة في مدخل جانبيٍّ فخم، ترجَّلت منها بعد أن طلب منِّي مستقبلي ذلك، وخرجتُ معه حتَّى سلَّمني لثلاث أشخاص كانوا ينتظرونني في بهو المدخل، وبسرعة البرق كنتُ أحصى عدد الأشخاص الذين في البهو الذين قاموا من أمام مكاتبهم وقوفًا احترامًا للضيف القادم، حتَّى عامل الشَّاي الذي حاول أن يَخْتفي بسرعة داخل مطبخه الصَّغير، على جانبي المصعد وقف حارسان مع كليهما، وفي داخل المصعد كان هناك حارس آخر ضخَم الجثَّة دخل معه المستقبِلون الثَّلاث، ووضع الحارس المفتاح، أغلق الباب وصعد الجميع، لم أتحَدَّث مع أحد، وعندما فتح باب المصعد وغادرته مع مرافقيَّ الثَّلاث وجدتُ نفسي في بهو آخر ومكاتب مغلقة وبعض العاملين من الجنسين الذين قاموا احترامًا لنا، وبعد أن فُتِح بابٌ آخر يودِّي إلى صالة أخرى وأبواب مغلقة وبعض الموظَّفين صعقت لفخامة المبنى، خاصَّة ذلك الباب الموجود في صدر الصَّالة الثَّالثة، وكأنَّه مصحف مكتوب بزخارفه الإسلاميَّة الموجودة في المصاحف وسورة الفاتحة على الشَّقِّ الأيمن من الباب، وبداية سورة البقرة على الشَّقِّ الأيسر، لم أكن أعتقد أنَّه باب حتَّى وجدتُ أنَّ مضيفيَّ يتَّجهون نحوه وفُتِح الباب تلقائيًّا، رأيتُ مكتبًا فخمًا وشابًّا في العشرينات من العمر ترك مكتبه وانَّجَّه نحوي للسَّلام، وأغلق الباب ولم يسمح للمرافقين بالدَّخول. مكتب من خشب الورد مطَّعم

بالذهب والفضة، رَحَّب المضيف وأجلسني في مكان مخصوص للجلسة بعيداً عن مكتب عمله كي لا يتلصَّص أحدٌ على عمله، كانت الأريكة مريحة، طلب منِّي قائلاً: لا تقلق لأنَّ الرَّعِيم مشغول الآن... تحبَّ تخلع المشلح.

- لا... لا... أنا مرتاح شكراً. ما اتعرفنا على الأستاذ.

- خادمكم "نادر"... الله يطوِّل عمرك.

- وعملك؟

- السَّكرتير الخاص.

فُتِحَ بابٌ في زاوية الغرفة، وخرج منها نادٌلٌ كأنَّه استعار ملابس علاء الدِّين، وهو يدفع أمامه عربة، عندما اقتربت منِّي وجدتُ بها كيك المارون قلاسيه التي أعشقها وزجاجة شمبانيا إيطاليَّة من أفخر أنواع الشَّمبانيا، وبعد أن فتح الزَّجاجة وصبَّ كأساً استأذن وهو ينحني كأنَّه جنِّي علاء الدِّين، سائلاً إذا كان هناك أيُّ خدمة أخرى يمكن أن يقدِّمها قبل أن يعود إلى قمقمه. قدَّم لي نادر (ريموت كنترول) جهاز التَّحكُّم عن بعد للتلفزيون قلت: عندكم مسرحيَّة الرَّعِيم؟

تبسَّم نادر وقال: يمكن أن نحضرها لكم حالاً. (وبعد دقائق كنت أشاهد مسرحيَّة الرَّعِيم).

- تحبَّ "عادل إمام"؟ (سأل نادر).

- أهو زعيم بدل زعيم.

انتهت المسرحيَّة، ولم يظهر الرَّعِيم الحقيقي، وعندما وجدتُ "نادر" وقد تبسَّم قال:

- هنا في جناح كامل إذا حبَّيت ترتاح.

- فين؟

- اتفضَّل.

فتح باباً يؤدِّي إلى صالة صغيرة، وفيها ثلاثة أبواب، فتح "نادر" أحدها... في الدَّاخل غرفة نوم كاملة وفخمة وحمَّام خاص، وهذا الباب

مكتب وهذا الباب صالون، خرج نادر وتركني أسأل نفسي كم كلف هذا المبنى؟

إذاً فالأموال تصرف هنا، صحيح إن ميزانية التنظيم لم تقصر في أي مشروع حيوي، بل إن الصرف زائد عن الحاجة في بعض الأوقات، ولكن لا بد من وجود احتياطي كبير لتغطية المصاريف في الأوقات الحرجة، خلعتُ ملابسي كلّها وألقيتُ بجسدي على السرير، لا أعرف كم من الوقت مرَّ عليّ، ولكنّ النعاس كان أقوى مِنّي، والجوّ الهادئ يساعد على الاسترخاء ولم أبق إلا على صوت "نادر" من الهاتف الداخلي يقول إنَّ عليّ الاستعداد لأنّ الزعيم جاهزٌ لاستقبالي.

تركتُ السرير مرغماً وانَّجَحتُ نحو الحَمَّام، وبعد أن استحمت وجفّفت شعري وجدتُ فرشاة ومعجون أسنان جديدين، وكذلك وجدتُ علبة فيها قرنفل أو مسمار على رأي أهل نجد ولبان لامي وحلاوة نعناع الماركة التي أحبّها، وضعتُ في فمي حبة قرنفل وحبة حلاوة، ومزيتُ رائحة العرق ولبستُ ملابسي مرّة أخرى بعد أن أعدّها الخادم الذي يرتدي ملابس علاء الدّين، وعندما حاولتُ أن أمدّ يدي لفتح الباب كان الباب يفتح تلقائياً، وكان في انتظاري "نادر" انَّجَحتُ نحو لوحة رائعة كُتبت عليها آخر آية من سورة البقرة: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ (صَدَقَ اللَّهُ العَظِيم) تحرَّكتُ اللوحة نحو اليمين تلقائياً ليظهر مظهرٌ خلاب، تقدّم خادم يلبس نفس تصميم الملابس للخادم الخارجي، وإن كان القماش والحزام الذهبي العريض في الخصر أعرض وأنصع، وهناك جوهرة على العمامة، طلبَ مِنّي أن يحمل الحقبة بدلاً عني وبنظرة من نادر وافقتُ على الفور، كانت الصّالة رائعة، خاصّة المسبح وجاكوزي، وجلسة خاصّة بالقرب من مدفأة، وباب يدلّ على أنّه حَمَّام بخار وغرفة للتدليك، وأخرى للأشعة

الشَّمْسِيَّة تتناثر فيها جلسات قريبة من الأرض على شكل سرر أقرب منها من الأرائك، وفي الجدار الآخر يوجد أوكوريوم بحريات رائع، أمَّا بقيَّة الجدران فكانت عبارة عن آيات قرآنيَّة من رخام الرّوزة البيضاء متلاصقة مع حجر الملكاي الأخضر الفخم المطعم بالذهب لتغطية الفراغات بين الألواح وبطريقة فيها كثير من الإبداع، وعلى اليمين سلام تؤدِّي إلى الدّور الثّاني، تقدّم "نادر" وتبعته، ثمّ الخادم الذي يحمل الحقيبة، سعدنا السّلام التي كانت من رخام الملكاي الفخم وقائم السّلم من رخام الرّوزة والدّرايزين مطلي بالذهب والفضّة، في الدّور الثّاني كان هناك عدّة أبواب، اتّجه "نادر" لأحدها وكان عبارة عن آخر صفحة من القرآن الكريم بنقوشها ورسومها، طُبِعَت عليها السّور الثلاثة الإخلاص والمعوذتين، هل هذا هو آخر الأبواب المغلقة؟ لا يوجد غير احتمالين لا ثالث لهما، إمّا بنعم أو لا.

فتح الباب ودخلنا ثلاثتنا غرفة ليس بها سوى مكتب من طراز لويس الرّابع عشر وخلفه كرسي وأمامه كرسي واحد فقط يواجه الكرسي الخلفي، وبجوار الكرسي الآخر طاولة من نفس طراز المكتب والكراسي، وكأنّك دخلت في صفحة من تأريخ القرن الرّابع عشر الميلاديّ الفرنسيّ، أجلسني "نادر" على الكرسي المخصّص، وطلب من الخادم أن يضع الحقيبة على المكتب، وانصرفا تاركين المكان وحيدًا معي في انتظار الرّعيم، وبعد دقائق من الانتظار أحسست أنّ الباب الذي خلفي قد فُتِحَ ودخل منه شخص ما، ولكن لم أتحرك من مكاني لأنّعرّف على القادم، وعندما اقتربت الخطوات مِنِّي وبالرّغم من أنّ صاحبها يحاول جاهدًا أن لا يسمع أحد خطوته، ولكن كلّ حواس الاستشعار عندي قد استنفرت لتصبح قادرة على مساعدتي لسماع دبة النّملة، وعندما أصبح الشّخص في محاذاتي استدأّر سائلًا إذا كنت أريد شيئًا، لم أهتز بل طلبتُ كأسًا من الماء، بكلّ هدوء غادر الخادم من المكان نفسه وعاد

مرّة أخرى حاملاً صينيّة مطليّة بالذهب والفضّة وعليها كأس، لم أر حتّى في خيالي أجمل منها ومن هذا المكان، سألني الخادم إذا كنت أريد شيئاً آخر قبل أن ينصرف؟ وكان جوابي بلا وشكراً. غادرَ الخادم المكان وظللتُ أنتظرُ قدومَ الزّعيم وأنا أتلذّذ برشف الماء قليلاً... قليلاً حتّى فرغ الكأس، وسمعت صوت الباب نفسه يُفْتَح مرّة أخرى، وسمعتُ الخطوات تقترب مِنّي وتأكّدت أنّه الخادم من غير أن ألثفت خلفي للتعرّف عليه، وبالفعل تقدّم مِنّي الخادم وهو يقدّم كأساً آخر من الماء، ويضع الكأس الفارغ في الصّينيّة وعاد أدراجه، وسمعتُ الباب وهو يغلق... ها أنا بمفردي في هذا الصّمت الرّهيب، ولكنّ صوتاً لا أنكره ولا أعرف من أين جاء يرحّب قائلاً: أهلاً بالأمين.

لم أتحركُ فالصّوت أكيد أنّه من خلف الجدار مثل أفلام جيمس بوند ينظر إلينا من عدسة معيّنة في مكان ما أو كاميرا... هذا الزّعيم الذي لم يره أحدٌ حتّى الآن، ولكنّ الصّوت... هذا الصّوت ليس غريباً، لا بل أعرفه تمام المعرفة، معقول... لا... لا... غير معقول.

وعندما أحسستُ بيد تربت على كتفي أحسستُ بقشعريرة تسري في جسدي، وكاد قلبي أن ينخلع من صدري... الزّعيم هنا، خلفي، كيف دخل ولم أسمع وقع قدميه وأنا الذي درّبت نفسي على سماع دبة النّملة على رأي من يعرفني معرفة جيّدة، وعندما قمتُ واستدرتُ لأسلم على الزّعيم، كادت المفاجأة أن تُفقدني صوابي، وكدتُ أسقط على الأرض لولا أن يد الزّعيم امتدّت لي في آخر لحظة، وصرختُ والأحرف تتعثّر في كلماتي: أنت... أنت الزّعيم.

انتهت قصّتي ولكن هل ينتهي التّفكير في التّغيير؟
إلى اللقاء في الجزء الثّاني من الزّاوية المهجورة (السّاق).